حكيم ودهب

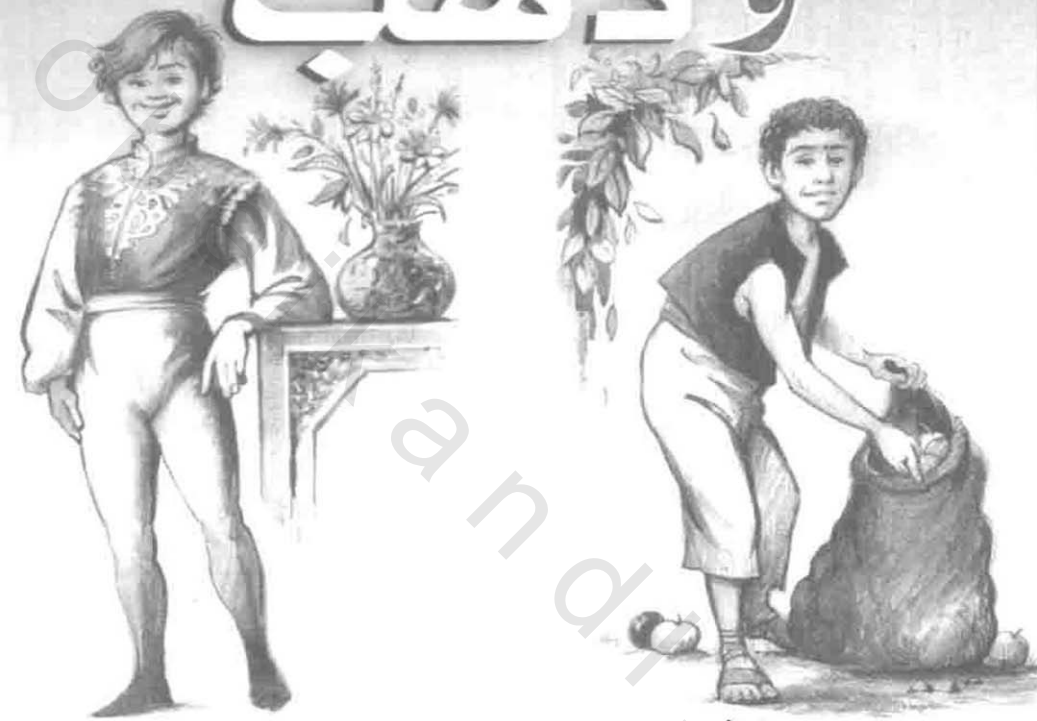

د. علي راشد

الحائز على جائزة الدولة التشجيعية فى أدب الأطفال

رسوم الفنان : أسامة أحمد نجيب

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

٨١٣,٩ على راشد.
ع ل ح ك حكيم ودهب/ على راشد.- القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٦م.
١٦٤ ص: إيض؛ ٢٤سم.
تدمك: ٦ - ٢٠٢٢ -١٠- ٩٧٧
١- القصة العربية. أ- العنوان.

جمع إلكترونى وطباعة

رقم الإيـــــداع ٢٠٦٧٤ / ٢٠٠٥

obeikandl.com

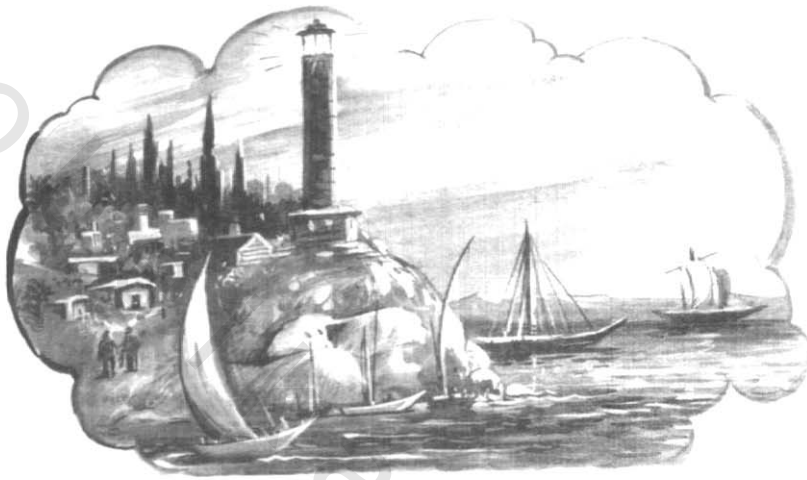

ليلة العرس

«ضَيّ الفنَار» بلدةٌ صغيرةٌ تُطِلّ على البحر الكبير، سُمِّيت بهذا الاسْمِ لأنَّها تتميّز بوجودِ تَلٍّ مُرتفع بالقرْب من الشاطئ، وعلى هذا التّل تم بناءُ برج عالٍ منذ زمن بعيد سُمّى «الفنار» حيث يُضَاءُ فيه كلَّ ليلة مصباحٌ زيتيّ كبيرٌ له ضوءٌ مشع يَهدِي السّفنَ ليلا إلى اتجاه الشاطئ؛ ولذا أُطلق على هذه البلدة الصغيرة اسم «ضَيّ الفنَار» نسبةً إلى هذا الضوءِ المشعّ الذي ينْبَعِثُ ليلاً من هذا الفنار ويُرشد البحارةَ في ظلام الليل الدَّامِس إلى طريق البَر.

وتميزت هذه البلدةُ الساحليةُ الصغيرةُ بجمالِ مَناظرها، فهذه الأشجارُ الباسِقةُ التي تزيّنها، وخاصةً أشجارَ جوز الهند المتميزة بطُولها وشُموخها ورشاقَتها وثِمارها.. هذه الأشجارُ تُضفي على ساحِلِ البحر بمياهه صافيةِ الزُّرقة منظرًا آخّاذًا للناظرين.. فهذه أشجارٌ خضراء.. وتلك مياهٌ زرقَاءُ..

وبجوار هذا وذاك زهُور ووُرود مختلفةُ الألوان، ذكيةُ الرائحة، مدهشةُ المنظر، ومتناثرةٌ في كل مكان، يُخيَّل لمن يَرَى كلَّ هذا الإبداع الإلَهي أنه يَرَى قطعةً من جَنّة رضوان.

ورَغْم صِغَر بلدة «ضَيّ الفنَار» إلا أنه يُمكن تقسيمُها إلى قسمين:

حَي شرقي، وحَي غَربي ..

الحيّ الشرقيُّ عبارةٌ عن مَجموعة من الأكْوَاخ الخشَبيّة تختلف في مِسَاحَتِها، ونوعيةِ الخشَب التي بنيت بها، وارتفاعِها، فمنْها ذاتُ طَابَق واحد، ومنها ذاتُ الطَابَقيْن، وجميعُها قريبٌ من ساحل البحر، وتتميزُ بأن جميعَ سُكانها من بُسَطَاء البلْدة وفقرائها الذين يعملون بحرَف يَدويّة.. مثلَ صيد الأسماك، واستخراج اللؤلؤ والمرْجان من البحر، وصناعَة السِّلال، والنِّجارة، وزرَاعة المحَاصيل الزِّراعية من خُضْرَوات وفَاكهة وقمْح وشَعير وغيرها ممّا يحتاجُه الإنسانُ. وكذلك يقُومُ سُكانُ هذا الحي الشرقيِّ الفقير بكافَّة الأعْمَال الشاقَّة التي لا يَستغْني الناسُ عنها مثل: نقْل الأشياء، وبنَاء المساكن، وبَيْع الخُضرَوات والفاكهة وتوفير مياه الشُّرب النقية من العُيُون والآبار التي تُوجدُ بوفرةٍ في هذه البلْدة الساحلية الصغيرَة.

أما الحيّ الغَرْبي من «ضَيّ الفنار» فهو للصَّفوة الأغْنياء وأصحَاب القُصُور الفَارهَة والمبانِي الفَاخرَة، والأسْوَار العَالية، والحدائق الواسعة التي تضُم داخلَ أسْوارها الأشجارَ المنوَّعةَ المثمرةَ منها وغَيرَ المثمرة، والزهورُ في تلك الحدائق ذاتُ ألوان جَميلة ومتعددة وروَائح عطرةٌ مبهجة تحمِلُها الرياحُ إلى كلِّ مكان حولَها فتُميِّز الحيَّ الغربيَّ الثري برائحة زكية طَوالَ الوقت ليلاً أو نهارًا.

والأغْنياءُ والأثْرياءُ الذينَ يسكنُونَ هذا الحيَّ الغربيَّ عددُهم قليلٌ وهم يمتلِكُون مُعظمَ ثروة البلدة، ويعملُ عندَهم كَثيرٌ من سُكَّان الحيِّ الشرقيّ الذينَ يخدمُون هؤلاء القلَّة الغنيَّة ويقْضُونَ لهم حوَائجهُم المختلفَة.

وذاتَ ليلةٍ عاشتْ بلدةُ «ضَيّ الفَنَار» الساحلية أجملَ أفراحِها، سواءٌ في حيّها الشرقيّ البسيط الفقير؛ أوْ في حيّها الغربي فائق الثَّراء. ففي تلكَ الليلةِ كانَ عرسُ «سارة» تلكَ الفتاةُ السمرَاءُ.. جميلةُ جميلات البلدة، ومحطُّ أنظَارِ شبَابها.. مَليحةُ الوجْه.. ذاتُ الشَّعْر الأسودِ الطويل، والقَوام المثَالي. وهي ذاتُ أخلاقٍ عالية، وأدبٍ جَمّ. أما عريسُها فهو الفتى «عَامِر» خيرةُ شبَابِ البلدَةِ والمتيمزُ بشبَابه الوافر وقامته الممدُودة، ووسَامته الظاهرَةِ للعَيَان، وحُلو قسَمَات وجْهه الأسْمَر، وسلوكه الرزين، وخلُقه القويم، وسُمعَتِه الطيبةِ في كَافَّة أنحاءِ البلدَة. وشملَتْ الفرحةُ جميعَ أهلِ الحي الشرقي، فالفتَيَاتُ والفتيان يرقصون في فَرْحةٍ وبهْجة، والرجَالُ والأطفالُ يصفّقُون، والنِّسَاء يُزغْردْن ويهلّلن، فالجميعُ تغمُرهم السعَادةُ والسرورُ بزفَاف جميلةِ جَميلات البلْدةِ «سَارَة» علَى فتَى فِتْيَان البلْدة «عَامِر».

وَفِي تلك الليلَةِ السعيدةِ نفسِها، أُقيمت الأفْراحُ كذلك في الحي الغَربيّ للبلدة حيث كان عُرسُ الفتاةِ الجميلةِ الثريَّة «لُؤْلُؤة» ذاتِ الجمالِ الأخَّاذ، والتي كانت تُعَدّ من أجملِ فتياتِ الحي الغربي، حيث تَميَّزت ببشرةٍ بيضاءَ مَشوبةٍ بحُمرة، وشَعْر أسودَ مُرسلٍ حتى خصْرِها، والقَوام الممتلئُ الذي يميلُ ناحيةَ البدانةِ منه إلى النَّحافة.. هذه الفتاةُ الجميلةُ ذاتُ الحسَبِ والنَّسب كانت تُزَفّ في تلك الليلَةِ إلى الشَّاب الثريّ التاجر «سندُس» المعروفِ بثرَائه وكثرةِ أموَاله، حيثُ يمتلكُ من أراضي البلدة أخصَبَها، ومن القصُور أفخَمَها، كما يمتلكُ العديدَ من سُفنِ التِّجارة التي تَجوبُ البحَار شَرْقًا وغَربًا، وشمالا وجنوبًا، والتي تُتاجر في كافةِ الأغراض، ومختلفِ البضَائع لتَزيد من ثراء الوجيه «سندس» وتضيفَ أموالا إلى أمواله. ومن أجْل هذه الليلةِ الفريدةِ تَمَّ إحضارُ الفرَق الفنِّية من بلدان بعيدة، سوَاءٌ فِى الموسيقى، أَو في الغناء، أو فِي الرَّقْص، لتقُومَ بإحياءِ هذه الليلةِ السعيدةِ غيرِ المسبُوقَةِ التي أُقيمت فيهَا الزِّيناتُ والوَلائمُ، وحضَرَها عِلْيَةُ القومِ من البلدة نفْسِها، أو منَ البلاد المجاورَة.

وكانت ليلةً من أجملِ لَيالي بلدة «ضَيّ الفَنَار» التي فَرِح فيها وسَعِد كلُّ أبنائها.. الكبيرِ والصغيرِ.. الغنيّ والفقيرِ.. الرجالِ والنساءِ.. الصِّبْية والبَنَات الكلّ على حدٍّ سَوَاء.. وسَهَر الجميعُ حتَّى مطلعِ الفجْر في فَرَحٍ وسُرورٍ وبهجةٍ وسَعادةٍ احتفالا بزفاف سَارة إلى عَامِر.. ولُؤلُؤة إلى سُندس.

المولودان

لم ينْسَ سكّان بلْدةِ «ضَيّ الفَنَار» لشُهور طويلةٍ تلكَ الليلةَ التي سَعِدوا فِيهَا جميعًا، ليلةَ أفراحِ الحيّ الشرقي، وأفراحِ الحيّ الغربي، على حَدٍّ سَوَاء.

وانقضَتْ شُهورٌ عشْرةٌ تقريبًا من تلك الليلةِ السعيدة، ثم حدثَ أمرٌ مُهمّ شغَلَ بالَ الفتَى «عَامِر» وأسْرَته، وأيضًا شغَل بالَ الثرىّ «سُندس» وأسرَته. ففِي ليلةٍ من ليالي الشتاءِ الباردةِ، اشتدتْ الريحُ فيها بدرجةٍ قويةٍ، وأخذتْ تُحدِث أصْواتًا مزعجةً، وصَفِيرًا يملأ القُلُوب بالخوفِ والرهبة. وفي ساعةٍ متأخِّرة من هذَا الليلِ الدامِس اختَفَى فيها القمر خَلْف غَمامٍ متراكم وسُحبٍ مكثَّفة، كانَ هناك حَادِثٌ سعيدٌ ينتظرُ أسرةَ الفتى «عَامِر» والجميلةِ السَّمراء «سَارة»، حيثُ اقتربَ مَوعدُ قُدومِ مولُودِهما الأول. وتم استدعَاء عجوزِ البلدةِ «أمّ سُرور» التي

تقُوم بمساعدة الأمهات في الحي الشرقي الفقير في استقبال مَوَاليدهن منذ سنواتٍ بعيدة. وأقبلَت هذه السيدةُ العجوزُ الطيبة «أم سرور» إلى الكُوخ الخشبيّ الذي تَعيشُ فيه «سَارة» مع زَوجها «عامر».

وتَمّ تجهيزُ كلِّ حاجياتِ استقبالِ المولُود من قِبَل أمّ سَارة وخَالَتِها. وقبلَ أن يتركَ الفَتى «عَامِر» الحجرةَ المتواضِعةَ التي ترقُد فيها زوجَتُه الحبيبةُ «سَارة» ومن حوْلِها أمُّها وخَالَتُها، وعجوزُ البلدة الطيبة (أم سرور)؛ نظَرَ إلَى زوْجَتِه نظرةَ حُبٍّ وعطْفٍ وتَشجِيعٍ، ثم قال لَها وهو يُحاولُ أن يُخفِي مشاعِرَ القلَقِ والتوتّرِ عليها:

- تشجَّعي يا زوجَتي العزيزة.. فبعدَ قليل من المعَانَاة إن شَاء الله.. سوفَ نُرزَق بهديَّةٍ عظيمةٍ يرسلُها لنَا ربُّ العَالمين.

وبوجْهٍ شَاحِبٍ تبدُو عليه آلامُ الوضْعِ ظهرتْ علَيْه ابتسَامةٌ خَفِيفَةٌ قالت في صوتٍ ضعيفٍ وَاهِن:

- إن شَاء اللهُ يا عَامر يا زوْجِي الحبيب..

وغَادَر «عَامر» الحجرةَ المتوَاضِعَةَ وهو يُوصي السيدةَ الطيِّبَةَ العجُوزَ «أُمّ سُرور» قائلا:

- خَالتي «أُمّ سرور».. أرجوكِ أن تعتَنِي بزوجَتِي «سارة» في هذِهِ الظُّروفِ الصعْبة، ولا تجعَليها تتألَّمُ كثيرًا.

فضحكَت «أُم سرور» ضِحكتَها المعهودَة التي أظْهرتْ سقُوطَ بعضِ مُقدمة أسنَانِها، وقَالت تُطمئِنُ الفتَى عامِر:

- لا عَلَيك يا ولَدِي.. فلقد قُمتُ باستقبالِ زوجَتِك «سارة» وهِيَ مولودةٌ من أمّها منذُ حوالي عشْرين عامًا.. واليومَ بإذن الله أستقبلُ مولودَها الأولَ.. الأمرُ بسيطٌ وهيّن، فلا علَيكَ يا ولدي.

فاطمأنَّ «عَامِر» من كَلمات السيدةِ العجُوز المتفَائلة، وغادَرَ الحجرةَ المتوَاضِعَةَ وهُو يدعُو ربَّه - سبحانَه وتعالى - أن يَحفَظَ زوجتَه سَارة من كُلّ شَرّ، وأن تَمُرّ هذِه اللحظاتُ الصعبةُ علَى خير.

وما هي إلا دقائقُ معدودةٌ حتى سَمِع «عامر» أَصواتَ ألمٍ مكتُومةً من زوجته «سارة» تدلّ على أن لحظَة الميلادِ قد اقتَرَبتْ. ثم زَادت أصْواتُ الألَمِ شَيئًا فشَيئًا حتى صَارتْ صَرَخات، فانزَعجَ الفتَى بِشدّة، وزادتْ ضرباتُ قَلْبِه خوفًا على زَوْجَته وأشفَق علَيها، وتمنَّى أن يُفْدِيها بروحِه، فأخذَ يدعُو اللهَ - عزّ وجلّ - أن يُخفِّفَ عنها هذه الآلامَ، وتساقَطتْ قطَراتُ دموعِه من عينَيه وهو يُنَاجِي ربَّه ويدعُوه خوْفًا وطمعًا. ومعَ زيادةِ صَرَخَات زوجَته، ازدادَ هُو تضرّعًا ودُعاءً للهِ ربِّ العالمين، حتّى جاءَت لحظةٌ سكتَتْ فِيها «سَارة» عن الصُّراخ والمعَانَاة، وحَلَّ محلَّه صوتُ المولُود الجديد الذي خَرَجَ للحيَاة تَوّاً.

وحَلَّت الابتسامَةُ محلَّ القلَق والتوتُّر على وجه «عامر»، وسجدَ للَّه شكرًا على سلامةِ زوجَته، وعلَى قُدوم مولُودِهما الأوّل مهمَا كانَ جنسُه. ذكرًا كان أم أنثَى، وما هي إلا بُرهةٌ حتى خَرجَت أم «سارة» وَهِي ضَاحِكَةٌ مستبْشِرَة بقدُوم حفيدها الأول قَائلةً:

- أبْشِرْ .. أبشِرْ يا عَامر، فلقَد رزقَكَ اللهُ بمولُودٍ ذَكَرٍ جَميلِ القَسَمَات.

فصاحَ عَامر فِي فَرَح:

- مَولودٌ ذَكَر.. الحمدُ لله.. الحمدُ لله.. ولكنْ كَيف حالُ سَارة؟

ردَّت الأُمّ بحالَة الاستبشَارِ نفسِها:

- إنها بِخيْر.. بِخيْر..

قالَ عامر ودمُوعُ الفرحِ فِي عَيْنيه:

- الحمدُ لك يا ربي.. الحمدُ لك يا ربي..

وسجدَ مرةً أخرى لله- عز وجل- شاكرًا لأنْعُمِه، وعلَى ما رزَقَه من وَلد.

ومَا هي إلا لحظاتٌ حتى خَرجت السيدةُ العجوزُ الطيِّبةُ «أُم سرور» وهِيَ تحملُ المولُودَ، وقالتْ وهِيَ تضحَكُ ضِحكتَها المعهُودةَ التِى تُظهر سقُوطَ بعضِ مقدِّمة أسنانِها:

- أبْشِرْ يا عَامر.. هذَا هُو ولَدُك..

فقامَ عَامر واحتَضَنَ مولُودَه في فَرحٍ وسُرورٍ لا يُوصف قَائلاً:

- أحْمَدُ الله وأشكُرُه على نِعمتِه وعطَائِه، وأشكُرك يا خَالَتِى «أُم سُرور» على مَا قُمتي به منْ عَمل وجَهْد.

فردَّت العجُوز الطيِّبة:

- لا شُكرَ على واجِبٍ يا وَلدي، هيّـا ادْخُل الآنَ واطمـئِن على زوجَـتِك سَارة.

وفِي لهفـةٍ مغمُورةٍ بالفـرْحَة، دخل عَامر مُسرعًا إلى الحجْـرة، فوجَد زوجَتَـه «سـارة» مُصـفَـرَّة اللون، مُنْهَكَة القُـوى، شـاحبـة الوجـه، ومعَ ذَلك فـإنَّ ابتسَامتَها الجَمِيلةَ أضَاءت وجهَها الأسْمَر، فبادَرَها زَوْجُها قائِلا:

- حَمدًا لله علَى سلامتِك يا زوْجتِي الحبِيبة.. لقدْ رزقَنا اللهُ بولَدٍ جَميل مثلِك.

أبشِر يا عَامِر .. هذا هو وَلَدك

فردتْ الوالدةُ فِي صَوْتٍ ضَعيف واهِن لا يخلُو من الفَرْحَة:

- الحمدُ لله يا عَامر.. بماذَا تُريد أن تُسمِّي مولدَنا الأوَّل يا عَامر؟

- كَمَا تُريدينَ أنْتِ يا زوْجَتي العزيزة.

- لقدْ رأيتُ فِي المنَام منذُ عدةَ أيامٍ جَدتِي - يرحَمُها اللهُ - وهِيَ تبتَسِم لِي وتنَادِيني قائِلةً: تعالَيْ يا أُمَّ حكيم.

- أُم حكيم!! هذه بُشْرَى واللَّه يا سَارة، فلقد بشَّرتْك جدتُك - رحمَها اللهُ - فِي المنَام بأنكِ سوفَ تُرزَقين بولَدٍ يدعَى «حكيم».

- نعَم.. نعَم يا عَامر.. إنها بُشْرَى رائعةٌ.

وردَّد عامِر في سعَادةٍ:

- حكِيم.. حكِيم.. ما أجملَه اسمًا، إنه مشتَقٌّ من الحِكْمة.. إذَنْ نحمدُ الله على سلامتِك يَا .. أمَّ حكيم.

وردَّت «سارةُ» مبتَسِمةً:

- سلّمكَ اللهُ يا أبَا حكيم.

وضحكَ الزوجَان السعِيدان فرَحًا وسُرورًا بقدومِ ولدِهما «حكيم».

وَفي تلكَ الليلةِ.. بل في اللَّحظات نفْسِها تَمامًا. وفي أَحدِ قصُور الحيّ الغربيّ من بلدَةِ «ضَيّ الفنَار»، استقبلَتْ السيدةُ المصونةُ، ذاتُ الحسْنِ والجمَال «لُؤلؤة»، وزوجُها الثري المعروف «سُندس» مولودَهُما الأولَ، بعد أنْ قَام بمهمّة التوليد أكبرُ أطبَّاء المنطقة، وبصُحْبتِه فريقُ عملٍ كَامل من الممرِّضات الخبيرات بفنُونِ التمريض، وهُنّ يرتدِين الملابِسَ البيضَاءَ الجميلةَ، وكأنَّهُنّ ملائكةُ الرحمة.

وصعَد «سُندس» إلى الحجرَةِ الفسيحةِ الفاخِرةِ التي ترقُد فيها زوجتُه الجميلةُ «لؤلؤة»، وقد غَمرتْه مشَاعِرُ الفرحَةِ والبهجةِ بقدُومِ مولُودِهما الأول.

وبابتسَامةٍ عريضةٍ قالَ لهَا:

- زوجَتي الحبيبةُ الجميلةُ «لُؤلؤة»، لقد رُزقْنَا بولَدٍ جميل مثلك.

فردَّت زوجتُه في دَلال:

- كنتُ أتمنَّى أن تكونَ بنتًا، حتى أدلِّلها كما كانتْ أُمي تدلّلني وأنا صَغِيرة.

وضَحِك «سندس» عَاليًا وقال:

- لا علَيكِ يا حبيبتي.. المرةُ القادمةُ ستكون بنتًا.

وردَّت الزوجةُ معَ مَزيد من الدلال:

- مرةٌ قادمة!! لقد عَانيتُ الكثيرَ من متَاعِب الحمل وآلامِ الوضْع. ولا أظنّ أن تكُونَ هنَاك مرةٌ قادمةٌ إلا بعد عِدَّةِ سَنوات.

فازدَاد ضَحِكُ «سُندس» من كَلام زوجَته «لؤلؤة» المدلّلة وقال:

- الأمرُ لك يا حبيبتي.. والآنَ.. بأيّ اسمٍ سنسمي مولودَنا الأول هذَا؟

- أريدُ أن أسمّيه باسمِ أغلى شيءٍ فِي هَذهِ الدنيا.

وبدهْشَة رد زوجها:

- أغلَى شيءٍ في هذِه الدنيا!! ماذَا تقصِدِين؟

- ما أغلَى شيءٍ في هذه الدنيا؟

- أغلَى شيء في هذه الدنيا هو الذهب.

- حسنًا.. سنسمِّي طفلَنا .. دهب.

وفكّر سُندس قليلاً في هذا الاسم، وقال مبتسمًا:

- دهب.. رائع.. هذا فعلاً اسم رائع.

فقَالت «لؤلؤة» مبتسمةً:

- مُبارك عليكَ ولدُك يا أبَا دهب..

- مبَاركٌ عليكِ أنتِ ولدُك يا أمّ دهب..

وضحِكَ الزوجَان في سعَادة، بينَما وليدُهما «دهب» يبْكِي ويصْرُخ مع دَقَائِقه الأولَى في هذِه الحيَاة.

●●●

العاصفة

ومرّت الأيامُ، والشهورُ، والأعوامُ، ورزَقَ اللهُ تعالى «عامر» و«سارة» بعد ابْنِهما الأوّل «حكيم» بطفلتَيْن جميلَتين هما «سما» و«ندى» وطفلٍ رابع هُو «باسل». هذا في الحي الشرقي الفَقير، أما في الحيّ الغَربي الثري، فقد رزق الله تعالى «سندس» و«لؤلؤة» بعد ابنهما الأوّل «دهب» بطفلةٍ جميلةٍ سمّيَاها «زينة».

وكَبُر الأطفالُ، وتعلّم «حكيم» القراءةَ والكتابةَ والعلْمَ والدينَ والخُلُقَ وأصُولَ الحياةِ من مُعَلّم البلْدَة «نور» الذي تعلّق «حكيمٌ» به تعلُّقًا كبيرًا، وصارَ قُدوَتَه في سلُوكِه وخلُقِه ومعاملاتِه. كما تعلّم «حكيم» من أُمِّه «سارة» الصبرَ والمُثَابرَة والجدَّ والاجتهادَ، وتعلّم منها أيضًا كيف يصْنَع السِّلالَ من بقَايا فُروعِ الأشجَار، حيث كانت «سارة» ماهِرةً في هَذِه الحرفَة. ومن أَبيه «عَامر» تعلّم «حكيمٌ» ارْتيادَ البحْرَ ورُكوبَ السُّفن، وصيْدَ الأسمَاك، كما تعلّم منه الشَّهَامةَ والاعتزَازَ بالنفس واحترامَ الآخرين والتضحيةَ من أجْلِهم.

وكَان لحكيم كلبٌ سمّاه «دندو» يتميّزُ بجمالِ منظَرِه وقوّةِ بدَنه وشِدّةِ الذّكاءِ والإخلاصِ والوفَاءِ، وأحَبّ «حكيم» «دندو» كثيرًا، وبادلَه «دندو» حُبًّا بحُبّ وكان يسيرُ بجواره كظِلّه معظَمَ الأوقَاتِ. وسعِدَ «حكيم» بهذه العَلاقةِ الحميمةِ بينَه وبَيْن «دندو».

وإذَا كانَ المعلّم «نُور» قد وجَد في «حكيم» تلميذًا مِثاليًا يتحلّى بالخُلُق والطّاعةِ والمثَابرةِ على التعلُّم؛ فإنه وجَد في «ذَهب» العكْس تمامًا، فهو تلميذٌ مدلَّلٌ ينْفرُ من العِلم والتعليم، وليسَ لديه أدْنَى مُثابرةٍ علَى التحصيْل المعْرفي، أو اكتِسَاب الخلُق والفضَائِل، وهو دائمُ التهرُّب من المعلّم «نور» الذي يأتي إليْه خصِّيصًا في قصْر أبيه «سُندس» ليتولّى مهمّة تعليمه وتثقيفه، حيثُ كانَ الصبيّ المدلَّل يتعلّل بحجَج واهيةٍ، كأن يدّعي المرضَ. أو أنّه مشغُولٌ بأمْرٍ مُهم.

ووجَد المعلمُ «نور» صعُوبةً ومشقّةً في أدَاءِ واجبه نحوَ تعليم أو تَثْقيف «ذَهب»؛ ولذَا فإنّ «نور» كانَ يذْهبُ إلى قصْر الثّري «سندس» كارهًا متضَرّرًا من أحْوَال ابْنِه «ذَهَب» الذي انحصرَتْ اهتمامَاتُه في معَاكسة أُختِه «زينة»، وفي المقَالب التي يدَبّرُها للخَادم «مرجان» وللخادمَةِ «فرحَة» اللّذَين لا يَسْلمَان يوميًا من مكَائده وشرُوره.

فَهَا هُوَ يضَعُ خنفسَاء علَى ذِرَاع أُختِه «زينَة»، فتصرُخُ المسْكينةُ من الفزَعِ الّذي تَملّكَها من هَوْلِ المفَاجأة، وتجري باكيةً إلى أمّها، ويضحَكُ «ذهَب» فَرِحًا مسرورًا من فَزعِ أختِه وصُرَاخِها، ويمضِي كأنه لم يفعَلْ شَيئًا.

وكان يأتِي بحبْل صغير ويدخلُ إلَى المطبَخ دونَ أن يشعُرَ به الخادمُ «مُرجَان» ويدخُلُ تحتَ الطّاولَة التي يجلِسُ عليها «مُرجان»، ويربُطُ الحبْلَ حولَ قدَميْ الخادمِ منْ غيْر أن يلاحظَه وهوَ مُنهمِكٌ في أدَاءِ عملِ مَا بالمطبَخ، فإذَا تحرّكَ الخادمُ وقعَ على الأرضِ صَارخًا من الفزَع وَهَوْلِ المفاجأة. ويَضحكُ «دهب» عَاليًا من نجَاحِ مقْلَبه.

كَمَا كانَ يختبئُ ورَاء حائطٍ وقد ارتدَى على رأسِه قِناعًا لرأسِ أَسَد فإذا اقتربَت الخادِمَةُ «فرحَة» تحمِل شَيئًا مَا في يَدها، فيخْرجُ علَيها من وَرَاء الحائِط فَجأةً مقلّدًا صوتَ زئِير الأسَدِ، فتصرُخُ المسكِينةُ من المفَاجَأةِ المفْزِعَة ويقَعُ ما كَانت تحمِلُه على الأرْضِ، ويضحَكُ «دهب» كَثيرًا من نَجاحِ مكِيدَته.

وعندمَا يعْلَمُ الثريُّ «سندس» أو زوْجَتُه «لؤلؤة» بما يفعَلُه ابنُهمَا «دهب» ويواجِهَانه، كانَ يظهرُ لَهما بمظهَرِ البرِيء، وأنّه المجنيّ علَيه وليسَ الجَانِي، ويُقسِم أنّه لم يفعلْ شَيئًا، فهو يُجيدُ الكذِبَ والتَظَاهُرَ بأنه صاحِبُ خُلُق، ولا يفعَلُ أيَّ سُوء، وفي الحقِيقة هو شَبِيه أبنَاء إبلِيسَ اللَّعين.

وإذَا حاصَره أبُوه بالدلائِل والبراهِينَ على أفعَالِه الخبِيثَة، ومكائِدِه اللعِينَة، وهَمّ بعقَابه، يلجأُ «دهب» مسْرعًا إلى أمّه التي غالِبًا ما تحمِيه من أية عقُوبة يفرِضُها عليه أبُوه. وهكذا ضَاعت أخلاق «دهب» من تَهرُّبه من التعلّم، ومن كثْرة تدلِيلِه.

وما إن وَصَل عُمْر الصبيّان «حكِيم» و«دهَب» اثنَيْ عَشَر عامًا، حتى تأصّلَت في كلٍّ منهما خصالٌ مختلِفةٌ، فقد صَار «حكيم» متمكّنًا من كُلّ ما تعلّمه من المعلّم «نور» ومن أُمّه «سَارة» وأبيه «عامر». أما الصَّبيُّ العابثُ «دهب» - وهو في عُمْر حكِيم باليومِ والشَّهْرِ والسنةِ - فما نفَعَه ثراءُ أبيه ولا غِنَى أمه، وما تعلّم شيئًا غيرَ الكذِب، وتدبيرِ المكائِد لمن حولَه، وإساءَةِ معاملَتهم وخاصَّةً أختَه الوحيدةَ «زينة»، والخَادِمَ «مرجان»، والخادِمةَ «فرحة».

فِي أحدِ الأيَّام أرَادَ الثري «سُندس» كعادَته أن يذْهَبَ في نُزهةِ صيْد في البَحْر بمركبه الفاخِر الكبير الذي أطْلَقَ عليْه منذُ زمَن بعيد اسْم «دهب» مثل اسمِ ولَدِه. واصطحَبَ معهُ - عِلاوة على البَحّارة - بعْضَ الخدَم.. ومِن بين هؤُلاء البحّارة الفتَى «عَامِر» والدُ حكِيم، حيث كَان «سُندس» معجَبًا به كثيرًا لخِبراتِه ومهارَاتِه وخلُقِه.

وشَقّ المركبُ الفاخرُ الكبيرُ طريقَه داخلَ البحْرِ ذي الميَاه الهَادئَة وزُرقَتِها التي تأخُذُ الألْبَاب من جَمَالها، وتناثَرتْ في السّماء الصافية بعضَ طيُور «النَّوْرس» بلونها الأبْيَض الجميل، وهي تطيرُ هنَا وهُناك معبّرةً بأصواتها المعروفةِ عن سعَادتها.

وغَابتْ «ضَيّ الفنار» عن أنظَار رُكّاب المركب، وبعدَ أن توغّلُوا في البحْر لعدَّة أميَال بدأتْ عمليةُ صيْدِ الأسْمَاك، واستخدَم البعْض الشّبَاك، في حين استخدمَ البعضُ الآخر الحرابَ المتصلةَ بالحبال، أما الثَّريُّ «سندس» فكانتْ متعتُه في صيدِ الأسْماك باستخدام «السنّار» حيث يستلزمُ استخدامُها ذكاءَ ومهارةَ الصياد.

وتنوّعَت الأسماكُ التي تَمّ صيدُها من حيث أصنافها وأحجامها، وانقضَى اليومُ في سعادةٍ وسُرورٍ بالمنَاخ المعتدل، وبالصيدِ الوفير.

وفي الليل أقامَ البحّارةُ على ظهر المركب الفاخر الكبير «دهب» حفْلا من حَفَلاتِ السَّمَر حيثُ يردّد البحّارة الأغاني الشعبيّة التي توارثَتْها الأجيَالُ، ويقومُ البعضُ بالرقْص على أنغام هذه الأغاني.

وعبّر الثَّرى «سندس» عن سعَادته - وهو على مركبه ووسْط بحّارته - بالضَّحك بصوْتٍ عالٍ، وشاركَ البحّارةَ في سمَرهم بالتصفيق تارةً، وبالغنَاء تارةً أخرى، ومن آنٍ لآخرَ يتناولُ بعضَ الفاكهة، ويحتسِي بعضَ الشَّراب.

وفي أثْناء هذَا الجوّ المرح؛ لَمَحَ «سندس» وهُوَ يضحَكُ عَاليًا البحّارَ «عَامر» يجلِسُ بينَ زُملائه، ولكنّه لا يشَاركُهم لهْوَهُم وتصفيقَهم وغناءَهم، فنادَى عليه:

- عامر .. عامر ..

وانتبَه الفتَى «عامر» لنِدَاء سيِّده فأسْرَع إليه وجلَس بجواره مُلبّيًا النداء:

- أَمرَك سيِّدي سندس.

- أراكَ تجلسُ صامتًا، لِمَ لا تُشارِكُ زملاءَك فرحَتَهم وسمَرَهم؟

- عفوًا سيدي.. كنت أفكِّر في أسْرَتِي، ولكنّي سوفَ أشارِكُ زملائي فرحَتهم وسمَرَهم كما تُريد يا سيّدي.

- وكيفَ حالُ أولادِك يا عامر؟

- الحمدُ لله سيِّدي إنهم جميعًا بخير.

- ذكّرني بأولادِك يا عامر؟

- الكبير «حكيم»، ثم بنتَان هما «سما» و «ندى»، والأخيرُ الصغير «باسل».

- ما شاء اللّه يا عامر، بارك اللّه لكَ فيهم.

- شكرًا لك، وباركَ الله في أسرتِكم الكريمةِ يا سَيّدي.

- شكرًا.. هيّا يا رجُل.. شارِكْ إخوانَك سمَرَهم ومرَحَهم.

- سمْعًا وطاعةً يا سيدي.

وقَامَ عامرُ من جلسَته بجوارِ الثريّ «سندس»، وعادَ إلى مكَانِهِ وسْط إخوَانِهِ البحّارة، وأخذَ يتصنّع مشاركتَهم في سمَرِهم بالتصفيقِ والغنَاء، ولكنّه كانَ يشعُر بشيء من الضِّيق والمخاوف التي لا يدْرِي سببًا لها، فكلّ الأمُورِ تسيرُ علَى ما يرام، ولكنّها المخاوفُ من مجهولٍ لا يعرِفُ مَا هو.

وفِي صبَاحِ اليومِ التَّالي قرَّر الثَّري «سندس» الاكتفَاءَ بهذِهِ النُّزهَة، والعوْدَة إلى بلدتهم «ضَيّ الفَنَار». ومع بدَايةِ طريقِ العوْدَة شَعَر البحّارةُ أن هناكَ تغيّرًا واضحًا في منَاخِ البحْرِ، وأحسّ «عامر» - بخبرَاته العميقةِ في التعامُلِ مع أحْوَال البحر - أن هنَاك عاصِفةً ستهبّ علَيهم بعدَ قليلٍ، فصَاح في زملائِهِ

البحّارةِ بأن يحرِّكُوا أشْرِعَةَ المركبِ بحيث تتوجّه سريعًا ناحية بلدتهم. ولكنّ العاصفة المرتَقَبةَ كانت أسْرعَ من حركةِ المركب، فما هي سوَى دقائقَ معدودةٍ حتى بدأتْ السماءُ تتلبّد بالغيوم والسُّحب الداكنة المحمَّلة بالأمطارِ الغزيرة. وبدأتْ أمواجُ البحرِ تشتَدّ وترتفعُ. وبعدَ لحظاتٍ خرجَت من بين السُّحب الداكنةِ أضواءُ البرقِ الذي يخطفُ الأبْصَارَ، وتَبِعَ ذلك أصواتُ الرعدِ العنيفةِ والمخيفة، وصارتْ الأمواجُ من شدة ارتفاعِها كأنها جبالٌ تتقاذَفُ المركبَ يمينًا ويسارًا، حتى أصبَحَ كَريشَةٍ في مَهبّ الرِّيح العَاتية والأمطَارِ الغزيرة.

وبسرعةٍ تم إنزالُ أشْرِعةِ للمركبِ حتى لا تقلبه شدةُ الريح، وصَرخ «عامِر» في البحَّارة بأنّ عليهم تثْبيتَ أجسامِهم بجسم المركب بواسطةِ الحبال، حتى لا تقذِفَهم الأمواجُ إلى البحرِ الذي سوفَ يبتلِعُهم في لحظات. أما صاحبُ المركب «سندس» فقد لَجأَ إلى بَاطنِ المركب هوَ ونفَرٌ معه.

ووصلَت العاصفةُ إلى ذُروتِها، وأظلَمَت الدنيا من كَثرةِ تَراكمِ السُّحب القَاتمة والأمطارِ المنهمِرةِ حتى أنّ أيًا من البحَّارة لا يكادُ يرَى شيئًا من حولِه إلا عندمَا تُنير أضواءُ البرقِ الخاطفِ للحظةٍ، وازدَادَ هطولُ الأمطارِ، وارتفعت الأمواج بشكل غير مَسْبُوق، فيرتفع معها المركب لعدة أمتار، ثم يهبطُ معَها لعدة أمتار.

وأحسَّ الجميعُ بأن هذه هيَ النِّهاية، وأن المركبَ سوفَ ينقلبُ ويبتلِعُه البحرُ في أيّ لحظَةٍ من اللحظات. وأخذ كلُّ واحدٍ علَى المركب يدعُو اللهَ- عزَّ وجل- أن يُنْجيَه من هذَا الكرْبِ العظيم، وتعالَت الدعَواتُ وتعالَت الصيحَاتُ.

وظنَّ الثريُّ «سندس» أن البحَّارةَ على سطْحِ المركب قَدْ قَذفَتهُم الأمواجُ إلى البحرِ الذي ابتلَعهم واحدًا بعدَ الآخر، فقرَّر أن يخرجَ من بطنِ المركب ليطمئِنّ علَيهم، وعندَما رَآهم من خلال ضوءِ البرقِ الخاطفِ مثَبَّتين في جسمِ المركبِ بالحبَالِ القويَّة حمدَ اللَّه على سلامَتِهم.

وصَرخ «عَامر» عندَما رأى سيدَه «سندس» وقد خَرجَ من بطْنِ المركب قَائلاً:

- أرجُوكَ سَيدي سُندس.. ارجع حَالا إلَى أسفل.

وردّ «سندس» وهو في حَالةِ هلعٍ وفزعٍ من هَوْل هذِه العاصِفَةِ:

- سأَفْعَل .. سأَفْعَل يا عَامر..

ومَا إنْ هَمّ «سندس» ليعُودَ إلى مكَانه في باطنِ المركب، حتَّى أَتَتْ موْجَةٌ عَاتيةٌ أطاحَتْ بهِ بشدَّةٍ وعُنفٍ إلى البحرِ. وصَرَخَ عامرٌ في فَزَعٍ:

- سَيدي سُندس أطاحَتْ به الأمواجُ إلى البحْر.. سأحَاول إنقَاذَه قَبل أن يبتلِعَه البحْر..

وبسُرعةٍ خَاطفة أمسَك «عَامر» طَوْق نجاةٍ خشبيّ مثبتًا فيه حبلٌ طويلٌ وقَد تَمّ تَثبيتُ طَرَفِه الآخَرَ في جِسْمِ المركبِ وصَاحَ في البحَّارة:

- عندمَا يمسِك سَيدي سُندِس بالطوْقِ شُدُّوا الحبلَ بسُرْعة.

وما إن انتهَى «عامِر» من صيَاحِه حتى أخَذَ طوْقَ النجاةِ الخشبِي وألقَى بنفْسِه فِي أمواجِ البحْرِ المتلاطِمة، وظنَّ البحارةُ أن نَجاة «سندس» من الغَرقِ أمرٌ يكادُ يكُون مستحِيلا.

وصَارع «عامِر» الأمواجَ بإحدَى يديْه وهو مُمسِكٌ بطوْقِ النَّجاة باليَدِ الأُخْرَى، والأمواجُ ترفَعُه إلى أعْلى بشكلٍ مُذهل ثم تَنْزِلُ به إلَى أسْفَل بشكْلٍ خَطِير، وهوَ يبْحَثُ عنْ سَيِّده «سُندس» دونَ جدْوَى، ودَبّ اليأسُ في نفسِه في أن يجِدَه وسْطَ هذِه الأمواج المتلاطِمة والأمطَارِ التي تسقُط من السَّماء بغزَارة، وهذِه الظُّلمة التي تجعَلُ الرؤْيةَ في غايةِ الصعُوبة. وشعَرَ «عامِر» أن قُواهُ قد خَارت، وأصبحَ غيرَ قَادرٍ على مصارعَةِ أمْواجِ البحر.

وعندما قَرر «عامر» إيقَاف البحثِ والعوْدةَ إلى المركبِ لاحَظ جِسْمًا يعلُو ويهبِطُ مع الأمْوَاج، فأخذ يتحدَّث إلى نفسه:

- هل يمكِن أن يكون هذَا الجسمُ الذي تتقَاذفُه الأمواجُ هو سيدي «سندس».

وأخذَ يَصيح:

- سَيدي «سُندس»، سَيدي «سُندس»..

ولَم يجد «عامر» أي نَتيجة لصيَاحه، فأخَذَ يَسبَحُ بكلّ قُوته نحوَ هذَا الجسمِ ووصَلَ إليهِ فوجَدَه هو فِعْلا سيدَه «سندس»، ولكنّه في حالَةِ إغماءَةٍ لا يَردّ على نِدَاءَاته أو صيَاحه.

وبسُرعة وضَعَ الطَّوقَ الخشبيَّ حولَ وسَطِه، وأخذَ يُشيرُ إلى البحَّارة لِشَد حبلِ الطَّوْقِ وهوَ يحمِلُ جسَد «سندس»، ولا يعلمُ أهو ما زَال حَيّا، أم أنه فارَقَ الحيَاة.

واستجابَ البحَّارةُ لإشارَاتِ «عَامر» وصيَاحِه، وأخذُوا في سَحْبه ناحيَة المركب، واستطَاعَ البحَّارة انتشَالَ «سندس» من بيْنِ الأمْوَاج العاتِية، واسْرَعوا في عَمل الإسعَافَات الأوّليّة التي تُجرَى لأيّ غريق، وذلك للتخلُّص من كميات الماءِ التي ابتَلَعها، ومَا هي إلا لَحظاتٌ حتى بَدَا سندس يتنفسُ ويعود للحياة بعد أن ظَنّ هُو وظَنَّ الجميعُ أنها كانت النهايَةَ.

وأخذَ «عامر» يصَارِعُ أمواجَ البحْرِ العاتِية، إلا أن قُواه قد خَارَت بعْدَ المجهُود الهَائِل الذي بذَلَه لإنقَاذ سَيده «سندس»، وألْقَى البحَّارة طَوْقَ النَّجاة ناحيَته، فحاوَلَ أن يُلَمْلِمَ البقيةَ البَاقيةِ من قُوّته ويتوجَّه إلى الطَّوق، وفي اللَّحظة التي كادَ فيها أن يُمسِك بطَوْق النَّجاة إذا بموْجَةٍ هائِلَة تَدفعُه بعيدًا عن المرْكب، ولم يستَطِعْ «عَامر» أن يقَاوِمَ أمواجَ البحر العنِيفَة، فغَابَ عن الوعْي، وأُغشِي

علَيه فابتلَعه البحر. وحاولَ أحدُ البحّارة أن يُنقِذَه وألقَى بنفْسِه في البحْرِ ومعَه طوقُ النجاة الخشبيّ، ولكنّ فِي هذِه المرة لم يَتِم إنقَاذُ الغرِيق.

ومرَّت ساعَاتٌ، وهدَأَ البحرُ، وأقلَعتِ السمَاء عن إرسَال أمطَارِها وانتَهَتْ العاصِفَةُ، ولكنْ بعد أن أخذَتْ معهَا الفتَى الشَّهمَ صاحِبَ الخلُق الذي شَهِدَ لَهُ به الجميعُ، انتهت العاصِفَةُ بعد أن أخذت معَها «عامر» الذي بكَاهُ الجمِيع، حتى سَيِّدُه «سندس» بكَاهُ بكاءً حارًا وأخذَ يردّد:

- لقد أنقَذ حيَاتِي، ولولاه لكنتُ أنا الآن في قَاعِ البحر.. آه يا عَامِر لن أنْسَاك طَوَالَ حيَاتي..

وعادَ المركبُ الحزينُ ليُعلِن لأهَالِي بلدَةِ «ضَيّ الفنار» عن فَقْدِها أَعزَّ رجَالِها وأخلَصهم على الإطلاق.

وسادَ الحزنُ والألَمُ كلَّ أهَالي البلدَة أيامًا وأسابِيعَ وشُهورًا، وخاصَّةً أسرتَه: الزوجةَ «سارة» التي أصبحت أرملةً، والأبناءَ: حكِيم وسَما ونَدى وبَاسل الذينَ أصبَحُوا الآن يتَامَى، وأظلمتِ الدُّنيا في وجْه هذِه الأسْرَة البائِسةِ الحزِينَة التي غَاب عنها عَائِلُها إلَى الأبد.

عَامِر الفدَائِيّ... قد ابتلعه البَحْر

obeikandl.com

الغيرة

عاشَت بَلدةُ «ضَي الفنار» أيامًا يلُفّها الحزنُ والأَسَى لفقْدِها رجُلا من أعزّ رِجَالها، ومرَّت أيامُ الحزنِ ثقيلةً على أسرةِ الفقيد، وحاولَ «سندس» أن يرُدّ بعضَ ما صنَعَه «عامر» في إنقَاذِ حيَاته، فأعطَى بعضَ المالِ لأرملَتِه «سارة» لتدبّر به بعضَ شُئون حياتِها وحياةِ أبنَائِها.

وفِي أحدِ الأيَّام بعدَ مُرور شُهورٍ طَويلة على هذَا الحدَث الأَليم، جمَعَت الأرمَلَةُ «سَارة» أولادَها وتحدَّثت معهم لتَبُثَّ فيهم العزيمةَ والصبرَ وقوةَ الاحتمَال فقَالت لهم:

- اسمَعُوا يا أولادي.. قضَتْ مشيئةُ الله وحكمتُه أن نَفقِد أعزّ رجَالِ البلْدة وأشجَعَهم، وأحبَّ الناسِ إلينا.. أبَاكم «عامِر» رحمة اللَّهِ عليه.. لقد مَاتَ أبوُكم شَهيدًا وهو يُنقِذ سيِّدَه «سُندس»، وضحَّى بحيَاتِه في سبيل واجبه، وإن كَان هذَا الفِراقُ شديدًا علينَا جميعًا، لكنَّني أبشّركم بأن أباكم ينعَم الآنَ في رِيَاضِ الجنّة.. لقد رأيتُه في منامِي بالأمس، وهو يَلبسُ حُلّة خضراءَ جميلةً، ويَشعُّ من وجْهه نورٌ ملائِكي، وابتسَم لِي ابتسامةً رائعةً، وأوصَانِي بمواصَلَة مسيرةِ الحياةِ، ونحنُ جميعًا- إن شاءَ اللهُ- سوفَ ننفّذ له هذِه الوصيةَ.

ولمَعَت الدموعُ في عيُون الأمّ، وعيونِ أبنَائها، ولكنَّها تماسَكت واستمرَّت في قَولها:

- حكيم ..

فردَّ عليها الصبيُّ الحزينُ في أدبٍ جَمّ:

- نعم يا أماه ..

- أنتَ الآن يا حكِيمُ - رَغم صِغَر سِنّك - رَبُّ هذِه الأسرَة بعدَ رحِيل أَبِيك، حافِظْ علينا، ولتسعَى ونسْعَى معكَ لنحيَا حياةً كرِيمةً.

- سَمعًا وطاعةً يا أماه ..

- سَمَا ونَدَى ..

وردَّت الفتَاتان الصغيرتَان والدمُوع ما زالت في عُيُونهما:

- نعم يا أماه ..

- ستسَاعداني في صِنَاعة السُّلال ..

- سمعًا وطاعةً يا أماه.

وقامَ الطفل «باسل» الصغيرُ وألقَى بنفسِه في حُضن أمّه وكأنه يقولُ لها:

- وأنَا يا أُمي على استعدَادٍ لأعملَ معكُم.

وابتسَمَ الجميعُ رغْم أنّ الدموعَ ما زالت في عيُونِهم.

وبالفِعل ساعدَتْ كلٌّ من «سما» و«ندى» أُمَّهما في صِناعةِ السِّلالِ من غُصون الأشجار، ثم يَحملُ «حكيم» هذه السِّلالَ ويذهبُ إلى سُوق البلدة يرافِقُه كلبُه المخلِص «دندو» ليبيعَها ويعودَ إلى أمه بثمنِها.

ولكنَّ العائدَ الماليَّ من بَيع هذِه السِّلال لَم يكن كافيًا لمتطلَّبات حياةِ هذِه الأسْرَة، فأخَذَ «حكيم» يفكّر فيمَا يصنعُ لزيادَةِ موارِدِ أسرتِه؟ وعندما لم يجدْ حَلا لمشكلَتِه، ذهبَ إلى مُعلِّمه «نور» وعرَضَ عليه هذِه المشكِلَةَ، حيث إن المعلّم «نور» وَقَفَ مِرارًا وتكرارًا يسَانِدُ هَذِه الأسرةَ فِي محنتِها الشديدَةِ، وسَاعدَهم قدْرَ استطاعَتِه، وكانَ دائمًا يقوِّي إيمانَ الصبي «حكيم» ليتحمَّلَ فِراقَ أبيه المفاجِئ، وأفهمَهُ أن ما حدثَ هو ابتلاءٌ واختبارٌ من الله- عز وجلّ-، فإذا صبَر ورضيَ بما قسَمهُ الله له؛ فإنه سينَالُ رضا الله وحُبَّه، وسيُجزَى خيرَ

الجـزاء سـواءً فـي الدنيـا أم في الآخـرة ليكونَ مـصـيـرُه نـعـيمَ الجنة مع والدِهِ الشهيد.

وأثّرت هـذه الكلمـاتُ المؤمنةُ في هـذَا اليـتـيم، وقـوّت من إيمَانَـه، وزادتْهُ صبرًا. فكَان يردّدُ دائمًا:

- قَدَّر اللَّه وما شَاء فَعَل..

وبعـدَ أن عـرَض «حكيم» مـشكِلَتَهُ على معلّمـه «نور»، الذي سُـرَّ من هذَا الصبيّ الذي قَبِل تحمُّلَ مسئوليةَ معيشةِ أسرتِهِ مبكِّرًا، واقترَحَ عليه أن يذهَبَ للثَّريّ «سندس» ويطلُبَ منه أن يجدَ له عمـلا يسَاعدُ بأَجْره أسرتَهُ على مُواجَهة متطلّباتِ الحياة.

وعلَى خجل واستحياء ذهَبَ الصبيُّ «حكيم» إلى قَصْرِ الثَّريّ «سندس» تنْفيذًا لرأى ومشورَةِ معلّمه «نور»، وطلَب منه أن يجدَ له عملا لمساعدة أسرَته.

وأشفَقَ «سندس» على هذَا الصَّبيُّ المكافِح، ولم ينْسَ أنّ والدَه «عامر» هو الذي ضَحَّى بحياتِهِ في سبيلِ إنقَاذ حياتِه..

وفي حَنَانِ الأَب قالَ الثَّريُّ «سندس» للصَّبي:

- ولدي حكيم .. أنا أقَدِّرُ فيك هذِه الرجولةَ المبكِّرة، وهذا لَيس غريبًا علَيْكَ فإنّ والدَك «عامر» - رحمه الله - كانَ من أفضَلِ رجالِ البلدة وأشجعِهم، وأنا في حَاجةٍ أن تعمَلَ معِي، كما كُنتُ في السابِق في حاجَةٍ إلى عمل أبِيكَ معي.

فسُرّ «حكيم» من هذَا الكلامِ الذي ينبئ عن أن هناك عـمـلاً ينتظره مع الثَّري «سندس»، وأكمل الرجُلُ كلامَه مع الصبي:

- إن حديقَةَ القصْرِ واسعةٌ يا ولَدي، وإنّ «سالم» هو العامِلُ الوحيدُ الذي يتوَلاها بالرعاية والعنَاية، وأُلاحظ أنه يجدُ مشقَّةً في الاهتمام بها. فهلْ لكَ أن تساعِدَه في هذَا العمل؟، وسيكُونُ لك راتبٌ شهريٌّ مُجْزٍ نظيرَ هذا العَمَل.

وكَاد «حكيم» من فرحَتِه أن ينْحَنِي ليُقبِّل يدَ سَيده «سندس»، ولكنَّه لم يجرؤْ علَى فِعْلِ ذلك، فاكتفَى بشُكْرِهِ جزيلَ الشكر على إتَاحةِ فُرْصَة العَملِ هذِهِ له، وأوضَح بأنه سَيبْذُل قصَارَى جَهْدِه في القِيام بهذِهِ المهمَّة.

وبابتسَامةٍ يملؤُها الشفقةُ والرحمةُ أفهَمَهُ «سندس» أنه واثِقٌ تمامًا من هذَا، كَما كانَ يفعلُ أبوه «عامر» عندمَا يكلَّف بأداء أيَّة مُهمة من المهمَّات، فقد كَان يُنهيهَا كامِلةً غير منقُوصَةٍ في إخْلاصٍ وإتقان.

ولكي يُدخلَ «سندس» السرورَ على قلبِ هذا اليتيمِ أعطَاه راتبَ شهرٍ مُقدَّمًا.

ولم يُصدّقْ «حكيم» ما حَدَث وأخذَ يتَحسَّسُ بين يديه هذَا المالَ الذي رزقَهُ الله إيَّاه والذِي لم يتوقَّعْه بهذِهِ السُّرعة، وشكَر بينَه وبينَ نفسِه المعلّم «نور» الذِي نصَحَه وأشَار عليه بالذَّهاب إلى الثَّريّ «سندس»، وأسرَعَ الصبيُّ إلى منزله فَرِحًا مسرورًا، وبابتسامةٍ عريضَةٍ تملأُ وجْهَهُ الأسمرَ الجميلَ، ومدَّ يدَه براتب الشَّهر لأمّه التي لم تصدقْ عينَيْها عندمَا قصَّ عليها ابنها ما حَدَث، وسعِدَت الأمُّ كثيرًا بولدِها حكيم وحُسْنِ تصرُّفه، وقالت لَه بعدَ أن حَمَدت ربَّها:

- نِعْم الابنُ أنتَ يا ولدِي حكيم، لقد عوضَنِي اللَّه بكَ عن أبيك، فالحمدُ لله..

وأصبحَ «حكيم» منذُ اليومِ التَّالي عاملا مساعدًا في حديقَة قصْرِ الثَّري «سندس»، يذهَبُ إليها في الصبَاحِ الباكر ليسَاعدَ العاملَ «سالم» في الاهتمامِ بشُئون الحديقةِ ونظافَتِها ورَيِّها، وتقليمِ أشجارِها، إلى غَير ذَلكَ من الأعمال الزِّراعية.

وسَعِد المزارعُ «سالم» بـ «حكيم» الولَدِ المخلص المُطيعِ المجتَهدِ في عملِه، والمثَابرِ في أدائه بإتقانٍ عالٍ. كما سَعِد «حكيم» بـ «سالم» واعتبرَه في مكَانةِ أبيه، واكتسبَ منه خبراتٍ عديدةً في الشئُون الزراعيّة وتجميلِ البسَاتين.

وأبدَى البستَانيُّ «سالم» لسيِّده «سندس» إعجابَه وسعادَتَه بوجُود «حكيم» معَه، وأثْنى علَيه كثيرًا، مما أَثلَج صدرَ «سندس»، لأنَّه علاوةً على أن حديقَةَ القصرِ قدْ زَادت جَمالا وبهاء، فإنه قد شَعَر براحةٍ نفسيةٍ لأنه يردّ جزءًا من جَميل أبيه في إنقاذِ حيَاته.

ولكن كمَا تقُولُ الحكمة: «من المحال دَوامُ الأحوَال»، لم تدمْ سعَادةُ واستقرَارُ «حكيم» بهذَا العملِ طَويلاً، وكما يقولُون «تأتي الرِيَاحُ بما لا تشتَهي السفُن»، فقد عكّر صفْوَ حياةِ الصبيّ «حكيم» ظهورُ الصبيّ الشرير «دَهب» الذي وَجَد في «حكيم» فرصَةً لتوسِيع دائرةِ مكائِده، وتحقِيق المزيدِ من شُرُوره.

وكانَ اللقَاءُ الأولُ بين الولَدِ الطيّب «حكيم» والولَد الشِّرير «دهب» في حديقَةِ القصْر، حيثُ كان «حكيم» يعمَلُ في تنظيف الحديقة، وبينَما هو جَالِسٌ على الأرضِ يجمَع بقَايا أوراق الأشجَار الجافة ليضفِي على الحديقة جمَالا ورونَقًا، فإذا بحصَاة صغيرة تُلقَى على ظهْره.. فقامَ «حكيم» من جلسَتِه مذْعُورًا، ونظرَ خلفَه ليعرف من الذي رماهُ بتلك الحصاةِ، فلم يجدْ أحدًا، فتلفَّت

يميناً ويساراً، ولكنه أيضاً لم يجدْ أحداً، فحاول أن يتناسَى هذا الموقفَ غيرَ المألوفِ، وجلسَ يُكمِل عملَه في تنظيف الحديقَةِ. وما هِي سوَى لحظاتٍ حتَّى أصابتْ ظهرَه حصاةٌ أخْرَى ولكنها أكبرُ من أختِها، فتألَّم الصبيّ المسكينُ وصَاحَ:

- آه يا ظَهْرِي ..

وبسرعةٍ تلفَّت حولَه ليعرفَ مصدرَ هذه الحصاةِ الثانيةِ، ولكنه لم يجدْ أحداً، كُلّ هذَا والشريرُ «دهب» يكتمُ سرورَه وسعادَته في نفسِه وهوَ مختبئٌ بينَ فروعِ وأوراقِ شجَرةٍ بالحديقة دون أن ينْتبه إلى وجُودِه المسكِينُ «حكيم»، الذي ذَهَبَ مُسرعًا إلى «سالم» الذي كانَ يعملُ في مكان آخر من الحديقة، وأخبره بما حَدَثَ وعَلامات الفَزَعِ مرسومةٌ على وجهِه، وأخبره بما حدَث له. واستنتَج «سالم» فَاعِلَ ذَلك.. إنه الصبيّ الشريرُ «دهب»، فلقد عَانى هو شخصيّا كثيرًا من أفعَالِه الخبيثَةِ.

ولكنّ «سالما» هوّن على «حكيم» الموقفَ ولم يزعجْهُ بالحقيقَةِ وأفهَمَه أنّ بعضَ الأشْجَار قد تُسقطُ بعضَ ثمارِها الجافّة فتسبِّبُ مثلَ هذه المواقِف. واقتنَعَ «حكيم» بهذَا التفسِير رغم غرابتِه وعادَ إلى عملِه. وبينما هو يَسيرُ تحتَ الشجرةِ التي يختبئ «دهب» بين فروعها وأوراقِها، فإذا بثُعْبَان كبيرٍ يسقُط من الشجَرةِ على رأسِ الصبيّ المسكين، وما أن شاهدَ الثعبانَ الكبيرَ على جسمِه حتى صرخَ صرخةً عاليةً، وأخذ يجْرِي ناحيةَ «سالم» وهو يَصيحُ في فزع:

- يا عَمّ سالم.. ثُعبان كبير.. يا عَمّ سالم.. ثُعبان.

وما إن وصل إلى مكَان «سالم» ووصَفَ ما حدثَ له، حتى أَخَذَ «سالم» يطَمئِنُه قَائلا:

- يا بُني الذي سقَطَ عليكَ من الشجرةِ هو ثُعبان محنّط، ميت لا حياة فيه.

ودَهِش «حكيم» لهذا التفسير، وكيف عَرف «سالم» أنه ثُعبان مَيّت لا حَيَاة فيه وهو لم يَرَه. ونظر الصبيّ إلى عُيون «عم سالم» وعيونُه كلُّها تساؤلٌ واستفهام.

وهنا أخبَرَ «سالم» الصبيَّ المفزوعَ بأن كُلّ هذه المقَالِب والمكَائِد التي حدَثَت لَه قَد حدثَتْ له هو أيضًا، وهي من أفعَالِ الصبيّ الشرِّير «دهب» ابنِ صاحبِ القصْر.

وسَار «سالم» بالصبيّ الذي لَم يَعِ بعدُ ما حدَث ومَا سمعَ، حتى وَصَلا إلى الشَّجَرة التي يختَبئ فيها «دهب»، وأمسَك «سَالم» الثعبانَ من علَى الأرْضِ ليؤكِّدَ له أنه ثُعبانٌ مُحنَّط لا حَيَاة فيه، ثم قَالَ له:

- انظُر إلى أَعلَى يا حكيم..

فنظَر «حكيم» إلى أعْلَى فوجدَ هذَا الصبيَّ البدينَ أبيضَ البشْرة وشعْرَه الكستنَائِي وهو يضْحَك ضَحِكَات عالية، مسُرورًا بنجاحِه في بثّ الفَزَعِ في نفْسِ المسْكِين «حكيم». ومَا هِي سوَى لحظاتٍ حتَّى نزل «دهب» من الشجَرة، وخطَفَ الثعبانَ من يَد «سالم» وأخذَ يخوِّفُ به «حكيم» الذي تَرَاجع في خوْفٍ وفَزَعٍ، والشرير يزدَادُ ضَحِكًا وسَعَادةً.

ومن خلالِ نافذةِ القصْر نادت الفتَاةُ الصغيرةُ «زينة» على أخيها متوعِّدة:

- دهب .. دهب .. لقد رأيتُ كلّ شيء، وسَوْفَ أخبرُ أبي.

وصرَخ «دهب» فِي غَضَب وهو يحذِّر أختَه:

- إياك أن تفعَلي يا زينة، وإلا نالَك منِّي ما لا ترضَيْن.

ثم التفَت إلى حكِيم وقالَ له في لهجةٍ آمرة:

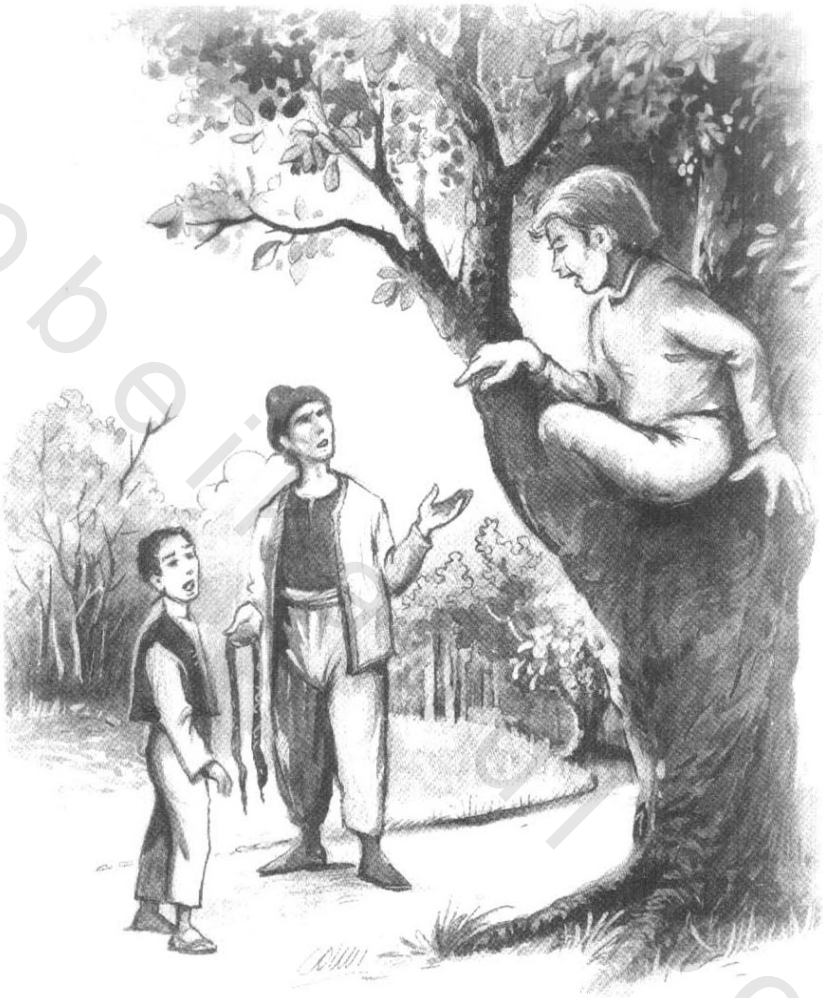

وأمسَك «سالِم» الثعبَانَ من علَى الأرضِ ليؤكّد لَه أنه
ثُعبان مُحنّط ولا حيَاةَ فيه

- ما اسْمُك؟

فردّ المسكينُ وهو في حالةِ خوفٍ وفزعٍ:

- اسمِي حَكيم.

- وماذا تفعَلُ هنا؟

- إنني أسَاعِد عمي سالم فِي تنظِيف الحديقَة ورعايتِها كمَا كلّفني بذلِك سَيدي «سندس».

- آه .. يعنِي هذَا أنّك تعملُ أجيرًا عندنا، أليسَ كذلك؟

- بلَى يا سيدي.

- إذن أريدُكَ أن تسمَع كلامي، وتنفُذ أوَامِري.

- سمْعًا وطاعةً يا سيدي.

- حتّى وإن كانت هذِه الأوامرُ غريبةً، فعليكَ تنفيذُها.

- سمعًا وطاعةً يا سيدي.

ووجّه «دهب» الثعبانُ المحنّط ناحيةَ وجه «حكيم» فخَاف المسكينُ وتراجَع رغْم معرفتِه بأنه ثعبانٌ مَيت، وضحِك «دهب» بصوتٍ عالٍ، ثم عادَ إلى القصْر.

وبعد أن اطمَأنّ إلى أن «دهب» قد ابتَعَد تمامًا واختَفَى داخِل القصْر، نظَر إلَى «سالم» نظرةَ تساؤُلٍ عن كيفية التصرُّف مع هذَا الشيطانِ الصغِير، ولكنّ «سالمًا» ردّ عليه بنظرةٍ تعني أن هذِه المشكلةَ بالذات لم يستطعْ حلّها، فكيفَ يخبرُه عن الحلّ، ففَاقِدُ الشيء لا يُعطِيه، ونصحَه بالتحلّي بالصبر، والتعامُلِ مع «دهب» بحذَر..

وأُسْقِط في يدِ «حكيم»، فلمْ يخطُر على بالِه أن يَقَعَ فِي مثل هذه المشكلةِ العويصة.

ومرَّت الأيام و«حكيم» يحَاولُ أن يَحْذَرَ «دهب»، ويدعُو اللَّهَ أن يقيَه شرَّه. وفِي أحَدِ الأيام وبينَما كان الصبيّ يؤَدِّي مهامَّه لرعاية ونظافَةِ الحديقة فإذَا بِهِ يفاجَأُ بوجُود الصغيرةِ الجميلةِ «زينة» تجلِسُ أمامَ طَاولةٍ عليها أوراقٌ وأقلام، وكأنها تقومُ بأعمالِ واجبَات دراسية.

وما إن رآها «حكيم» في هذِه الجلسَةِ البديعَةِ حتى استَدَارَ وتراجَعَ ليبتَعِدَ عن المكَانِ، ولكنّ «زينة» لمحتْه فنادَتْ عليه:

- أنتَ يا ... تعال ..

ولم يجدْ «حكيم» مَفَرّا من أن يستَجيبَ لندَائِها، فاستدَارَ وتقدَّمَ منها علَى استِحياء، وتحدّث إليها وهو ينظُر إلَى الأرض:

- هل نادَيْتي عليّ سيدتي؟

- نعم، تعالَ .. اقتربْ.. ما اسمُك؟

- اسمِي حكيم سيدتي.

- حكيم .. اسمٌ جَمِيل.

- شُكْرًا سيدتي.

- أنا اسمِي «زِينة» أرجُوكَ نَادِني باسمِي ولا تقُلْ سيِّدتي.

- عفوًا سيدتي «زِينة» لا أستَطِيع.

- لقد علِمتُ أنك تُساعدُ «عمي سالم» المسئُولَ عن رعَاية حديقةِ القصر.

- نَعَم يا سيدتي.

- لقد وجَدتُ اليومَ أن الجو صحْوٌ وجميلٌ، فأتيتُ بأوراقي وأقلامِي لأُتمِّم واجبَاتي الدرَاسيَّة.

- أحسَنْتِ صنعًا يا سيدتي، فإن جمالَ المنظَرِ ونسَماتِ الهواء العَليلة تساعدُ على أدَاء الواجبَات الدراسية.

- نعم، لكن رغْم هذَا فإن هناك بعضَ المسائِل الحسابيّة يُستَعْصَى عليّ حلّها.

وتشجَّع «حكيم» قليلاً، وتقدمَ نحو الفتَاةِ الصغيرة الجميلةِ «زينة» في خُطواتٍ متعثرة قَائلا:

- هل تسمحِين لي يا سيِّدتي أن أسَاعِدَك في حلّ تلك المسَائِل الحسَابية؟

وفي دهْشَة وسرُورٍ قالت زينة:

- أيمكنُك هذَا يا حكيم؟

- إن شَاء اللّه يا سيدتي؟

وقرأ «حكيم» المسَائلَ الحسابيّةَ، ثم أخذَ بأسلُوبٍ سهلٍ وبسيطٍ، وبطريقةٍ واضِحَةٍ يشرَحُ للفتَاة الصغيرةِ الجميلَة كيفيةَ حلّ تلكَ المسَائِل.

وبعد أنْ أتَمّ «حكيم» شرْحَه، صاحَت «زينة» في سُرور وفَرَح:

- مُمتَاز يا حكيم.. مُمتَاز، لقد فَهِمْتُ منك، وبأسلُوبِك الواضِح البسيط الشَّيِّق حلَّ تلك المسائِل الحسابية، أشكرُك.

- عفوًا سيدتي «زينة»، لا شُكْرَ على وَاجب، أنا تَحتُ أمرِك في أَية أمُور دراسية أخرى.

- من اليوم يا حكيم لن أستَطِيعَ أن أستغْنِى عنك في مسَاعَدتي دراسيًا.

- وأنا دائِمًا رَهنُ إشارَتِك يا سيدتي.

ومن هذِه اللحظة والفتَاةُ الصغيرةُ الجميلة «زينة» تستَعِين بـ «حكيم» في مُذَاكَرتها في فروع دراسَتِها المختلفة.

وفي اجتماع عائلي ضَمّ الثَّريّ «سندس»، وزوجَتَه «لؤلؤة» وابنَيْهما «دهب» و«زينة»، أوضَحتْ الصغيرةُ إعجابَها الشديدَ بالفَتَى الصغير «حكيم»، وكيفَ ساعدَها ويُساعدهَا في الأمُور الدِّراسية، ومدحَتْه كثيرًا على علمه وخُلُقه وأدَبه وذكَائه، فسُرّ الأب، وسعِدَت الأمّ بأن هناك من يُسَاعد ابنتهما في عَمل الواجبَات الدراسية، وأزاحَ عن عاتقِهمَا المجهودَ المبذُول في القيامِ بهذَا العمل.

وأظهرَ «سندس» إعجابَهُ بهذا الصبي المتميّز «حكيم»، وسَخِر من ولَدِه «دهب» الذي لا يهتَمّ بالدراسَة، ولا بالتعْليم والتعلّم، ويُضيّع أوقَاتَه في التفَاهَات وتدبير المقالب والمكائد للآخَرين. وسُرّت «زينة» من هذَا النقدِ الموجَّه إلى أخيها، الذي يَستحقّه.

وتضايَق «دهب» من سُخريَة أبيه، وأصَابته الغيرةُ من هذَا الأجير الفقير، وصمَّم أن يتخلّص منه، ويُزيحَه من طريقِه، ويُنهيَ عملَه عندَهم، حتى لا يُقَارنَ والدُه بينَه وبينَ هذا الأجير الفقير.

ورسَم الشيطانُ الصغير خُطَّةً لتحقيق التخلُّص من «حكيم» نهائيًا، وبدَا فِي تنفيذِ هذِه الخُطَّةِ فَورًا.

●●●

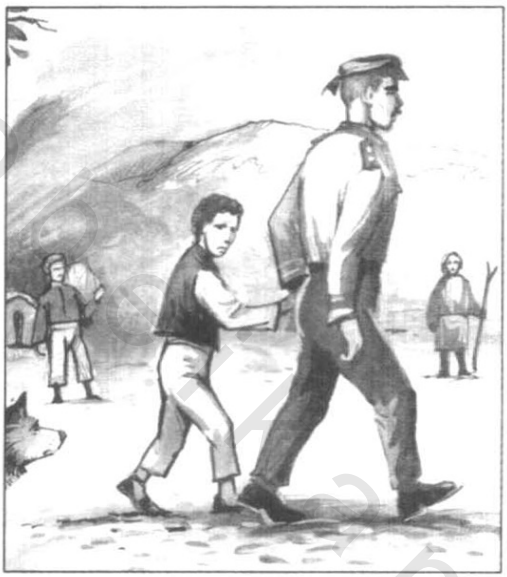

المكيدة

انتظرَ «دهب» حتى يُغادرَ والدُه البلدَةَ في سَفَرِ عَمل - كعَادته - لأكثَرَ من يَوم حتى يُنفِّذ خُطته، ويَحْبكَ مكيدتَه للتخلُّص منْ غَريمه الصبيّ الأجير.

وحانَ الوقتُ المناسب، وذهَب الثريُّ «سندس» في رحلَةِ عمل تستغرقُ عِدةَ أيَّام، وبدأَ الشِّرير في تنفيذ خُطَّته. فأخَذَ السلْسلَةَ الذهبيّة ذاتَ القيمةِ العاليةِ، والتي تحملُ قطعةً ذهبيةً محفُورًا عليها بدقّة اسْمَ «دهب»، والتي كانتْ أُمُّه قد أهدَتْه إياها بمناسَبة الاحتفَال بيوْم ميلاده الثَّاني عشر. ووضَع الشِّريرُ هذِه السِّلسلةَ الثمينةَ في جَيْبه واتجهَ إلى حديقَة القصْر، ونادَى علَى «حكيم» الذِي أقبلَ مهرولا مستجيبًا للنداء وهوَ في حالَةِ خوفٍ وتَرقُّبٍ وأجَاب:

- نعم يا سيدي دهب.

وابتسم «دهب» في خُبث قَائلا:

- تعَالَ يا حكيم.. أريدُكَ في مهمة..

وزَال بعضُ الخوفِ من قلْب الصبيّ المسكين، وسُرَّ لأنها المرةُ الأولَى التي يبتَسِم فيها سيدُه «دهب» في وجْهِه وقال:

- سمعًا وطاعةً يا سيدي.

وتبِع الصبيُّ المسكينُ سيدَه الذي سارَ في الحديقةِ حتى وصَلَ إلى شَجرة «رمان» وقَال:

- أريدُك أن تُمسك بكلتَا يديْك فروعَ شَجرة الرمَّان تِلك وتَعدّ لي كم ثمرةً أنتجتْ هذَا العام.

ودَهِش «حكيم» لهذا الأمْرِ الغريبِ، فلم يكنْ سيدُه «دهب» يهتمّ بمثْلِ هذِهِ الأُمُورِ، ولكنه نفّذ ما أمرَه به قائلا:

- أمْرَك يا سيدي ..

وأمْسك «حكيم» بفُروع شجَرة الرمَّان المطلُوب عَدّ ثمارها، وانشَغَل في عدّ الثمار:

- واحد .. اثنان .. ثلاثة ..

واقترَبَ «دهب» من «حكيم» وهُو رَافعٌ ذِرَاعيْه، ومشغُولُ الفكرِ فِي أداءِ مهمَّته ووضَع السلسِلةَ الذهبيّة في جيْبه دونَ أن يشْعُر الصبيُّ المسكينُ وهوَ منهمكٌ في العمَلِ الذِي كُلِّف به.

وفي هَذِهِ اللحظة نفسِها كانتْ «زينة» تنظُر إليهما من نافِذَة القصْر ودَهِشَت من هذا الموقفِ، وخاصةً عندما اقتَرَبَ «دهب» من «حكيم» المنهمِكِ في عَدّ الثمارِ، ووضَع شيئًا ما في جيْبه لم تتبيّن ماهيتَه، وعلى قدْرِ غرابة الموقف إلا أن الفتاة الصغيرة لم تعط الأمْر أهميةً.

وأتمّ حكيم عمليةَ العدّ بنجاحٍ والتفتَ إلى سيّده الصغيرِ قَائلاً:

- سبعَ عشْرَة رمانةً يا سيدي.

وابتسَم «دهب» في خُبث، وحاوَل أن لا يُشعِر الأجيرَ بخُطته وقَال:

- إذا كان لَدينا خمسُون شجرةَ رمانٍ في الحديقة، فهل تستطيعُ أن تحسِب كم عدد الرمّان في هذَا الموْسِم.

- نَعم يا سَيدي ..

وبعْد تفكيرٍ لفترةٍ وجيزةٍ قضَاهَا في حَلّ هذه المسألة لحسابية قال:

- ثمانمائة وخمسون رمانةً يا سيدي.

- أحسَنْت يا حكيم، أبهذِه السُّرعة استَطَعتَ حِساب عددِ الرمَّان.

- شُكْرًا يا سيدي على هذِه اللَّفتة الكريمة مِنك.

واطمأنّ «دهب» إلى أن «حكيمًا» لم يَشْعُرْ بشيءٍ، وأن خُطته في طَريقها إلى النَّجاح.

وانتَهى عملُ اليوم، ورجَع «حكيم» إلى بيْته دونَ أن يشعُر بأن السلْسِلَةَ الذهبيةَ في جَيْبه.

وعندمَا اقتربَ «حكيم» من بيته وأحسّ به صديقُه «دندو» هُرِع إليه وأَخَذ يُصدِر أصواتَ الفرح بلِقاء صاحِبه، وهو يَهزّ ذيلَه، ويتحركُ حركاتٍ سريعةً للأمام وللخلْف وعلى الأجنَاب معبرًا عن فرحَتِه بعودَةِ صاحِبه الذِي أقبَل عليْه في سَعَادَةٍ، وأخذَ حكيم يمسَح بيده على رأس دندو وجسمه وذيله.

وبعدَ استقبالِ الأمّ والأخوة لحكيم، جلَسُوا جميعًا لتنَاوُل طَعَامِ الغَذَاء معًا.

وقالتِ الأمُّ وهي تنظُر بحبٍّ إلى وجْه ابنها:

- أرَاكَ مسرورًا اليومَ يا حكيم على غيرِ عَادتِك.

– نعم يا أمّاه، فلأوّل مرةٍ اليومَ يمْتَدِحُنِي سَيدي «دهب» ويبتَسِم في وجْهِي.

– الحمدُ لله يا بُني.

– أتوقّع يا أمّاه مع مُرورِ الوقْتِ أن سَيدي «دهب» سَيرْضَى عَنّي، ويكفُّ عن مُضَايقَاتِه لي.

– إن شَاء اللهُ يا ولَدي.. أتمنَّى ذلك..!!

ودَاخِلَ القصْر افتَعَل «دهب» ضَياعَ سلسِلَتِه الذهبيّة، ونَادَى علَى أُمه وأختِه، والخَدم «مرجان» و«فرحة»، وسألهم عن السلْسِلة، ولكنْ كانت إجابةُ الجميعِ واحدةً، بأنهم لا يَدْرُون شَيئًا عنها.

وهُنا صاح «دهب» في افتِعَال:

– آه .. لقد لَمَحتُ هذَا الأجير «حكيم» وهُو يخرجُ من بَابِ القصْرِ الداخِلي. وفَهمت «زينة» ما يقْصِد أخُوها، فصَاحت مدَافِعةً عن «حكيم»:

– لا .. لا يا دهب، حكِيم لم يدخلْ القصْر اليومَ، فهو لا يدخل إلا إذَا استدعَيتُه.

وصرخَ «دهب» في أُختِه التي تُحاول إفسَاد خُطَّته:

– هذَا هُراء، فأنتِ في أَوقاتٍ كثيرةٍ تكونين مشغُولةً بأمُورِك، ولا تستَطِيعين إثباتَ ما تقُولين.

قَالَ هذا لأخْتِه ثم التفَتَ ناحِيَة «مرجان» وبالصُّراخ نفسِه قالَه له في لَهجةٍ آمرةٍ:

– اسمعْ يا مرجان، اذهبْ إلى مكتَب شُرطةِ البلْدة، وأخبِرْهم أن هُناك سلسلةً ذهبيةً غَاليَة الثَّمن قد فُقِدَت من القصر، وأن هُناك شكًّا في أن الأجِيرَ الذي يعملُ عندنَا المدعُو «حكيم» هو الَّذي سرَقَها.

وحاوَلت الأمُّ «لؤلؤة» والأُخْتُ «زينة» أن يثْنِيَا عزْمَ «دهب» عن هَذَا الأمْر ولكنَّه أصرَّ على رأيه وقالَ لهما:

- إذَا كان بريئًا، فليس في الأمْرِ شَيءٌ. أما إذا كَان قدْ فَعَلها، فليسَ له أن يعملَ عندنَا بعدَ اليوم.

وذهبَ «مرجان» - وهو يشْعُر بأن فِي الأمرِ ميكدةً - وأبلَغَ شُرطَة البلْدةِ بمَا أمرَهُ به سَيِّده «دهب».

وانتقَل شُرطيّان إلى بيْت «حكيم» للتحقُّق من هذَا الادّعاء. وعندَ وصُولِهما إلى البيت أبلَغا «حكيم» بسَبب مجيئِهما، فقالَ الفتَى الصغيرِ لَهُما في ثقةٍ وربَاطة جَأش:

- أنتُما تعلَمان بأنَّني وأبي «عامر» - رحمَهُ اللَّه - من قبل نتمسّك بالأمَانة والشّرف، وهذه تُهمة بَاطِلةٌ. أعرف مَنْ وراءها، تفضّلا ونفّذَا أمرَ التفتيش، ولكنّني أُؤكد لكُما أنكُما لن تعثُرا علَى شيء.

وبَدأ الشرطيَّان في تفْتيش الكُوخ الخشَبيّ ومحتوَيَاته، فلمْ يجدا شَيئًا، وقَبْل أن يغَادرَا الكوخَ قامَ أحدُهما بتفتيش ملَابس «حكيم»، وكانَت المفَاجَأةُ المفزعةُ، هَا هِي السلسلَةُ الذهبيّة بالمواصفَاتِ التي تَمّ الإبلاغُ عنها من صاحبها موجُودَةٌ في جَيْب «حكيم» الذي صُعِق من هوْل المفَاجأةِ وصَاح:

- هذه مكيدةٌ دُبِّرت لِي. وأنا لم أسْرق شَيئًا.

فقَالَ الشُّرطِي الممسِكُ بالسلسلَةِ مُوجِّهًا إليه التَّساؤلَ:

- وما الذِي أتَى بهذه السلسلة إلَى جيْبك؟

فردَّ «حكيم» والدمُوعُ في عَيْنَيْه:

- لا أعْرِف .. لا أعْرِف.

وتمَّ القبضُ على الفَتَى المظلُوم، وأمُّه وإخْوَتُه يبكُون غيرَ مُصدِّقين ما حَدَث.. وخرجَ «حكيم» مع الشُّرطيِّ وهو يصرُخ بَاكيًا:

- مظلُوم .. مظلُوم .. أنا لَم أَسْرِقْ شَيئًا.

وذهَبَ الجميعُ إلى مكْتَبِ شُرطةِ البلْدةِ، والأمُّ تبكِي ولَدَها بشدَّة قَائلةً:

- حكِيم بَرِيء، حكِيم مظلُوم .. ابْنِي لا يُمكنُ أن يقومَ بمثلِ هذِه الأعمالِ.

وحتَّى «دندو» شَعَر أن صَاحِبَه في ورْطَة، فسَارَ وَرَاءَ الجمِيعِ مُنكَّسَ الرأس يُصدرُ أصواتًا تَدُلُّ علَى مَدَى حُزنِه وأَلَمِه.

وفي مكْتَبِ الشُّرطة تم التَّحقِيقُ مع «حكيم» من قِبَل أَحدِ ضُبَّاط الشُّرطة. ولم يستَطِع «حكيم» أن يُعطِيَ مبررًا علَى وُجُودِ السلسلة الذَّهبِية في جَيْبه، إذنْ.. التُّهمةُ ثَابتةٌ علَيْه.

وتَم القبْضُ عَلى الفتَى المظلُوم وأمُّه وأخْوته يبْكُون

وأمرَ الضابطُ بحجزِه في سِجنِ مكتب الشّرطة لحينِ عَرضِ الأمرِ على قَاضِي البلدة.

وقالَت الأمُّ باكيةً لولدِها «حكيم» قبلَ وضْعِه في السِّجن:

- أنَا أعلمُ بأنكَ بريءٌ يا ولَدي، فلقد ربَّيتُك على الأمَانة والإخلاص والأخلاقِ الحميدَة، وأنا واثقةٌ أن اللهَ - تباركَ وتعالى - سيكونُ مَعَنَا، وسوفَ يُظْهِرُ براءَتَك.

وردَّ الابنُ والدمُوعُ في عينَيْه في مُحاولةٍ لشدّ أزْرِ أمّه:

- إن شَاء اللهُ يا أماه ستظهرُ براءتي فلا تحْزَني وقَرِّي عَيْنًا.

وتمَّ حجزُ «حكيم» في سِجْن مكتَب الشُّرطة، ورجَعت الأمّ إلى بَيْتِها باكيةً، وتمنَّتْ لو أنّ زوجَها الراحلَ «عامر» بجَانبِها في هذِه اللَّحظَاتِ العصيبَة ليدَافعَ عن ولَدِه.

ولَم يعُدْ «دندو» إلى مكَانِه المعتَادِ، بل ظلَّ باقيًا بجوارِ مكتَب الشرطَةِ المحتَجَزِ فيه صاحبُه «حكيم»، وظلَّ يُصدِرُ أصْوَات ألمٍ علَى فِراقِ صَاحبِه.

وتَمّ إرسالُ شُرطيّ إلى قَصْرِ الثَّري «سندس» للإبلاغ عن وجُود السلسلَة الذهبية المفقُودَة في حَوْزَة الأجيرِ الصغيرِ «حكيم»، وأنه الآن في سِجن شُرطة البلْدة لحِين عَرْضه على قَاضِي البلدة، وأن السلسلَة ستَعُود إلى صَاحبِها فورَ الانتهَاء منَ البتّ في هذِه القضية.

وصَاح «دهب» في شَمَاتة:

- أما قلْتُ لكم أنّ هذَا الولَدَ الأجيرَ هُو السارقُ.

وبكَتْ الطفلةُ الرقيقةُ «زينة» لهذِه النتيجةِ المحزِنةِ، لأنَّها تعرِفُ أمَانَة حكيم، وأن مَا حدَث هو مكِيدةٌ دبّرها أخوها الشرِّير «دهب».

وحزن كذلك البستَاني «سالم» المسئُولُ عن رِعَاية حديقة القصْر، لأنَّه متأكِّدٌ من خُلُق «حكيم» وأمَانته، وأنه لا يُمكن أن يكُونَ سَارقًا.

وفي سِجن مكتب الشّرطة لم يذُقْ «حكيم» طعْمَ النوْم طَوَال اللّيل، وأخذَ يفكِّر فيما حَدَث وكيفَ وصلَت السلسلةُ الذهبيةُ إلى جَيْبه؟ ورغْم أنه لم يَجدْ جوابًا على تساؤُلِه؛ إلا أنه أكّد لنفْسِه أن فاعِل هذه المكيدة هو الولدُ الشريرُ «دهب».

وفي صبَاح اليوم التالي زَارَه في سِجن شُرطة البلْدة معلِّمُه «نور»، الذي أخَذَ يسرِّي عنه ويطمئِنُه ويؤكِّد له ثقتَه من براءتِه. ولكنَّه أرادَ أن يعرِفَ تَفَاصِيل ما حَدَث، فحكى له «حكيم» القصّةَ كامِلَةً. وهنَا طرحَ عليه «نُور» سؤَالا:

- إذا كُنتَ تؤكِّد أن «دهب» هوَ الذي وضَعَ لك السلسلةَ الذهبِيّة في جيْبك فكيفَ حدَث ذلك؟

- هذَا هو السؤالُ الذي يحيِّرني.

وما هِي إلا برهةٌ حتى صاحَ «حكيم» واقفًا بعدمَا تذكَّر شيئًا مهمًا قائلا:

- نعم .. تذكَّرت الآنَ يا مُعلِّمي.

- ماذَا تذكَّرت يا حكِيم؟

- تذكّرت أن «دهب» نادَى عليّ وأنَا أعملُ في الحدِيقة، وأمَرَني أن أُزِيح بكلتَا يديّ فروعَ شَجرةِ رمّانٍ لأقومَ بعدّ ثمارها.

- وهلْ هو معتَادٌ على ذلك؟

- أبدًا ..

- وهل عُرف عنه أنه يهتَمّ بشئُونِ الحديقةِ، وما بهَا مِن ثِمَار؟

- أبدًا .. أبدًا، إنه لا يَهتمّ بشيءٍ سوَى مضايقَةِ الآخَرين وإزعاجِهم، وتدبِيرِ المكائِدِ لهم.

- أعلَمُ هذا يا حَكِيم .. أعلَمُ هذَا ..

- لقد انتهزَ فرصةَ أن أرفعَ يدَيَّ بعدَ أن أمَرَني بذلك، وجعَلَني أنشَغِل بعدّ ثِمار الرمّان ووضْعِ السلسلةِ الذهَبية في جيْبي دونَ أن أشْعُر.

- استنتَاجٌ رائعٌ يا حكيم، ولكن كَيفَ لنَا أن نؤكِّدَه؟

- لا أدْري يا معلّمي، لا أدْري.

واستعدّ «حكيم» ليذهب إلى قاضِي البلدةِ لينظُرَ في قضيَّتِه. أما المعَلِّمُ «نُور» فتوجّه إلى قصْر الثري «سندس» - الذي عادَ من سَفَرِه - وقدْ علِم بأمرِ السلسلَةِ الذهَبيـة، ولكنّه لم يقتَنِع بأنّ الصبيَّ الطيبَ «حكيم» قـد سَرَقَـها. وعندَمَا قَصّ «نور» عليه قِصَّتَه شجَرةِ الرمّان تأكدَتْ قَنَاعتُه ببَرَاءَةِ «حكيم»، واستدْعَى ابنَه على الفَوْرِ وَوَاجَهَه قائلا:

- هل جعلْت «حكيم» يَعدُّ ثمارَ الرمَّان من علَى إحدَى الأشجَارِ؟

فأنكرَ «دهب» قائلا:

- لا لَمْ يحدُث.

وهنا تدخلَت «زينة» التي كانَت تَستمِع إلى الحَوار قائِلةً بحمَاس:

- لا يَا أبي، دهب يكْذِبُ. لقد رأيتُهما من نافِذَة القصْرِ وهو ينَادِي علَيه ويأمُره بعدّ الرمان، وفي أثناء تنفيذ «حكيم» هذَا الأمرِ اقتربَ «دهب» منه ووضَع شَيئًا في جَيْبه.

واستَشَاط الشرِّير «دهب» غضَبًا من موقِفِ أخْته وهدَّدها صَارِخًا:

- كذّابة.. لم يحْدثْ شيءٌ من هذَا، سأعرِفُ كيفَ أنالُ مِنك على هَذَا الموقِف.

وهنَا صَاح «سندس» مُعَاتِبًا ولده:

- ولِمَ فعلْتَ هذَا بهذَا الصَّبيّ المسْكِين؟

- لأنّني لا أريدُه أن يعمَل هنَا في القَصْر.

- إذن أنْتَ الذي دبَّرت له مكيدةَ السلسِلَة الذهَبية؟

وفي وَقَاحَة ونذَالةٍ منقَطِعةِ النَّظير قالَ الولدُ الشرِّير باستِهتَارٍ وتَحدٍّ:

- نعم أنَا الّذي دبّرت هذِه المكيدةَ لهذا الأجيرِ الحقير، ماذا يمكِنُ أن تفعلُوا بي؟

ولأوَّل مرة رفَع الوالِدُ يدَه وأنزلَها ليلْطُم ابنَه على خَدِّه لطمَةً شديدةً صَائِحًا:

- يا كلْب.. أوَصلَتْ بكَ الجرأةُ والاستِهْتَارُ إلَى أن تُعلِنَ إجرَامَكَ هكَذا بكلِّ بَسَاطة، ألا تعلمُ أن أبَاه قد ضَحَّى بحيَاتِه من أجْلِ إنقَاذِ حَيَاتي.

وصَرخ «دهب» من هَوْل هذِه اللَّطمة، وفي غَضَبٍ صَاحَ باكيًا:

- أتضرِبُني من أجْلِ هذَا الأجير التَّافِه.

- هذَا الأجيرُ التَّافِه أفضَلُ منك وأشْرفُ، واللَّه سأعلِّمكَ درْسًا لن تَنْسَاه طَوَالَ حيَاتِك.

وصرَخ «دهب» من غَضَبٍ وتهديدِ والِدِه غير المسْبُوق، وأسْرعَ بَاكيًا يستَنْجِدُ بأمّه:

- أمّي .. أمّي .. انظُري ماذَا فعَل أَبي!!

وأخذَت الأمُّ ابنَها الباكِي بيْنَ ذراعيْها تُحاولُ أن تخفِّفَ عنه آثَارَ عقَابِه الشَّديد.

وسَألَ «سندس» المعلِّمَ «نُور»:

- وأينَ «حكِيم» الآن؟

فَردَّ «نور» وهو يكتُم سعادَتَه ببراءَةِ «حكيم»:

- أظُنُّ أنّ رجَالَ الشُّرطةِ سيعرِضُونَه الآنَ على قَاضِي البلْدة.

فقالَ الأبُ في جدِّية وصوْتٍ قَاطع:

- إذنْ هَيّا يا كَاذِب.. هيَّا إلى قَاضِي البلْدة لنُبَرِّئَ ساحَةَ هذَا الصَّبِي الشَّريفِ ولنَرَى ماذَا سيفْعَلُ بكَ هذَا القَاضِي؟

وحَاوَلَ كلٌّ منْ «دهب» وأمِّه أن يَثْنِيَا الأبَ الغاضِبَ عن قَرارِهِ، ولكنَّه أَصَرَّ، فلَقَد طَفَح الكيْلُ من كثْرَةِ الأعْمَال الخبيثَةِ لهذَا الابْنِ الشِّرير.

وعندَ قَاضِي البلْدَة وقَفَ «حكيم» ليقُصَّ لَه حكَايَتَه منذُ أن بَدَأَ العمَل كأجِير في حديقةِ قصْرِ الثَّري «سندس»، والمضَايقَات التي كَان يُسَبِّبها ابنُه «دهب» له ولغيره، واختَتَم الصبيُّ المظلومُ كلامَه بأن بلْدة «ضَيّ الفَنَار» تشهدُ لَه بالمسْلَكِ السليم والخلُق القَويم.

وردّ القاضِي على ذَلك قَائلا:

- أنا أوافِقُ على كلّ مَا قُلتَه يا بني، ولكنْ إذا لَم تُفسِّرْ لي تفسيرًا منطقيًا ومقْبُولا عن سببِ وجودِ السلْسلَة الذهبيَّة التي تخصُّ «دهب» في جَيْبك، فَسَأحكُم عليْك بالسَّجن لمدةِ شَهْرٍ كَامِل.

فردّ «حكيم» على القَاضِي قَائلا والدُّمُوع في عيْنَيه:

- سَيِّدي القَاضي، لقد قلْتُ لَكَ الحَقيقَة، وإنَّني لم أسْرِقْ شيئًا، ولكِنَّني لا أَمْلِكُ الدليلَ القَاطعَ علَى بَرَاءَتِي، لا أمْلِكُ الدليلَ على أنَّ سَيدي «دهب» هو الَّذي وضَعَ السلسلةَ الذهبيَّة في جيْبي، وأنَا على ثِقَة بأنَّ اللَّه - عزَّ وجَل - لن يتخَلّى عنِّي في هذه المحنة، وإذَا كان الله - سبحانَه وتعَالى - قدْ قدّر أن أُسْجَن بسببِ فَعْلةٍ لم أفعلْها، فإنني رَاضٍ بحكْمِه، مُمتَثِلٌ لمشيئَتِه.

وأُعجِبَ القاضِي بهذَا الصَّبي المؤْمِن قائلاً:

– ليسَ أمامِي الآنَ سوَى أن أواجِهَك بـ «دهب» لنَرَى أينَ الحقِيقَةُ؟

وفِي هذِه اللحظَةِ دخَل المحكمةَ الثَّريُّ «سندس»، مصَاحِبًا ابنَه «دهب» باكِيًا، ومعَهُما المعلِّم «نور» الذِي ما إن رَآه «حكيم» مبتسِمًا حتَّى أيقَن أن الحقَّ قد ظَهَر.

وقالَ «سندس» للقَاضِي:

– فضِيلةَ قَاضِي البلدة، أنا أُعلِن أمَام الجَمِيع براءَة «حكيم» من التُّهْمَةِ التِي وُجهت إليه، لأنَّ المتهمَ الحقِيقيَّ فِي هذِه القضيَّةِ هوَ ابنِي «دهب» الذِي دَبّر هذِه المكِيدَة، ووَضع السلسِلَةَ الذهبِية فِي جَيْب «حكيم» دون أن يَشعُر، وقد اعتَرَفَ لِي ابنِي بذَلك.

وأضَاءت الحقِيقَةُ وجْه «حكيم» وتمتَمَ مبتسِمًا: الحمدُ للّه.. الحمدُ للّه الذِي أظهَرَ بَرَاءتِي.

وارتَاح القاضِي لهذِه النتيجة، لأنَّه كانَ يشعُر فِي قَرارة نفْسِه بأنَّ «حكيم» مظْلُومٌ، ونَظَرَ إلى «دهب» الذي كَانَ يذْرِفُ الدمعَ علَى خِزْي موقِفِه، وقَال:

– كنتُ سأحكُم على هذَا البرِيء بالسَّجن لمدَّة شهْر كَامل، وما دَام اللَّه – تبَارك وتَعالى – قد أظهرَ الحقِيقةَ، فلابُدّ أن تُعَاقَب علَى فَعْلَتِك، لأنَّ الناسَ أمَامَ القَضَاءِ سَواسِيةٌ لا فَرْقَ بينَ غَنِيّ وفَقِير، ولا سَيّد أو أجِير. والآن أنْتَ يا «دهب» أمامَ خيَارَيْن لا ثَالِثَ لهما، إمّا أن تُسجَنَ شَهْرًا كامِلا، وإمَّا أن تعمَل أجِيرًا بلا أجْر لدى هذا الصَّبيّ الشَّريف «حكيم». لقد كُنتَ لا تُطِيقه أجِيرًا عندك، ولكنْ قَضَت عدَالَةُ السَّماء أن تكُونَ أنت أجِيرًا عنده. فهيَّا اخْتَرْ: إمَّا السَّجْنَ، وإمَّا أن تكونَ أجِيرًا.

واختَار «دهب» الخيَارَ الثَّانِي لأنَّه أهوَنُ علَيه من السَّجن. وفَرِحَ الجميعُ وصَاحُوا: يحيَا العدْلُ.

وعَاد «حكيم» إلى أسْرَته وَبيته فَرِحًا مَسْرُورًا ببرَاءَتِه، ومن ورَائِه «دندو» يهزُّ ذَيْلَه ويتَرَاقَصُ فَرِحًا.

اختطاف

جاءَ في وثيقَةِ الحكْم على «دهب» التي دوَّنها قاضي البلدة وتَمّ اعتمادُها بالخاتَم الرسْمي بأنهُ ولمدَة شهْر كامل يذهَبُ شُرطي في صبَاح كلّ يَوم إلى قَصْر «سندس» ويصْحَب معهُ الصبيَّ «دهب» ويسلّمه إلَى الصَّبي «حكيم» ليكلِّفه بأيّ عَمَل يُريدُه، وَذَلك حتَّى غروبَ الشَّمْس ثُمَّ يَعُود إلى قصر أبيه، وإذا تَمَّ تحَايُلٌ بصُورَةٍ أو بأخْرَى في تنْفيذ هذَا الحكم يتمّ إيدَاعُ الصبيُّ «دهب» فورًا في سِجْن الشرطة وحتَّى نهايةِ الشَّهْر.

وأفْهم «سندس» ولَدَه أن هذَا الحكْمَ تكْفيرٌ عن ذُنُوبه التي اكتَسَبَها منْ إلحَاقِ الأذَى بالآخَرين، وأن علَيه تنفيذَ هذهِ العقُوبةِ المخفَّفةِ، والتي هيَ أفضلُ

من عُقُوبةِ السَّجن، واقْتَنَع «دهب» - بعد انكِسَارِ كبريَائه - بكلامِ وَالدِهِ وامتَثَلَ للحكْمِ.

وبالفِعْل في صَبَاح اليومِ التَّالي حضَر شُرطِيٌّ من مكْتَب شُرطَةِ البلْدَة، واستَلَم الصبيَّ «دهب» منْ عندِ قصْرِ أبيه، وسَارَ به حتَّى بَيْتِ «حكيم» وسلَّمه إلَى الصَّبيِّ تنْفِيذًا للحكمِ الصَّادرِ علَيْه.

وعندمَا الْتَقَى «حكيم» بـ «دهب» وَجَده في حَالَةِ انكِسَارٍ نفْسيّ شديد، ولا يستطيعُ أن يرفَع نظرَه في عيْنَي «حكيم»، ووَجَّه نظرَه إلى الأرْضِ في خَجَلٍ وخِزْي.

وحنَّ قلبُ «حكيم» لهذَا الانكِسَار المخزِي لنفْسِ «دهب» ونَسِيَ ما فَعَله معَه، فقَال لهُ والرحْمةُ تملأُ عينَيْه:

- سَيدي دهب.. هَوِّن عليْكَ الأمْرَ، أنتَ هنَا ضَيْفي.

وردَّ الصبيُّ والعيونُ تتحَرَّكُ فيهَا الدمُوعُ:

- أنا لَسْتُ سيدَك الآن، ولكنّك من الآن ولمدَّةِ شهْرٍ كَامل أَنْتَ سَيّدي، وأنا أجيرٌ عِندكَ.

- دَعْك من هَذا يا سَيدي، وتعالَ نَعِشْ معًا كأصدِقَاء.

وابتَسم «دهب» الذِي كَان يظنُّ أنَّ «حكيمًا» سيحَاولُ الانتِقَام منه وقَال:

- أصدِقَاء !! هل مَا تقولُه حقيقَةٌ؟!.. إن هذَا يسعِدُني.

- ما أقولُه هو منْ صَمِيم قَلبِي.. ويُسعِدُني أكثرَ مما يُسعِدُك..

- والآنَ ماذَا سنَفْعَل.

قَالَهَا «دهب» بعد أن سَلّم على «حكيم» وشدَّ على يَدِه عِرفَانًا لَه بالجَمِيل.

- لقد تَمَّ حِرمَانِي من أَجْرِي الشَّهري الذي كُنتُ أتَقَاضَاه وأنا أعْمَلُ عندكُم في حَدِيقَةِ القصْر؛ لذَا عليّ أن أعمَلَ حتَّى أُعوَّضَ ما فَقَدتُه.

- إذا كُنتَ تُريدُ يا حَكِيم أن أخْبِر أبِي ليعوِّضَك عمّا فَقدْتَه من أجْرِ هذَا العمَل.. فسوفَ أَفعَلُ..

- لا يا سيدي، فأنَا لا آخذُ مالاً دون عَمل، فالعمَلُ أساسُ الحيَاة، لقد خَلَقَنا اللهُ تعالى لنعملَ وَنكدّ ونُعمّر هذَا الكونَ.. قلْ لِي يا صديقي هل تستَطِيعُ أن تؤدِّي عملا ما؟

- لا يَا صديقي، أنا لا أُجيدُ عملَ أي شيء، وما تعلَّمتُ أن أؤدي أيَّ عملٍ، فثَرَاءُ أبِي جعَلَني لا أهتمّ بتعَلُّم أيِّ عَملٍ.

- أحيَانا يكونُ المالُ نَكبةً على صَاحِبه.

- نعم يا صَدِيقي.

وصَمَتَ حكيمُ قليلا ثم نظَر إلى دهب وقالَ لَه:

- ما رأيُك في أن أعلِّمَك كيف تصطَادُ السَّمَكَ من البَحْر؟

- هذَا شَيءٌ رَائع أتمنَّى أن أتعلَّمه.

- وما نصْطَادُه معًا من سَمَك، نجعلُ جُزءًا منه لطعَامِنَا، والجزْءُ الآخَر نَبيعُه في السُّوق، ونقتَسِمُ ثمَنَ هذَا البيْع معًا.

وفي تَأثُّرٍ ونظرَاتٍ منكَسِرَة قالَ دهب في صَوْتٍ مُنخفِض:

- لا .. لَن آخذَ مالا، فلقدْ حكَم عليّ قاضِي المدينَةِ أن أكُونَ لكَ أجيرًا لمدةِ شهرٍ كاملٍ بلا أجر.

- لا عَلَيك يا صديقي.. لا علَيك.. ما مَضَى قَدْ مَضَى.. ونحنُ الآنَ أبنَاءُ اليَوم..

واكتَشَف «دهب» في «حكيم» نفْسًا صَافِيةً، وخلُقًا عاليًا، وصديقًا مخلِصًا، وبدأ هذَا الصبيُّ المدللُ يخطُو خطوَاتِه الأولى في تغيير مفاهيمِه عن قِيمَةِ النَّاس، وأن المالَ ليس - فقط - هوَ المعيارَ الأسَاسِيَّ فِي الحكْمِ علَيهم.

وذهَب الصديقَان إلى شاطئِ البحْر ليصْطَادا السمكَ، وتبعهما «دندو» في سَعَادة يجري أمامَهُما تارةً، ويُقبلُ عليهما تارةً أخرى، ويَهزّ ذيْلهُ بصورةٍ دائمة، ويُصدرُ أصواتًا تدلّ على سُرورِه وسعَادتِه.

ووجَد «دهب» في حيَاتِه الجديدَة، وفي صُحبةِ «حكيم» و«دندو» شَيئًا جَديدًا علَيْه، وسعَادةً لم يكنْ يشْعرُ بها أبدًا وهو في قَصْرِ أبيه ولدَيه كلُّ ما يُريد.

ومَا إنْ وصَلا إلى صَخْرة كَبيرةٍ تُطلّ علَى مِيَاه البَحْر؛ حتَّى أعدّ «حكيم» أدوَاتِ الصَّيْد، وعلّم «دهب» كيف يصطَادُ السَّمَك بوَاسِطة هذِه الأدوات.

وكانت فرحَةُ «دهب» لا تُوصَف عندمَا اصطَاد أوَّل سمكةٍ في حيَاتِه، وشَهِد مهَارةَ «حكيم» في صَيْد السَّمَك، وأُعجب به أيّما إعْجَاب. وتساءَلَ «دهب» بينَه وبينَ نفْسِه: كَيْفَ غَابت عنِّي هذِه السعَادةُ من قبل؟ سعَادةُ العملِ والاجتهَاد والمثابرة؟

وفِي نهايةِ فَترةِ صيدِ السَّمك، كانَتْ النتائجُ رائعةً، وكَميةُ السمكِ وَفيرةً، فَرجَعَ الصديقَانِ إلى كُوخ «حكيم» حيثُ أعطَى لأمِّه بعضَ الأسمَاكِ لِتصنَع منها وجْبةَ طَعَامٍ شَهيةً، والباقِي تمَّ بيعُه في سُوقِ البلدة، وقَسّم «حكيم» ثمنَ البيْعِ بينَه وبينَ «دهب».

وأخَذَ «دهب» يتحسَّسُ المالَ القَليلَ الذي حَصَلَ علَيه من عَمَلِه وكَدّه وعَرَقِ جَبينه، وأيْقَن أن مَالَ أبيه كلَّه لا يستطيعُ أن يُسعدَه مثلَ سعَادَتِه بهذِه القُروشِ القليلَةِ، فلأوَّلِ مَرةٍ يَعرفُ سعَادةَ الحصولِ علَى مالٍ من العمَلِ والتَّعبِ والكَدّ.

وعندَمَا عادَ «دهب» في المسَاء إلَى أسْرَته حكَى لَهُم - أَبيه وأُمه وأُخته - مُتعةَ العَمَلِ، وقيمةَ أن يكْسبَ الإنسانُ من عمَلِه وعرقِ جَبينِه، وقدَّمَ لَهُم القروشَ القليلَةَ التي حَصَلَ عليْها من عَمَلِه في صيْدِ السَّمك.

وفَرحت الأسْرَةُ بما حَدث، فقدْ تغيَّر الفتَى الصغيرُ كثيرًا في وقْتٍ قَصيرٍ، حتَّى إنه تحدَّث إليهم باحترامٍ لم يعْهدُوه منه، وامتدَّ هذَا الاحترَامُ حتى وصَلَ إلى الخادمِ «مُرجان» والخادمَة «فرحة» اللَّذين دُهشَا وتعجَّبا - وكأنما رأَيَا إحدَى عجَائب الدنْيا السبْع - من مُعاملة «دهب» لهمَا معامَلةً طيبةً، وتمتَم الأبُ بينَه وبينَ نفْسِه في سَعَادَةٍ وقَال: صحيح، صدَق من قَال: رُبَّ ضَارَّةٍ نافِعَةٌ.

واستمَرَّ الحالُ هذَا أيَّامًا عديدَةً، ففِي صبَاح كُلِّ يوم يأتِي «دهب» مع الشُّرطِيِّ إلَى بَيت «حكيم»، فيخرجَان معًا لصَيْدِ السَّمك كعَادَتهما، ومعَهُما الكلْب «دندو» في سُرورِهِ المعهُود.

وبعدَ اصطياد قَدْرٍ مُنَاسبٍ من السمكِ، يسَلِّم «حكيم» بعضَهُ لأُمِّه، ويبيعُ البَاقِي في سُوق البلدة، ويقتَسِم ثمنَ البيع مَع «دهب» الذي يعُود في المسَاءِ إلَى أسرَته سعيدًا قَريرَ العين، وقَد حلَّت محَلَّ سيئَاته السَّابقة حسنَاتٌ كثيرةٌ، وتبدلَتْ نفسُه الخبيثةُ، وأصْبحت نفسًا طَيبة، وسُبحان مغَيِّر الأحوال!!

وفِي أحدِ الأيام ذهَبَ الصديقَان كعَادتهما إلَى شَاطئِ البَحْر، وصَعَدا على الصَّخْرةِ الكَبيرة وبدَأَ كلٌّ منهما في صَيْدِ السَّمك، والكَلب «دندو» في مَرَحه وسَعَادَته المعتَادة...

وفِي أَثْنَاء انهمَاكِهمَا في الصَّيد اقترَبَت من الشَّاطئِ سفينَةٌ، ونَزَل منها بعْضُ الرِّجَالِ فِي قَارب، وأخَذُوا في التَّجْديف والاقترَابِ منَ الشَّاطئِ.

ولم ينْتَبهْ كُلٌّ من «حكيم» و«دهب» لهذَا القَارب وما يحْمِلُه من رجَالٍ غُرَبَاء إلا عندمَا نَبَحَ «دندو» نُبَاحًا شَديدًا، ولم يهتمَّا في أوَّلِ الأمر بهؤُلاءِ الغُربَاء حتَّى وصَلَ القَاربُ إلى الشَّاطئِ ونزلَ منه ثلاثَةُ رجَالٍ يرتدون ملابسَ

سوداءَ غَريبةً، وشُعُورهم طويلَةٌ مهمَلَة، وتَبدُو من قَسَمَات وجُوههِم الغلْظَةُ والقَسْوةُ.

واقتربَ الغربَاء الثلاثةُ من الصَّخْرةِ الكَبيرةِ التِي يقفُ علَيها «حكيم» و«دهب»، واشتَدّ نُباحُ «دندو» وكأنَّه استشْعَر خطَرًا من ورَاء هؤُلاء الرِّجال. وحاوَلَ «حكيم» أن يُسكِتَ «دندو» دونَ جَدْوى، فأمْسَك أحدُ الغُربَاء حجرًا ورمَى به الكلْبَ فأصابَه في رأسه إصابةً مباشِرةً، فعوَى المسكِينُ عُواءً حادّا من شِدّة الألم، وابتَعَدَ عن هَؤُلاءِ الغُرباء.

وصَاح «حكيم» في انفِعَال عندَمَا رأَى الدِّمَاءَ تنزِفُ من رأس «دندو» قَائلا:

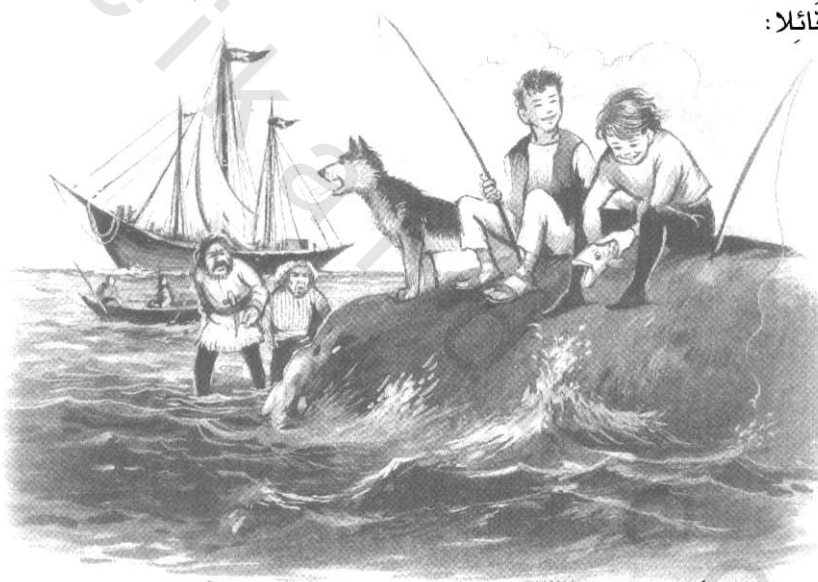

- لماذَا فعلتَ هذَا بكلبِي؟

فردَّ الغريبُ الأولُ: لأنه لا يُريدُ أن يكفَّ عن النُّباح، وأَرَاد أن يهَاجِمَنا.

فقَال «حكيم» بنفس الانفِعَال:

- لكنَّه كلْبٌ طيب، لا يُهاجمُ سوَى الأشْرَار.

وضحِكَ الغريبُ الثاني بصوْتٍ عَال مُزعج وقَال:

- أنتَ صَادقٌ في كلامكَ يا ولَد.. فنحنُ بالفِعل أشْرار.

وهنَا شعَر «حكيم» بالخطَر وقَالَ:

- أشْرَار.. وماذَا تريدُون منَّا أيها الأشْرَار؟

فردّ الغريبُ الثالثُ في صَراحة:

- نُريدكُما معَنَا على ظَهْرِ سفِينَتِنا .. سفِينَةِ القرَاصِنة.

وصرخَ «دهب» في خَوْف:

- سَفِينةُ القَرَاصِنَة!!

وقالَ الغَرِيبُ الأول:

- نعم.. انظرا إلى العَلَم الأسْود الذي يرفْرِفُ علَى سَفِينَتِنَا.. إنّه يعْنِي أنَّنا قَرَاصِنَة.

وفِي نبرات مِلْؤُها الخوْف الحقِيقِي قَالَ «حكِيم» يستعْطِفُ هؤُلاءِ القَرَاصِنة:

- أَرجُوكم أن تتركُونِي أنَا وسيِّدي «دهب».

وضحِك القَراصِنَةُ الثلاثَةُ معًا وقالُوا في صَوْتٍ وَاحِدٍ: سَيدك!!

وأكمل أحدُهم:

- من الآن وصاعدًا ستكونَان عبدَين لنا، وسنكُونُ نحن أسيادكُما..

وضَحِك القراصِنَةُ، ثم في حركةٍ سَرِيعَةٍ هَجَمُوا علَى «حكيم» و«دهب» وحملُوهُما بالقُوة إلى القَارب، ولم تَنجحْ محاوَلاتُ الصبيّان في الإفلات من أيادِيهم الخشِنَة الغليظَة، واتَّجَهوا بالقَارب ناحِيةَ السَّفينةِ. ولم يدّخر كلٌّ من «حكيم» و«دهب» أيَّ جَهْدٍ في محاوَلَةِ التخلُّص من أيْدِي الخاطِفين، ولكن دُون جدْوَى. وفي نِهَايَةِ الأمْرِ قَام القَرَاصِنَة بضرْبِهما بِقوَّةٍ على رأْسيْهما فَغَابَا عَنِ الوعْي.

وآخِرَ ما رأى «حكيم» قبل أن يَغِيبَ عن الوعْي؛ بعضَ الأشْجَار والبُيوتِ البعِيدَة لبلْدته «ضَيّ الفنار»، و«دندو» الذِي فَقَد هو أيضًا وعيَه بعْدَ إصَابتِه بهَذَا الحجرِ اللَّعين الذِي رمَاه عليْه أحدُ هؤلاء القراصِنة. وتيقَّن «حكيم» قبلَ أن يغِيبَ عن الوعْي أنه و«دهب» قد تَمَّ اختطافُهما من قِبَل قَراصِنَة البحَار.

obeikandl.com

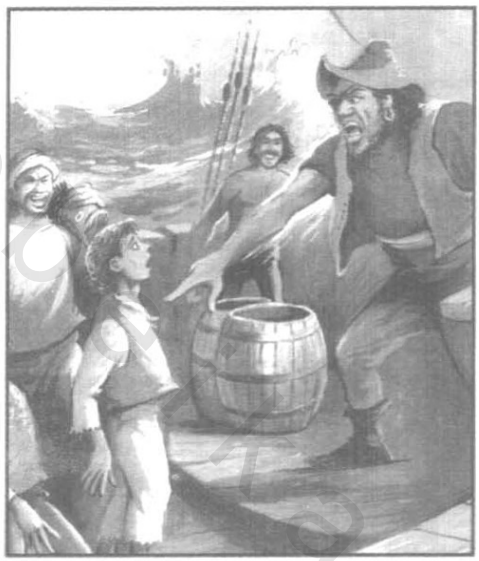

سفينة القراصنة

أبحرتْ سفينَة القراصنَةُ مبتعدَةً عن بلْدة «ضَيّ الفَنَار» دون أن يَشْعُر بها أبنَاءُ هَذه البلدَة، أبحرتْ وعليها اثنَان من أبنَائها مختَطَفَين، وحتى اختفَتْ السفينَة في الأفق لم يكنْ أحدٌ يدري ما حدَث.

وأفَاق كلٌّ منْ «حكيم» و«دهب» من الإغمَاء وهمَا على سَطْح السفينة نتيجةً لبرودَة ماء البحر الذي أُلقي علَيهما من دلْو حملَه أحدُ القراصنَة. أستَيقَظَ المختَطفَان من رَقْدَتهما وهُما في شدّة الفزَع والرعْب، والماءُ يتسَاقطُ منهما. فوجَدا أنهما محاطَان بمجمُوعة من القراصنة من نَوعية الثلاثة الذينَ قامُوا باختطافهما، ويقفُ في وسَطهم رئيسُهم الملقبُ بـ «النّسر» وهو أضخمُهم بدنًا، وأعلاهم صوتًا، وأشْرسُهم فعلا، وصَرخ فيهما «النّسر» بصوْتٍ غليظ أجشّ قَائلا:

– لم نأتِ بكُما هنا لتنَاما، قُوما لتعمَلا على ظَهْر السفينة، وإلا لن تَذُوقا طعَامًا أو رَاحةً.

وَكَانت صَرَخاتُه هذه كفيلةً لِبثّ مَزيدٍ من الفَزَع والرعْب في قلبَيْهما، عَلاوةً علَى ضَخَامةِ بَدَنِه، وكثَافةِ شعْر رأسِه ولحيَته وجسْمِه، والعصَابةِ السودَاءِ التي تغَطِّي عَينَه اليُمنى. فهوَ فعلا جَديرٌ بأن يكونَ كبيرَ القراصنة وزعيمَهم.

وتماسَك «حكيم» وتقدَّم خُطوةً ناحيةَ «النّسر» وسأَله وهُو يرتعِدُ من الخَوْف والبرْدِ مَعًا:

– سَيّدي القُرصان.. قُل ما يجبُ أن نعمَلَه، وسوفَ نُنفّذُ أوَامرَك فَورًا.

وبالصّوت نفسِه الغليظِ الأجشّ المرعِب صاحَ النّسر:

– عَليكُما بنظَافةِ أماكِنِ النَّوْم في بَاطن السَّفينة، ثم الذَّهابُ إلى مَكَان طَهْي الطَّعام لمسَاعدةِ الطَّاهي في إعدَاد الطَّعَام، ثم بَعد ذلك عليْكُما بنظَافَة سَطْح السَّفينة.

ردَّ حكيمٌ وهو لا زَال يرتعِدُ من الخوفِ والبرْدِ ومن منظَرِ النّسر المرعِب:

– سمْعًا وطاعةً يا سَيدي القُرصَان.

أمَّا «دهب» فلمْ يجدْ إلا البكَاءَ، وهو يرتَعِدُ من الفَزَع والخوْفِ والبرْدِ، ولا يدْرِي هل هو حقيقَة في سَفِينة القراصِنَة؛ أم في كابُوسٍ تَملّكَهُ وهو نَائِم.

فصَاحَ فيه «النّسر» كَبيرُ القراصِنَةِ قَائلا:

– إذا لَم تكُفّ عن البكَاءِ يا هذَا ألقيتُ بكَ في البحْرِ لتكُونَ وجْبةً شهيةً لأصدقَائِنَا الأسمَاكِ المتوحّشة.

لم نَأتِ هنَا بكُما لتنَامَا، قُومَا لتعمَلا على ظهْرِ السفِينَة

ورغْم الغُصَّة التي سكَنَتْ حلْقَ «دهب» وأَفقدتْه القدرةَ على الكلام، إلا أن رُعْبَه وفزَعهُ من صَرَخات «النّسر» أنطَقَه، فقَالَ بصوْتٍ ضعِيف ممزُوجٍ بالحشْرَجَة:

- سَمْعًا وطَاعةً سيدي القُرصَان، سأكُفّ عن البكَاء فورًا..

واتّجه الأسيرَان الصغيران إلى باطِن السفِينة لِيقُومَا بتنظِيف أماكِن نَوْم القَرَاصِنَة وبَذَلَ «حكيم» كلَّ جَهْدِه في عَمليّة التنْظِيف هذِه، أمّا «دهب» لم يفْعَل شَيئًا، حيثُ إنّه لم يتعوَّد طِيلَة حياته على أيِّ عَمل وأشفَقَ «حكيم» علَيه فقَال لَه:

- سَيدي دهب، اجلِسْ أَنت هنا، وسأقُومُ أَنَا بكلِّ العَمَل.

- شُكرًا لكَ يا حكيم.

وتذكَّر «دهب» أمَّه «لؤلؤة»، وأبَاه «سندس»، وأختَه «زينة»، وحَيَاةَ القُصُور المرفَّهة التي كَان يَحيَاها، وقَارَنَها بما هُو فيه الآن، فزَادتْه هذه المقارنةُ ألمًا وبكاءً، وبينَما هُو جالِسٌ على هَذه الحالة، إذَا به يصرُخُ صرْخَةً عالية، ويقُوم من مكَانه في سُرْعَةٍ مذهلَة، لأنه لَمح فأرًا كَبيرًا يقفزُ على سَاقه ثم اختَفَى في لحظةٍ، وقَالَ «دهب» صارِخًا:

- فأرٌ كبيرٌ يا حكيم.. فأرٌ مرَّ على سَاقِي ثم اخْتَفَى.

فأخَذَ «حكيم» يُهدِّئ من رَوْع «دهب» ويَواسِيه في مُحَاولَةٍ لتقْوية رُوحه المعنويّة قَائلا:

- سَيِّدي «دهب» إنَّنا الآن أسيران في سفينة القَرَاصنة، وسوْفَ تواجهُنا صعُوباتٌ ومواقفُ حَرِجةٌ كَثيرةٌ، فعلَيْنَا أن نُعِدّ أنفسَنَا لمواجَهة هَذه الصعُوبَات وتلكَ المواقفِ بالشجَاعَة والصبْر والدُّعاء لله - عزَّ وجل - أن يُلْهمَنا القوةَ لنتحمَّلَ ما نحنُ فيه.

فَردَّ «دهب» وفرائصُه ترتَعِد خَوْفًا وفزعًا:

- ولكنّي يا حكِيم لم أتعَوَّدْ علَى كلِّ هَذَا، فَمَا نَحنُ فيه فوقَ طَاقَةِ احتِمَالي.

- يا سَيدي.. أنتَ لم تتعرَّف بعد علَى طاقَةِ احتِمَالِك، وقد يكُونُ فِي هذه المَوَاقِفِ القاسيةِ التي نمرّ بها تَقويةٌ لطاقَةِ احتمَالِنا، وتذكّر دائمًا الحِكمَة التي تقول: «ما لا يقتُلُك يُقَوِّيك».

- لا أَفهمُ ما تَقُولُ يا حَكِيم.

- سَيّدي «دهب».. إذَا أردْنَا أن نَصنَع من الحديد أشْيَاء نَافِعةً، فماذا نَفعَلُ؟

- لا أعْرِفُ..

- إنَّنا نَصْهَرُه في نَارٍ حَامية تجعلُه لَيِّنًا، نَستطيعُ تشْكِيلَه وعملَ ما نُريد، وبالمثلِ فإنّ نار القسْوةِ التي نحْنُ فيهَا الآن، تُقوِّي عزَائِمنَا، وتعزِّزُ إرَادَتنا، وتَزيدُ من احتمَالِنا، وتَشُدُّ من أزْرِنَا. ومن هُنا ينشَأ الرجَال الأشدَّاء، ذَوو الهمَم العالية، والعزْمِ الشَّديد.

ونظَر «دهب» إلى «حكيم» نظْرةَ التلميذِ إلى أُستَاذِه، نظرةً تَدلُّ على أنه لَم يفْهَمْ بعْدُ ما سمِعَه. وسمعَ الاثنان وَقْعَ أقدام تقتَرب، فقَامَا بسُرعةٍ لإنجاز مُهمة التنْظِيف.

وبعد أن تَم تنظيفُ مكَان نوْمِ القَراصِنة، اتّجَهَا إلى مَكَان طَهْي الطَّعام لمسَاعَدَة الطَّاهِي في إعدَاد طعَام القراصنة، فوجَدَاه ضَخْمَ الجثّة شبهَ عَاري الجسَد، ويتميَّز بكَرش ضَخْم، أمّا الطعامُ الذي يُعَدّ في قِدْرٍ كَبيرة فعبَارَةٌ عن أنواعٍ مختلفَةٍ من الأسْماكِ والأعشابِ البحرية، وكادَ الأسيران يتقَيَّآن من مَنظرِ الطعَامِ ورَائِحته، وقَرَّرَا مُقَاطَعَته.

وقد كلفَهُما الطَّاهِي ببعضِ الأعْمَال أتمَّاهَا عَلى خَيْرِ وَجْه، ثم اتَّجَهَا إلى سَطْحِ السَّفينَة فقَامَا بتنظيفه بماء البحْرِ باستخدَامِ دَلو مربُوطٍ بحَبْلٍ طَويل، وعنْدَمَا انتهيَا من عملِهما جلَسَا على أرضيّة السَّفينة وقد أنهكَهُمَا التعَبُ البَدَنيّ والنَّفْسِي، أمّا الجوعُ فقدْ أخذَ منهُما مَا أَخَذَ، وعندَمَا بَدَأ القراصنَةُ في تنَاوُلِ الطعَام، لم يجِدَا بُدّا من مشارَكتِهم تَنَاوُلَ هذَا الطعامِ لأنّه ليسَ هنَاك بديلٌ آخَر.

وسَارت السَّفينةُ في البحْرِ أيامًا ولَيَالِي، والحالُ علَى ما هُو علَيه، حيثُ يَقُومُ «حكيم» و«دهب» بأعْباءِ النَّظَافَةِ ومُسَاعَدَةِ الطَّاهِي. والقَراصنَةُ كما هم، بالخشونة نفسِها، والغلْظَة في المعَاملَة، وخاصّةً كَبيرَهم «النّسر».

أمّا في بلدة «ضَيّ الفنار»، فقَدْ هزَّ الحادثُ أهلَ البلْدة جَميعًا. فعندَمَا تأَخَّر موْعِدُ عَودة «حكيم» و«دهب»، بدأَ البحثُ عَنهما في كلّ أنحَاء البلْدَةِ وخَاصَّة لَدَى قَصْر «سندس» دُونَ جَدوَى.

وعندمَا ذهبَ البعضُ ناحيةَ الشاطئِ في المكَان الذي اعتَادَا صيدَ السمَكِ فيه كَانت المفاجأةُ مذهلةً. فالكلبُ «دندو» ممدّدٌ على الرِّمَال وهو مُصَابٌ بجُرح في رأسِه وقَد نَزَفَ دَمًا كثيرًا، ولا يَستَطيعُ الحراكَ ولكنّه ما زَال حَيّا.. وهُناك آثَارٌ لعدةِ أقدام مُتَّجهةً من مكَان الحادث إلى نَاحيةِ البحْر. وبعْدَ عدّة مشَاورَاتٍ بين أهْلِ الخبْرة أيقَنَ الجميعُ أنّ الصبيّين «حكيم» و«دهب» تعرّضا لعمليةِ اختطَافٍ من قراصنَة البحر.

وعلَى الفوْر جَمَع «سندس» مَجموعةً من الرجَال والبحَّارة القادرين على القتَال ومُحَارَبَة القَراصنة وأرسَلَهُم على ظَهْرِ سفينةٍ تَجوبُ البحَارَ بَحْثًا عن المختَطَفين، ولكن دُونَ جدوَى.

ووقَع الخبرُ على الأمِّ «سارة» وقْعَ الصاعقَة، فهَا هِي تفقِدُ أكبرَ أبنائها وقُرَّةَ عَينها «حكيم»، بعدَمَا فقَدَت قبلَه زوْجَها «عامر». ورغْمَ الصَّدمة المفْجعَة حَاولَت المسْكينة أن تتمَاسَكَ، لكنّ الحزنَ الشديدَ على وَلَدها جَعَلها في حَالَةِ ذُهُول، وكأنها في كابُوس مُخيف، فرفَضَت فكْرَةَ أنها فقَدَت ابنَها نهائيًا، وأخذتْ تُتَمْتِم دائمًا: بأنه عَائد، وكانت دَائمَةَ الذَّهَاب إلى المكَان الذي اختُطف منه على الشَّاطئ، وتجلسُ على الصّخرة الكبيرة تنظُر إلى أفق البَحر البَعيد لعلّها تراهُ عَائدًا.

وسادَت الأحزَانُ قَصر «سندس»، واختَفَتْ البسمَةُ من الجميع بسَبَب رَحيل الابن «دهب»، وذَبُلَت الأم «لؤلؤة» من شدّة حُزنها على ابنها، وشَحبَت الطفلةُ الجميلَةُ «زينة» من كَثرة حُزنها على أخيها. أما «سندس» فقَدْ أهمَل أعمالَه وتجارَتَه وأصبَحَ شاردَ الذّهن، مهزُوزَ الفكر غيرَ مصدّقٍ أنه فَقَد ولَدَه الوَحيدَ.

واتَّشحت البلْدةُ كُلُّها بالسوَاد حِدادًا على فقْد ابنَيْن من أبنَائِها هُما «حكيم» و«دهب».

وبمُرورِ الوقْتِ وتوَالِي الأيّام واللَّيالي تضَاءَل الأمَلُ في عوْدَة المختَطَفين إلى أهْلِيهما وحاولَ المعلِّم «نور» - الذي حَزِنَ حزنًا شديدًا على فقْد حكيم - أن يُقدِّم كل ما يستَطيعُ مِن مُعاونَةٍ للأسرةِ المنكُوبَةِ رغْم قِلَّةِ إمكَانَاتِه.

وعلَى جَانب آخر؛ حاوَل تَاجرٌ معرُوف في البلْدةِ يُدعَى «زَوْبَعَة» أن يُقَدِّمَ مسَاعَدَاتٍ مَالية إلى الأرْملةِ الحزينة «سارة»، لكنها رفَضَت كلَّ هَذِه المساعدات رغْم احتيَاجِها الشديد، لأنها تعرِفُ ما وَرَاءَ هذِه المساعَدَات التي يُقدِّمها هَذَا التاجرُ الذي يقتَربُ عمرُه من الستِّين عامًا، ومتزوِّجٌ من زوْجَتَين، ولَدَيه من البنين والبنَات الكثيرُ، إلا أنه ومنذُ زمَن بعيد عندمَا كانت «سارة» أجمل فَتَيَات البلدة وقَبْل أن تَتَزوّج «عامر» وهُو يُحاول أن يتزوَّجَها رغم فَارق السِّن الكبير بَينَهما. وهَا هِي الفُرصةُ قد سَنَحَت لَه مرةً أُخرَى وبعْدَ كل هَذِه السِّنين ليقتربَ منها، ويتودَّد إليها تحتَ سِتَار مسَاعدَتِها للتغلّب على قسْوة الحياة التي تَعِيشُها هِي وأولادُها الثلاثَة «سما» و«ندا» و«باسل» بعد فقدها لـ «حكيم».

ورَغم محاولاتِ «زوبعة» المتكرِّرة للاقترابِ من «سارة»، إلا أنَّ هذِه الأرملَةَ الثكْلَى الحزينَةَ - التي لا تَجدُ أحيانًا قُوتَ يومِها - صدَّته ولم تَقبَلْ مساعدَاتِه ولا عُروضه المختلِفَة، لأنها رأتْ أن فِعلَه ذلك مَا هُو إلا وسيلةٌ ليظفَرَ بها وينَالَ منْها، حيثُ إنها - رغم كلّ الأحدَاث - لا زالَت أجملَ نِساء البلدَةِ على الإطْلاق.

أما «دندو» فمعَ مُرور الأيّام تماثَل للشِّفاء، وعَادت إليه قُوتُه بعد أن كَادَ يفقِدُ حياتَه في الحادث الأليم، وظلّ علَى عهدِه مع صَاحبِه - الذي لا ينْسَاه أبدًا - «حكيم»؛ ولذَا فَهو يوميًا يذهَبُ إلى الشَّاطئ، ويجلِسُ بالقرب من

الصَّخرة الكبيرة، وهوَ المكَان الذي شاهَد فيه صاحبَه لآخرِ مَرَّة، وبعد فترةٍ من الوقتِ ينظُر فيها ناحيةَ أُفُقِ البحْر البعيد يحدُوه الأملُ في عوْدَة الغائب العزيز، الذي لا يَعودُ، فيرجعُ «دندو» إلى مكَانه وهُو منكسرُ الخَاطر.

وفي صَبَاح أحَدِ الأيّام صَاحَ قرصَانٌ يعتَلِي أَعلى مكَانٍ في سَارية السَّفينة وهُو يراقِبُ ما حولَه من ميَاه البحْرِ بواسِطَة مِنظارٍ مُقرِّب «تليسكوب»، صاحَ صارِخًا:

- استعِدّوا .. استعِدّوا .. سفِينَةٌ تِجَارِيةٌ تبعُد عنّا حَوَالي سبعة أميال في اتجاهِ الشّمال الشرقي .. استعِدّوا .. استعِدّوا ..

وعلَى الفورِ صَعَد كَبيرُ القراصِنة (النّسر) إلى سَطْح السفِينة، ونَظَر بمنظَارِه المُقرِّب الخاصّ به في الاتّجاه الذي أشَارَ إليه القُرصَانُ المراقِبُ فرأَى السفِينةَ التجارِيَّةَ، فابتَسَمَ وهو ينظُر إلَى هذَا الصيْد الثَّمِين، وتمتَم بيْنَه وبينَ نفسِه:

- إذن هذِه هيَ فَريسَتُنا اليوم ..

ثم صَاح بصوْته الغليظِ الأجَشّ:

- الكلّ يستَعِدّ للقِتَال.

دنُدو يجلِسُ حزيناً وينتظر عودة صديقه حكيم

وفي لَحَظات صَارت سفينةُ القراصنَة مثلَ خليَّة النَّحل، فالكُلّ يجْري هُنا وهُناك، وهَذَا يصيحُ، وذَاكَ يرتَدي دِرْع القِتال، والكُلّ يستَعِد بحَمْل الأسْلحة، سوَاءً كانت أسلحةً نَاريّة (بنادِق - مسدَّسات)، أم كانت أسلِحةً بيضَاء (سيُوف - خناجر).

وفَزِع كلٌّ من «حكيم» و«دهب» مِمّا يحدُثُ حولَهما، واستَفْسَر «حكيم» من أَحَدِ القَرَاصنَة عَمّا يَحدُث، فَقَالَ له ضاحِكًا وهو يشيرُ إلى السَّفينة التجارية.

- أترَى هذِه السَّفِينة.

ونظر حكِيم إلى الجِهة التِي أشَارَ إليها القُرصَانُ فوجَدَ علَى بُعْدٍ سفِينَةً، فقَال:

- نَعم أرَاها ..

- هَذَا هُو الصيدُ الثمِينُ الذي نَجوبُ من أجلِه البِحَار.

- وماذَا ستفْعَلُون؟

وفي بسَاطة ويُسر أجَابَ القرْصَان ضَاحِكًا:

- سنقتُل أصْحَابَها، ونستَوْلِي على بضَائِعِهم وممتلَكَاتِهم.

قالَها وأخَذَ بندقيّتَه وأسرَع ليأخُذَ مكانَه القتَالِيّ.

وَأيقَنَ كُلٌّ من «حكِيم» و«دهب» أنَّهما يُقبلان على مَعْرَكَة ضَرُوس، لا يعلَمُ سِوى اللّه تعالى مَنْ سيُقتَل فيها؟ ومن ستُكتَب لهُ النَّجاة، فأسْرَعا إلى باطِن السفِينة ليكُونا في أمَان إلَى حدٍّ ما، ومنْ خلال نافذةٍ صغِيرة تَابَعَا اقتِرَاب سفِينَتهم من السَّفِينة التِّجارية، واستعدًّا لمشَاهَدة أحْدَاث هذِه المعركة الرَّهِيبة.

وأصدَرَ القرصَان «النّسر» أوَامِرَه بأن تَتّجه سفِينَتُهم بأقْصَى سُرعة نَاحِيةَ السَّفِينةِ التِّجَارية (الفَرِيسَة).

وأدرَك قُبطانُ السَّفينة التجارية أنّ سفينَةَ القَراصنَةِ مُتَّجهةٌ إليهم في سُرعةٍ واضحَةٍ، فأصدرَ أوامرَه إلَى بحّارَته بزيَادة سُرْعَةِ سفينَتهم إلَى أقْصَى حدٍّ ممكِن للهرَب من القَرَاصنَةِ.

ولكنّ سَفينةَ القراصنةِ كانتْ أَسرعَ ولَحقَتْ بالسَّفينة الفريسة. ومَا إنْ اقتربت السفينَتَان حتَّى فَتَحَ القراصنَةُ النِّيرانَ وأمطرُوا السفينةَ التجاريّة بوَابل من طَلَقَاتِ البَنَادِق، وارتفَعَ صَوتُ الطلقَات حتَّى أن «دهب» لم يستَطع تحمّل هذه الأصْوَاتِ العنيفَة فوَضَعَ يَدَيْه على أذنَيه وجلَس على أرضيّة باطن السَّفينة وأخذَ يَبْكي، في حين أن «حكيم» يتابعُ المعركَةَ من النَّافذَة الصغيرة في حَذرٍ وترقُّب.

وتمّ قَتْلُ بعض بحّارة السفينة التجَارية، وتظَاهَر بعضُ البحَّارة بالاسْتسْلام، ورفَعُوا الأعْلامَ البيضَاء، فأمَرَ كبيرُ القراصنة «النّسر» بوقْف إطْلاق النار، واعتبَرَ أنّه كَسَب المعركَة تمامًا دُون أية خسائر تُذْكَر، وما إن اقترَبَتْ سفينَةُ القَرَاصنَةِ من فريسَتها وكادَت تلامسُها؛ حتى ظَهَر عَددٌ من بحَّارة السَّفينة التجارية بشكْل مُفاجئ ومعهُم بنادقُهم وأمطَروا القَراصنَة بوَابل مُكثّف من الطَّلَقَاتِ النَّارية علَى غير المتوقَّع، فَسَقَطَ عددٌ من القَراصنَة بينَ قَتيل وجَريح.

وجُنّ جُنونُ القَراصنة من هَذه الخُدْعة التي كلَّفَتْهُم الكثيرَ، فأخذُوا يطلقُونَ الرصَاص بكثَافَة منقطعة النظير، مما أدّى إلى سقُوط معظم بحارة السَّفينة التجارية قتْلى وجَرْحى.

وسقَطَت بعضُ الرَّصَاصات الطائشة بجوار النافذَة الصغيرة التي يُتَابعُ منها «حكيم» هذه المعركةَ الخطيرةَ، فأصابَهُ الخوفُ وجَلسَ بجوار «دهب» على أرضيّة باطن السَّفينة يواسيه ويشجّعه، وأيضًا يُشجّع نفسَه بقوْله:

- إن شَاء اللَّهَ لن نُصابَ بأذًى، كُفّ عن البُكاءِ يا سَيدي دهب وادْعُ الله - عزَّ وجل - أن يَحميَنَا ويُنقِذَنا مما نحنُ فيه.

وكسَب القراصِنَةُ المعركةَ بعد قِتَال دَام، وقتَلوا كَافّة بحَّارة السَّفِينة التجارية بمَا فيهم قُبطانُهم، واستولُوا على بضَّائعها ومُمتلَكات البحَّارة، ثم أشعَلُوا فيها النِّيرَانَ. وابتعَدوا عنها بعدَ أن أصبحَتْ كتلةً هائلةً من النيرانِ تطفُو فوقَ سَطْح البحْر.

وعندمَا تم حصْرِ خسَائِر القَرَاصِنة كانَت النتيجةُ: ثلاثَةَ قتلى وسبعةَ جرحى. أما القَتْلى فتَمَّ إلقاؤهم في البحر حَسْب قانونِهم، وأما الجرْحَى فبدأوا في عِلاجهم. وفي المسَاء احتَفَل القراصِنَةُ على طريقتهم بالغنيمة التي فَازوا بها من السَّفِينة التجارية التي احترقَت تمامًا وغَرَقَت في قَاعِ البحْر.

●●●

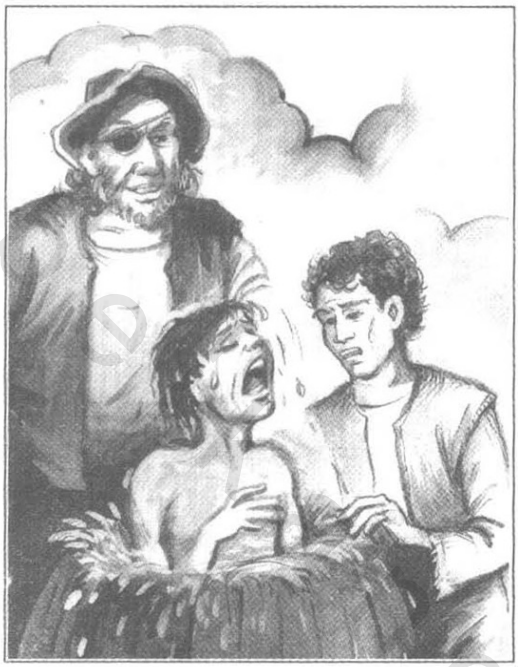

الجزيرة المتحركة

لم يستَطعْ «دهب» تحمُّلَ كُلِّ هذَا الخوفِ والرعْبِ الذِي أصَابه من المعْرَكةِ الدَّامِية والتِي انتهتْ بمأسَاةٍ مُروِّعة. كما لم يستطعْ تحملَ مشقَّةِ الحياةِ على هذهِ السَّفِينة اللعِينة، فمرِضَ وأصابتْه الحمَّى، وارتفَعَتْ درَجةُ حرارةِ جسْمِه ممّا شكَّل خُطورَةً على حَياتِه، وجعلَتْه في حَالةِ هَذَيان مستمِرٍّ، وهو دائِمُ التحدُّث في غيبُوبَتِهِ تارةً مع أمِّه، وتارةً أخرى معَ أبيه وأختِه «زينة»، وأيضًا وهوَ ينَادِي علَى «مرجان»، ويأمرُ «فرحة» في أن تلَبِّي بعضَ حاجَاتِه.

وكَانَ علَى «حكيم» - والأمـرُ كـذلك - أن يقُـومَ بـأَدَاءِ واجبَـاتِ النظَافَـةِ ومسَاعدةِ الطَّاهِي بمفرَدِه، عَلاوةً على رِعايةِ «دهب» في مَرَضِه حيثُ كَانَ يضَعُ

بصُورَة مستمِرَّةٍ قِطَعَ قُماشٍ مُبلَّلة بالماء على جَبْهته لخفْضِ دَرجةِ حَرارَةِ جسْمه إلى حدٍّ ما.

ولكنَّ الحمَّى ظلَّت على أَشُدِّها، وظَلَّ الهذَيان علَى حَاله، وطالَت فتَرَاتُ الغيبُوبَة، وزادَ على ذَلك إصَابتُه برعْشَةٍ قَوِيَّة تنْتَابُ كلَّ جسَدِه رغم تغطِيَتِه بعِدَّة أغطِية.

وبعدمَا استفْحَل الأمرُ، وأصبَحَت حياةُ «دهب» في خَطَرٍ، تشَجَّع «حكِيم» واتَّجه ناحِية كَبِير القراصِنة «النّسر» وقالَ لَه:

- سَيِّدي النّسر؟

وبصوْته الأجشّ الغليظِ وبنظْرةٍ حادّة من عيْنه اليسْرَى الوحِيدة صَاح:

- ماذَا تُريد؟

- سَيدي.. صديقِي دهب يعَانِي من الحمَّى الشدِيدَة، وقد تَقْضِي علَيه.

- وماذَا أفعلُ؟ إذا قضَت عليْه الحمى بالموتِ نلْقِيه في البحْرِ ونرتَاحُ من هذَيَانه.

- ولكن يا سَيدي أنَا أعرِفُ طريقَةً يمكِن بها خفْضِ دَرجةِ حَرارَتِه.

- وما هَذِه الطريقَة؟

- ستَراها يا سَيِّدي بنفْسِك، ولكن أودّ أن تأمرَ أحدَ القراصِنَة بإحضَارِ برميلٍ خشَبِي كَبِير، ويملأَه بماءِ البحْر البَارِد.

وفِي دهْشَة وتعجُّب وفُضُول نظَر النّسر إلَى الصَّبي «حكيم» قلِيلا، وهُو يفكِّر، ثم نَادَى علَى أَحَدِ القَرَاصِنة لينفِّذ مَا أرادَه «حكيم».

وسَاعَد «حكِيم» صديقَه «دهب» في النُّهوض من رقدته وهُو مَا زَال ينتفِضُ بشدّة، وكُلّ جسمِه يرتَعِش، وأسنَانُه تَصْتَكُّ ببعْضِها بعْضًا. وسَانَدَهُ آخذًا

إياه إلَى سَطْح السفينة حتى وصَلا إلى برْميل مياهِ البحْر الباردَة، كلُّ هذَا وكبيرُ القراصنَةِ مَع بَعْضٍ من أتبَاعِه يراقبُونَ الموقفِ في فُضُول.

وهمسَ «حكيم» في أُذن «دهب» قَائلا:

- عذرًا سَيدي «دهب»ن ستُواجهُ الآن مَوقفًا في غَايةِ الصُّعوبَة، ولكنَّه ضَروريّ للتخلّص من هذهِ الحمَّى اللعِينة.

ولم يفْـهمْ «دهب» مـاذَا يعْني «حكِيم» من هـذهِ الكلمَـات، ولـم يفكِّرْ في معنَاها، لأنَّ مرضَه الشديدَ وضعْفَه عطّل تفكيرَه وأوقَفَه. وإذَا بـ «حكيم» ينزعُ مـلابس «دهب» وأشَارَ إلى أحدِ القـراصنة أن يُسَاعدَه في حَمْلِ المريض، ففعَل، وإذَا بهمَا يضعَانه داخِل البـرميل المليء بماءِ البحْر البَارد، فَغَاص جسَدُه كلُّه في المَاء مـا عدَا رأسَه فأخذَ المسْكينُ يصرُخ ألمًا، وزادَتْ رعشَتُه بشكْل لافتٍ للنظرِ، ولم يكتَفِ «حكيم» بذلك؛ بلْ أخـذَ يُلقي بالماءِ البَـارِدِ على رأسـه عـدةَ مـرات، و«دهب» يتأوَّه وينتفِضُ من بُرودةِ الماءِ، ويصرُخ باكيًا صائحًا:

- كفَى .. حَرامٌ عليكم .. كَفَى يا حكيم .. أكَادُ أمُوت..

وانتهَى العلاجُ شديدُ البرودة، وأُخرِجَ المريضُ من بَرميل الماءِ البارِد، وتَمَّ تجفِيفُ جسمِـه، وارتداءُ مـلابسـه، ولفّـه بغطَاءٍ ثقيلٍ، وتم تمديدُه على سَطح السَّفينة.

ومـا هِيَ سوَى دَقَـائِق معدُودَةٍ حتى انخفَضَت درَجةُ حَرارة جسْمِـه بشكْلٍ ملحُوظ، وانتهتْ الرعشَـةُ اللعِينة، وانتهى الهذَيَانُ، وزالت الحمَّى، ورَاح في نَومٍ عمِيق.

ورأَى القرصَانُ «النّسر» وأعوانُه هذهِ الطريقَةَ العجِيبةَ التي قَام بها هذَا الصبيُّ الذكيُّ في عـلاجِ صـاحِبـه، فـتقـدَّم النّسـر وقَـال لحكيمٍ بعـد تأكُّـدِه من تحسُّنِ حَالةِ المرِيض:

- كفَى .. حَرامٌ عليكم .. كَفَى يا حكيم .. أكَادُ أمُوت..

- كيفَ تعلَّمت هذا؟

- تَعلَّمتُه من أبي «عامر» البحّار - رحمَه الله - عندَما كانَت تَحدُث حُمَّى لشَخْص مَا وَهُم فِي البحْرِ ولا يُوجَدُ طَبيب.

وأُعجِبَ «النّسر» بهذَا الفَتَى الصغِير الذكيّ، المتميّز بالصبْر والاحتِمَال والتفكِير البَارع، وفكّر بينَه وبينَ نفسِه أن يُبقِي على «حكيم» ولا يَبيعَه في سُوق العبيد، لعلَّه يكُون فِي المستقبلِ ذَرَاعه الأيمَن ووليّ عهْدِه في زعَامَةِ القَراصِنَة.

ورَاقب «حكيم» حالَة «دهب» الصحِّية فوجَدَها في تَحسُّن، وأنَّ ما قَام به قَد أتَى بثمَرته المرجُوّة. وبعد أن أفاق «دهب» قالَ بصوْتٍ وَاهِن:

- صَدِيقي حكيم؟

- نعَم يا سَيدي دهب.

- لا تُتعبْ نفْسَك مَعِي يا صَدِيقي فأنَا مُشْرِفٌ على الموْتِ.

وفي مُحاولةٍ لرفْعِ القوَّة المعنويَّة لدَيْه قَالَ «حكيم»:

- لا عَلَيكَ سيدي.. الحمَّى بدأَتْ تَزُول، وبإذْن اللَّه تعالى ستَعُود إلَيْك صحَّتُك وستكُون في أحْسَن الأحْوال.

- لا أظُنّ ذَلك يا صدِيقي، لقد أدركْتُ الآن، أنَّ مَا حَدَث لي هُو عقَابٌ أنزَلَه اللَّهُ عليّ بسبَب كل أفعَالي الخبِيثَة التي كُنتُ أقُوم بها، كمْ أنا نادِمٌ على فِعْلها.. صدِّقني يا حكيم إنَّنِي أبحثُ عن عَمَلٍ صَالِحٍ واحدٍ قُمتُ به في حَيَاتِي، فَلا أجِد.

- ما دمْتَ قد ندِمتَ علَى كُلّ أفعَالِك السَّابقة، وتُبتَ بإخلاص إلَى اللَّه، فَإنّه - سُبحَانه وتعالَى - سيغْفِرُ لكَ جميعَ ذنُوبِك، إنه هوَ الغفُورُ الرحيمُ.

- ما أَطيبَ نفْسَك يا حَكيم، إنني أشعُر بتضَاؤُلِ نفْسِي عندَمَا أقارِنُها بنفْسِك العَالِية، فلولاك لهلكْتُ.

تَمتم «دهب» بهذِه الكلمَاتِ ثُمَّ رَاح مرَّةً أُخرى في نَومٍ عَمِيق.

وفي صبَاح اليومِ التَّالي ظَهَرَتْ مِنْ عَلَى بُعد جَزيرَةٌ، وصَاحَ القرصَانُ الذِي يعلُو سارِية السفِينة، وهو يُرَاقب ما حولَها ممسكًا بمنظَارِه المقرّب:

- الجزِيرَةُ المتحركةُ.. هَا هي الجزِيرَة المتحرِّكة قد ظَهَرَتْ في الأُفُق.

وذَهَبَ أحدُ القراصِنَةِ يُخْبِرُ رَئِيسَه بهذَا النَّبأ فقَالَ له:

- سَيدي «النّسر» .. ظَهَرت في الأفُق الجزيرَةُ المتحركة. فهل نَرسُو علَيها أم نتركُها ونرسُو علَى الجزيرة التَّالية؟

فصَاح النّسر بِصوْتِه الأجشّ الغَلِيظ:

- نَرسُو علَيها لِيَوم وَاحد فقَط لنتَزَوَّدَ منْها بالماءِ العذْبِ وبعضِ الثِّمار، ثُمَّ نُغَادِرُها قبل أن تُفاجِئَنا هذِه الجزيرةُ الملعونةُ بأخطَارِها.

واتجهَت السفِينةُ ناحيةَ الجزيرةِ المتحركَةِ. وسَأل «حكيم» أحَدَ القَراصِنَة عَن هذِه الجزِيرَة، وعن سِرِّ اسمِها، وهلْ هِي متحركةٌ بالفِعْل؟

فأخبَرَهُ القرصَانُ بأن هَذه الجزِيرةَ قد سُمِّيت بهذَا الاسْم بسَبب كَثرةِ الزلازِل التي تضْربها، فأرضُها دَائِمًا في اهتزَازٍ من شِدة هَذِه الزلازل؛ لذَا سُمِّيت بـ «الجَزِيرَة المتحركة».

وَرَسَت السَّفِينَةُ بالقُربِ من الجزِيرة. واستقَلَّ القَراصِنَةُ قوَارِبَهم وتوجَّهوا ناحِيةَ أرضِ الجزيرَة ومعهُم «حكيم» و«دهب» الذِي تحسَّنت صحتُه بشكلٍ ملحوظٍ، وإن كان ما زَالَ في فترةِ النَّقَاهَة.

وأصْدَرَ القرصَانُ «النّسر» أوَامِرَه بملء البَرَامِيل الخشَبيَّة التِي معَهم بالماء العذْب من جَداول الجزِيرَة، كذلك ملء الأجْولَة التي معَهم بثِمَار الجزِيرَة المنوَّعة، وببعْضِ النباتَات التي تصلُح للأكل.

وما إن بدأ القراصنةُ - ومعهم حكيم - في تنفيذ أوامر «النسر» وقد تحركوا على أرض الجزيرة؛ حتى شعروا بهزة أرضية أصابت الجزيرة اهتزت على إثرها الأشجارُ فتساقطت بعضُ ثمارها هنا وهناك، كما تساقطت بعضُ الصخور من أعلى تلالها، وتملك الجميعَ الخوفُ وخاصةً «حكيم» و«دهب»، وحثَّ «النسر» الجميعَ على الحصول على الماء العذب والثمار كي يغادروا الجزيرةَ المتحركة في أسرع وقتٍ ممكن.

وبالفعل بدأ القراصنةُ في الحركة السريعة، وأمسك حكيم بجوال وبدأ يجمع فيه بعضَ الثمار التي سقطت من أشجارها، وخاصةً ثمارَ «جوز الهند»، وأخذ يتنقل من شجرةٍ إلى أخرى، ومن منطقةٍ إلى أخرى دون أن يدري أنه ابتعد عن مكان القراصنة وأصبح بمفرده.

وبينما هو منهمكٌ في جمع الثمار، إذ به يهوي في حفرة عميقة جدًا لم يشاهدْ فتحتها حيثُ كانت تلكَ الفتحةُ مغطاةً بأوراق وفروع الشجر. وصرخ «حكيم» صرخةً مدويةً وهو يهوي إلى قاع هذه الحفرة التي لا يقلّ عمقها عن عشرين ذراعًا، وتخبط جسمه عدةَ مرات بجدار الحفرة في أثناء سقوطه مما زادَ من آلامه حتى وصلَ لقاع الحفرة المظلم، فكانتْ الصدمةُ مروعةً أدتْ إلى فقدانه لحواسه، فغابَ عن الوعي تمامًا.

ولما تأخر «حكيم» عن العودة؛ أخذَ القراصنة في البحث عنه ولكن دون جدوى، وفهم «دهب» من حديث القراصنة أنَّ «حكيم» اختفى داخلَ الجزيرة المتحركة، فكانت مفاجأةً مذهلة ولم يصدقْ الخبرَ، فكيفَ يفقدُ صديقه ورَاعيه، إنه أمرٌ لم يكنْ يحسبُ حسابَه أبدًا فأخذَ يبكي في صمت.

وفي صباح اليوم التالي لم يظهرْ «حكيم»، وبحث عنه القراصنةُ مرةً أخرى، وأخذوا ينادون عليه في بعض مناطق الجزيرة، ولكنْ ما من مُجيب لهذه النداءات. وبينما هم منشغلون في بحثهم إذْ بزلزالٍ شديدٍ يضربُ الجزيرة،

فاهتزَّت الأرضُ بشدَّة تَحتَ الأقدَام، وسقطَت بعضُ الأشجَار، وتدحْرَجَت بعضُ الصخُور تاركةً تِلالها، وأصبحَ الأمْرُ حَرِجًا، والموقفُ مريكًا، فوجُودهم على هذهِ الجزيرَة يعرِّضُهم جَميعًا لخطَر الموت.

وهُنَا أصدرَ كَبيرُ القراصنَة «النّسر» قرارَه بمُغَادرة الجزيرة فَورًا، وإيقَاف محاوَلات البحْث عن «حَكيم»، وأوضَحَ أنَّ هَذَا الصَّبيَّ هالكٌ لا محَالَة في هذهِ الجزيرة الخطيرَة، إن لم يكُنْ قد هَلَك بالفعْل.

وبسُرعة حمَلَ القراصنةُ كلَّ ما حصَلُوا علَيه من مَاء عَذْب وَثمار إلى قَواربهم، وتحرَّكُوا في عَجَلة - ومعَهم دهب - حتَّى وصلُوا إلَى السَّفينة، وصعَدُوا إلَيها. وبَدأت السَّفينة في الابتعَاد عن هَذهِ الجزيرة المتحرِّكة المرْعبَة. وبكَى «دهب» بشدَّة من ألَم الفِراق وأخذَ يناجِي «حكيم» بينَه وبيْنَ نفسِه ودمُوعُه تتسَاقط:

- صَديقي حَكيم.. لا تَتركْني بمفْردِي مع هَؤُلاء القَراصنَة الوُحوش، أرجُوك عُدْ لي مرةً أخرى..

وغَابت الجزيرَةُ المتحرِّكَةُ عن أنظَار القراصنَة، و«دهب» ينظُر في اتجَاهِهَا أمَلا أن يَظْهَر «حكيم» مرةً أخرى والذِي كانَ فِي هذهِ اللحظَةِ ما زَال في حَالةِ إغماءَة شديدَة داخِلَ الحفْرةِ العميقَة المظلِمة.

●●●

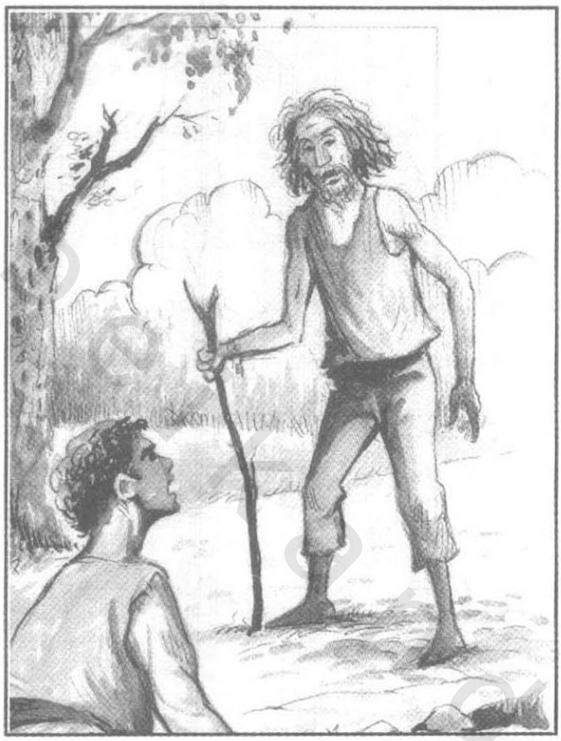

شمنجو

في عصْر اليوْم الذي رحَل فيه القراصنَة عن الجزيرة المتحرّكة؛ حدثَ زلزالٌ شديدٌ - كالعَادَة - اهتزَّت على إثْره الأرضُ اهتزازًا قويًا أدَّى إلى إفَاقة «حكيم» من غيبُوبَته التي استمرَّت يَومًا كاملا، ففتح عَينَيْه ثم أغلَقَها سَريعًا لتسَاقُطِ بعض الأتربَة علَيه من أعْلى حافة الحفْرة. وبعدَ برهةٍ من الزَّمَن فَتح عينَيْه مَرةً أخرى، وحاوَل أن يقومَ من رَقدتِه فلم يستَطعْ، فجلَس، فإذا به يشْعُر بآلام حادّة في كتِفَيْه وقدمَيْه، وعانَى من بعضِ الخدوش في جَنْبه الأيمن، ومثلِها في جَنْبه الأيْسر، وكذلِكَ في الظَّهر وذلك من أثَرِ السُّقوط المروّع داخِل هَذِه الحفرَة العميقة.

وتساءَل بينَه وبينَ نفْسه:

- أينَ أنا؟ هل أنَا في قَبْر وحانَ وقْتُ الموت؟

وتذكّر سقُوطَه العنيفَ في تلك الحفْرةِ اللَّعِينة. ونظَر إلى أعْلى فَبَدا ضَوْء النَّهار عند فتحةِ الحفْرة. فاستجمَع كلَّ قُواه ووقَف من جلسَته، ثم استَنَد على جدَار الحفْرة وأخَذَ يتحَسَّس جدرَانَها الدائرية، فأيقَن أنه لن يستَطيع تسلُّق هذَا الجدارِ لارتفَاعِه الكبير، ولأنّه عمُودي على الأرْض وان خُروجَه مما هوَ فيه لن يتمَّ إلا بمسَاعدة آخرين.

واستجمَعَ قُواهُ مرةً اخرى، واخذ ينَادِي بأعْلَى صَوْته على «دهب» تَارةً، وعَلَى القَرَاصِنَة وكبيرهم النّسر تَارةً أخرى، لكن كما يقُول المثل: «لا حيَاةَ لمنْ تُنَادِي»، وكرَّر محاولةَ النِّدَاء، لكن ضَاعت كلُّ المحاولاتِ سُدًى، فلا مُجيبَ.

وجلَس الفتى الصغيرُ على الأرضِ وقَد تَملَّكَه كَثيرٌ من الخوف واليأس من عَدم قُدرَته على النَّجاة والخُرُوج من هذِه الحفرة. وتأكَّد لَه أن القراصنَة قد رَحَلُوا بسفينَتِهم عَن الجزيرَة ومعهم «دهب» بعدَ أن يئسُوا من العثُور عَليه، وهل يخطُر ببَالِ أحدِهم أنه سقَط في هذِه الحفْرَةَ العَميقة؟ إذن لقدْ بَات وحيدًا في هذِه الجزيرَة المتحرّكة، بل في هذِه الحفرةِ اللعينة.

وتذكر في هذه اللحظات أمَّه وإخوتَه «سما» و«ندى» و«باسل» وتذكّر كلْبَه الوفيَّ «دندو» كما تذكّر معلّمَه «نور»، وشَعَر بحنين شَديد إلَيهم، وتساقطَت الدُّموعُ من عيْنَيه عندمَا تخيَّل أنه سَيمُوت في هَذِه الحفرة دُونَ أن يرَاهُم أو يُوَدِّعهم.

ومَرَّ على مُخَيِّلَتِه في هذِه اللحظَةِ موقِفُ النبيّ الكريم «يُوسف» عليه السَّلام عندمَا أُلْقَى به إخوتُه وهُو صغيرُ السّن فِي غَيَابَةِ الجُبِّ. وقارنَ بين موقِفه الآن، وموقِفِ النبيّ «يُوسف» عليه السَّلام، فوجَد أن الموقِفَين متشابهَين،

إلا أن الله سبحانَه وتعالَى قد أنْقَذَ نَبيَّه «يوسف» بأن أَرسَل من يُخرجه من هذَا الجُبِّ العميق.

وهنَا تضرَّع «حكيم» إلى ربِّه في تبتّل ودُعاءٍ من القَلْبِ وهو متيقِّنٌ من الإجَابة، وأَنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يَسمَعُه ويَرَاه وقَال:

- يَا ربَّاه .. يَا ربَّاه، يا منْ يُجيبُ المضطّر إذا دَعَاه، يا من لا إلهَ سِوَاه، أدعوكَ يا أرحمَ الراحمِين، ويا ربَّ المستضعَفِين أن تُنقِذَني مما أنَا فِيه كما أنقذْتَ نبيَّك يوسُفَ - عليه السَّلام - منْ غَيَابةِ الجُبِّ، وكما أنقذْتَ نبيَّك «يُونس» - عليه السَّلام - منْ بطْن الحوْت وهو يدعُوك «لا إلهَ إلا أنْتَ سبحَانك إني كُنتُ من الظَّالمين»، أدعُوكَ يا ربَّاه أن تنقِذَني من هذَا الموقِفِ الخطِير، فإنَّك علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير.

وكَرَّر «حكيم» هذَا الدُّعَاءَ مرات ثلاثَة رَافِعًا يَدَيْه ناحيةَ السَّماء. ومَا إن انتهَى مِن هَذَا الدعَاءِ حتَّى لمح كأن أحَدًا ينظُرُ إليه من أعْلَى عند حَافّة الحفرة ثم اختَفَى. فقَامَ الفتَى مستبشِرًا وصَاح:

- النجدَة.. النجدَة.. أما مِن أحَدٍ من القَرَاصِنَة يسمعُنِي؟ يا «دهب» ألا تسمعُني؟

ولكن لم يَردّ علَيه أحدٌ، فَتبدَّد الأملُ الذي لاح منذُ لحظَات، واقتَنع أن ما رَآه ما هُو إلا تهيؤَاتٌ تتمنّاها نفْسُه، وليسَ لها وُجُود في الحقِيقَة.

وجلَس على الأرضِ بَائسًا يائسًا، ورفَع عينيه مرةً أخرى إلى أَعلى فتكرَّر المشهدُ مرةً أخْرى ولمحَ أحدًا ينظرُ إليه من أعْلَى عند حَافة الحفرة ثم اختَفَى، فحمِدَ اللَّه أن ما رآه ليسَ تهيؤات نفسية، بل هِي حقيقةٌ واقعيَّةٌ، فأخذ ينَادِي بأعلَى صَوته:

- النجْدَة، النجْدَة، ألا مِن أحدٍ يسمعُنِي؟ ألا مِن أحدٍ ينقِذُني؟

وقطَع الشَّك باليقين، وأطَلّ علَيه رجُلٌ من حَافّة الحفرة، ولم يَرَ «حكيم» تَفَاصِيل وجهه، ولكن يَبدو من هَيئته أنه ليسَ منَ القراصِنة، وفي أمَلٍ وفَرح صَاحَ الفتَى:

- يا هَذَا.. يا هَذَا ألا تستطِيعُ أن تساعِدَني وتخرجَنِي من هَذِهِ الحفرة؟

وفي صَوْتٍ ضَعيف واهِن قالَ الرجُل:

- أنا رجُلٌ ضعِيفٌ خَائِر القُوّة، يصعُب عليّ رفعُك من هذِهِ الحفْرة العمِيقَة.

ففكّر حكيم قَليلاً وقالَ للرجل:

- أرجُوك اذهَب إلى أحَدِ القَراصِنة الذينَ جئتُ معهم إلى هَذِهِ الجزِيرة، واطلُب مساعدَتَه لإنقَاذِي.

وبالصَّوت الضعِيف الوَاهِن نفْسه أوضَحَ الرجُل:

- القَراصنةُ رحلُوا عنِ الجزِيرة هَذَا الصَّبَاح.

وأُسقِط في يَد «حكيم» من هَذَا الخبَر، لقد رَحَل القراصِنَة وأخَذُوا مَعهم «دهب» إذنْ لَن يراه مرَّةً أخرى، وفكّر الفتَى مَرَّةً أخْرى وصَاحَ:

- إذا كنتَ لا تَستَطِيعُ أن ترفعَنِي من دَاخل هذِهِ الحجرةِ. هلْ يمكِنُك إحضَارُ حبْلٍ طَوِيل؟

- نعم أستَطِيعُ صُنعَ حبلٍ طَوِيلٍ.

- إذن عندمَا تأتِي به قُم بربْطِ طَرفِهِ جَيدًا حَولَ جِزع إحدَى الأشْجَار القَرِيبة من الحفْرة، ثم ألقِ لِيَ بالحبل، وسأحَاوِل أنا استخدَامه في تَسَلُّقِ جَدَارَ الحُفْرة.

فقالَ صَاحبُ الصَّوتِ الوَاهن:

- أستَطيع أن أفعلَ ذَلك.. ولكن.. لِي شَرْط..

فَرد «حكيم» بسرعة:

- شَرْطُك مقبولٌ مُقدَّمًا.

- شَرطِي أن تُنفِّذَ لي طلبًا غاليًا أُنقِذُ به حَيَاتي.

- أُقْسِم لكَ باللَّه أنني سأنفِّذ كلَّ ما تقُوله إذَا كانَ علَى قَدْرِ استِطَاعَتي.

- إذن .. اللَّهُ علَى ما نقولُ شَهيد.

- نعم .. اللَّهُ علَى ما نقُولُ شَهيد.

وعلَى الفور غَاب الرجُل بعْضَ الوقْت، ثم أَتَى ومَعَه حبلٌ طَويل، لَفَّ طَرَفَه الأَولَ على جِذْع شَجَرة قَريبة من الحفْرَة، ثم ألْقَى لحكيم الطَرَفَ الآخَر.

واختَبَرَ «حكيم» قُوَّة ربْطِ الحبل بجِذْع الشَّجرة، وأطمأنَّ لَها، ثم بَدَأ يتسلَّق جدارَ الحفرة باستخدام هذَا الحبل، ولم يكُنْ هذَا التسلُّق بالأمْر الهيِّن بل كَانت فِيه مَشَقَّةٌ وكِفَاحٌ، ففِي مُحَاولَة التسلّق الأولَى لَمْ ينجحْ «حكيم» فيها بسَبَب ضعْفِه لأنه لم يتنَاوَلْ طعامًا لأكثرَ من يَوْم، كما بَاءت المحاولَةُ الثَّانية بالفشَل، واستجمَع الفَتَى الصَّغير كُلّ قُواه واستعانَ باللَّه وبدَأ المحاوَلَةَ الثالثة فنجحَ فيها ووصَلَ في نِهاية المطَاف إلى حَافّة الحفْرة، وخرَج مِنها وقد نجَا من مَوْتٍ محقَّق.

وكانتْ أَوَّلُ كلمة نطَقَ بهَا هِي: الحمدُ للَّه.. الحمدُ للَّه.. وسجَد للَّه شُكْرًا، فقَد استجابَ عزَّ وجل لدعَائِه وأنقَذَه بمعجزة من المَوْت كما أنقَذ نبيَّه يُوسفَ - عليه السلام - من غَيَابَةِ الجُبِّ، وأنقَذَ نَبِيَّه يونُس - عليه السلام - من بَطن الحُوت.

ثم قَام حَكيم ومدَّ يدَه ليصَافِحَ الرجُلَ الذي أنقَذ حياتَه ويشكُرَ له حُسْنَ صنيعه، فوجَده لَيس كبيرًا في السّن، فَهُو في الثلاثِينيّات من عُمره، وإن كَان الضعْفُ والوهَنُ والمرضُ قد أخْفى كثيرًا من شَبَابه وجعَلَه يبدُو في السبْعِين من

عُمره، فهوَ بَطِيء في حَركته، ونظرَاتُ عينَيه تَنمّ عن هذَا الضعْف، بل إن هَاتين العينَيْن غائرتين في وَجْهه، وهنَاك تجاعِيد واضِحةٌ في وجْهِه ورقَبتِهِ. وقالَ لَه حكيم وهو يُسلّم عليه:

وكانتْ أَوَّلُ كلمة نطَقَ بهَا هِي: الحمدُ للَّه.. الحمدُ للَّه..

- أشكُركَ يا عـمّـاه لأنَّك أنقـذْتَني من مَـوْت مـحـقَّق داخِلَ الحـفْـرة، أنَا اسمِي «حكيم»، وأنتَ ما اسمُك يا عمَّاه؟

- اسمِي.. شَمنْجُو ..

ولم يدْرِكْ «حكيم» في أوَّلِ الأمْرِ الاسْمِ فقال:

- ماذَا؟

- شَمنجُو .. اسمِي شمنِجُو ..

- هلْ أنت بمفرَدِك هنَا في هذِه الجزِيرة يا عَم شَمنْجو ؟

- نَعَم .. أنا هُنَا بمفْرَدي ..

قالَها الرجل في حُزنٍ بَالغ والبؤسُ يَشعّ من عينَيْه. واستمر «حكيم» في تَساؤُلاته:

- ومنذُ متَى وأنتَ هنَا بمفْرَدِك ؟

- منذُ شهورٍ طويلة تعِبتُ من حصْرِها.

وتعـجّب «حكيم» لِرجُل يعِيشُ بمفْـردِهِ في هذِهِ الجـزِيرَة المتـحـرِّكَـة التِي تضربُها الزلازلُ القويةُ صَباحًا ومساءً، فقالَ له:

- شُـهورٌ طويلةٌ!! كيف؟ على مـا يبْـدو أن سفِـينَتك غَـرَقَت، فـاضطُرِرت لتبقَى هنَا بمفْردك؟!

- كلا ..

- كلا !! هل أَتيتَ هنا بمفْردِك وبمحْضِ إرادتِك ؟

- نعم يا وَلدي ..

- وهل كُنتَ تعلمُ مخاطِرَ هذه الجزيرة وزَلازِلَها المستمِرّة ؟

- نَعَم يا ولَدي ..

- كيفَ هذَا، والقراصنةُ الأشدَّاء لم يستطيعوا أن يَبقُوا على هذهِ الجزيرة سوَى ليوم واحد، ثم فَروا هَاربين وتركُوني بمفرَدِي.

- هذهِ قِصةٌ يطولُ شَرحُها سأخبركَ بها فيما بعْدُ، المهمّ الآن أن تأتِي مَعِي إلى كُوخِي لتستريحَ وتغتَسِل لتُزيلَ ما عليك من أتْربة، وتَتَناوَل بعضَ الأطعِمة.

- نَعَم .. نَعَم يا عَمِّي شَمنْجو فإنني أشعُر بالجُوعِ الشَّدِيد.

- إذن هَيَّا بنَا .. ولكن هلْ تذكُرُ الشَّرطَ الذي أقسَمْتَهُ علَى نَفْسِك منذُ قليل؟

- نَعَم .. نَعَم يا عماه، لقد أقسَمْتُ باللَّهِ ان أُنفِّذ ما تطلُبه مني قَدْرَ استِطَاعَتِي.

- اسمعْ يا ولَدِي .. لقد أنقذْتُ حيَاتَك، والآنَ جاءَ دَوْرُك لتنقِذَ حَيَاتِي.

- عَم شمنْجو، أنَا لا أفهمُ ما تقُول، كيفَ أنقذُ حَيَاتَك؟

- هيّا بنَا أولاً نَذهَب إلى كُوخِي لتغْتَسِل وتأكُلَ ثم أحكِي لكَ على كُلِّ شَيء.

- هَيَّا بنا ..

وسَار «حكيم» بجَانِب «شمنجو»، والاثْنَان يسيرَان في بُطء وعَرَج، الأولُ من آلامِ سقُوطِهِ في الحفْرةِ، والثَّاني من الضعْفِ وآلام المرض.

وبعْد أن وَصَلا إلى كُوخ «شمنجو» بالقُرب من شَاطئِ البحر، اغتَسَل حَكيم، ثُمَّ تناوَلَ بعضَ الأطعِمة والثمار، ثم جَلَسَ هُو وشمنجو على بَابِ الكُوخ، وأخَذَ الرجلُ يحكِي للفَتَى الصغير حِكَايتَه.

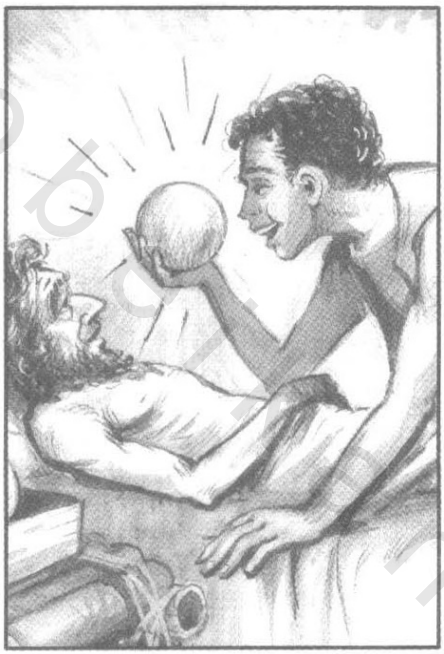

الطاقة العجيبة

قال «شمنجو» وهو يَحكِي حكَايتَه لـ «حكيم» بصوْتٍ ضعِيف واهِن:

- أنا من بَلْدة تعرَفُ باسم «بارتُولي»، وهِي تَبعُد عن هذِه الجزيرةِ مِئَاتِ الأَميال، ولقد كنتُ منذ فترةٍ قَريبة شَابا قويّا بين أهْلي وعشِيرتي كما كنتُ غنيا أمتلِكُ المالَ والمزَارِع وقُطعان الخِرَاف والبَقَر، ولِي زوجةٌ جمِيلة رزقَنِي اللَّهُ مِنها ولَدًا وبنتًا. وعشْتُ حياةً هانِئة أنعمُ بما رزَقَني به رَبي حَامدًا له، شَاكِرًا لأَنْعُمِه.

ولكن كمَا يقُولُون «من المحالِ دوَامُ الأحْوَال»، فقدْ أصابَنِي مَرضٌ غَريب، لم ينفَعْ مَعَه أَيُّ دواء، حيثُ شعُرتُ بالضَّعْفِ والهُزَال، وعدمِ القُدرَة على الحركَةِ بنَشَاط كنتُ قد تعوَّدت عليه.

وعَرضتُ حَالتي على كَثِير ممَّن يعرفُون تَشْخِيصَ الأمْراض وعلاجَها، ولكن لَم تُفلحْ كُلُّ المحاوَلات في التَّشخِيص أو العِلاج واتَّضح أنَّ حَالَتِي نادِرَةٌ ومَرَضِي مُسْتَعْص. وأتى إلَى بلدتنا رجلٌ كبيرٌ في السِّن مشهودٌ له بالوقَار والخِبرة في علاج الأمرَاض المسْتَعصية، ويُدعَى «رُوكتَار»، وعندَما عَرضتُ نفسِي عَليه، وسألَني عِدَّةَ أسئِلة تَخُص أعْراضَ مَرضِي، وما ينتَابُني وأشعُر به، قالَ لِي في لهجَةٍ محدَّدة وبِثقة في معْرفةِ حالتِي:

- يا بُني، إن مرضَك هذَا حالةٌ نادِرةٌ تُعرف باسم «نَقْص طَاقَة البَدَن»، وهذَا يعْنِي أن الطَّاقة التي يتملكُها جسمُك. والتِي تُسيِّر حيَاتَك في تَنَاقُص مستمرّ يَومًا بعْد يَوم، وإذا استَمرّ الحالُ على هَذَا فسيأتِي اليومُ الذِي ستنتَهِي فِيه طاقَةُ جسْمِك، ويحلُّ أجلُك وتمُوت.

فقلْتُ له في جَزَعٍ ولهفَة:

- والحلّ يَا سيدي، ألا مِنْ حَلٍّ؟

فقَالَ باللَّهجة المحدَّدةِ نفسِها:

- هنَاك حلٌّ واحِدٌ فقط، لا يُوجَد سِوَاه.

فقلْتُ لَه بلهفَة والأمَلُ يحدُونِي:

- بربِّك يا سيدي «روكتار» قلْ لي هَذَا الحلَّ.

- الحلّ أن يُشحَنُ بَدَنُك بالطَّاقَةِ المركَّزَةِ الإشْعَاع.

- وأينَ أجدُ هذِه الطاقَةَ المركزةَ الإشْعَاع؟

- لا تُوجد إلا في مكَان وَاحد من الصُّعوبة بمكَان أن تَصلَ إلَيه، وحتَّى وإنْ وَصلْت إلى هذَا المكان؛ فمِنَ العسِير جِدًا أن تحصُلَ منه على مستحدَثَاتِ هذِه الطاقة العَجيبة.

- إذَا كَان هذَا هوَ الحلَّ الوحيدَ، فلَيس لي أن أخْتَار، عليّ أن أذْهَبَ إلَى هذَا المكانِ مَهما كانَ بُعدُه أو يَصعُب الوصُولُ إليه.

- ما دُمتَ قد قَررتَ هذَا فأمامَكَ تحدِّيات ثَلاثةٌ هي:

الأولُ: أن تذهَبَ بحرًا إلى الجزيرة المتحركَة التي تَبعُد عن مكَاننا هَذَا مئَاتُ الأمْيَال وَهِي جزيرة تجتَاحُها بشكل مستمرّ الزلازلُ المدمّرةُ، ومن الصَّعْب العيشُ فيهَا حتَّى إن سُكَّانَها الأصليِّين مُعظمُهم أُبيدُو، إلا القلّةَ النادرةَ التي هَرَبت، وأنَا واحدٌ منْهم.

الثَّاني: أن تحصُلَ من هَذه الجزيرَة على منتَجات الطَّاقَة المركَّزة، وهِيَ عبَارَةٌ عن ثلاث جَواهِر: الأولَى كُرةٌ من الياقُوت الأحْمَر، والثَّانية كُرةٌ من الكهرمَان الأصْفَر، والثالثَةُ كُرةٌ من المرْجَان الأبيَض. وكلُّ واحدَة منها في وَادٍ مستَقِل فالأُولَى في وَادي الأسَدِ الأعْظَم، والثَّانيَة في وَادِي الأفْعَى الكُبرى، أمَّا الثَّالثة ففي وادِي الدُّب الأكْبَر.

الثالث: إنَّ أمَامَك عِدةَ أَشْهر ليسَت بالكثيرَة، سَتَنفَدُ بعْدها طاقَتُك شَيئًا فشيئًا حتى تنتَهي بالموْت، والمطلُوب سُرْعَةُ الحركَة والوصُولُ إلَى الكراتِ الثلاث.

- وعلَى فرْض أَنني استَطعْتُ الوصُولَ إلى الجزيرَة، وأن أَحصُلَ على الكُرات الثَّلاث فمَاذَا أفعَلُ بها؟

- عَلَيكَ أن تُلصقَها معًا فتُخرجَ منها طَاقةً إشعَاعيَّةً مركَّزة تَشحَنُ بهَا بدنَك وتقضِي على مَرَضِك إذا وضَعْتَ كلتا كفَّيْك علَيها لفتْرة منَاسبة.

- وهلْ يُمكنُ أن تَفِي إحدَاها بالغَرَضِ المطلُوب؟

- لا، ولا حَتَّى اثنتَين منها، فلابد أن تجتَمع الكرات الثَّلاثَ: الياقُوت الأحْمَر، والكهرمَان الأصْفَر، والمرجَان الأبيَض، بالكتلِ الخاصّة بهَا نفسِها،

وبالحجُوم ذَاتها، وهذَا سرٌّ من أسرَارِ من قَامَ بصُنْعها، وقَد تَمَّ حفظُها فِي هَذهِ الأماكِن بَعيدًا عن أيدِي اللُّصوص، وكانَت لَهم طريقَةٌ مُعينةٌ يجلبُونها من أمَاكِنها سَاعَة الحاجَة إليها. وهَا هِي خَريطةٌ لمكَان الجزِيرة، وخريطَةٌ أُخرَى لأماكِن وجُودِ الجَواهِرِ الثلاث.

وتعجَّب حكيم لهذهِ القِصّة الغَريبة وقَال:

- وكيفَ أتيتَ إلى هُنَا بمفْرَدِك؟

- لقد اشتَريتُ سفِينةً صغِيرة، وحاولْتُ أن أجدَ منْ يأتِي مَعي إلَى الجزِيرة المتحرِّكة فلمْ أَجد من يَرضى بمرَافَقَتِي لمعرفة الجميع أنّ الجزِيرةَ المتحرِّكَةَ تُعرَفُ باسم «جَزِيرة الموْت»، فالداخِلُ إليها مَفقُود والخارجُ منها مولُود. فاتخذْتُ قَراري وعزَمتُ وتوكلْتُ على الله، وودّعت زوجَتِي وأولادي وأهْلِي، وأبحرْتُ بالسفِينة الصغِيرة بمفرَدِي، وبوَاسِطة الخرِيطة التي حصلْت عليها من «روكْتَار» استَطعت أن أقودَها بنَجَاح وسْط البحَار المتلاطِمةِ الأمْوَاجُ، حتَّى قَدَّر لِي اللَّهُ عزَّ وجَل أن أصِلَ إلى هُنَا، فأخفَيتُ سَفِينتي في مكانٍ بعيدٍ على الشَّاطِئ.

- وهلْ وجدتَ إنسانًا عندَما وصلْتَ إلَى الجزيرَة؟

- لا، لَم أجدْ إنسانًا واحدًا، وعانَيت كثيرًا من كَثرةِ الزلازِل، ولكنَّني صَبَرتُ على قَدَرِي. وبَواسِطة الخرِيطَة الأُخرى التي أعطَاهَا لِي «رُوكتار» أيضًا استطعْتُ تحديدَ مكَان الأوْدِية الثلاثَة: وادِي الأسَد الأعظَم، ووَادِي الأفعَى الكُبرى ووَادِي الدّب الأكبر.

- ولماذَا لم تُغامرْ لتحصُل على الجوَاهِرِ الثلاثِ من تلك الأوْدِية يا عم شَمنجو؟

– لم أستَطِع لأنني شَعُرت بالضعْفِ ينتَابُني، والوهَنُ يُدَاهِمُني يَومًا بعد يَوم. وكنتُ أدعُو اللَّه أن يُرسِل لِي مَن يسَاعدُني للحصُولِ على تِلك الجواهِر الثلاثِ، ومرَّت الأيامُ والأسَابيعُ حتى أَتتْ سفينَةُ القراصِنة صبَاح أمْس.

– وماذَا فعلتَ عندمَا رأيتَ السَّفِينة؟

– اختفَيتُ في مكَان لا يَرَاني فِيه أحدٌ؛ لأنَّ القَراصِنة إذا شَاهدُوني سيقتلُونَنِي، وعندمَا رحلُوا صبَاح اليوم سمعْتُ صَوتَ استغَاثَتِك، فأيقنْتُ أنَّ اللَّه – سبحانَه وتعالى – استَجَاب لدعَائِي، فأرسلَكَ لِي لأُنقِذَ حياتَك، ولتنقِذَ حَيَاتِي.

وصَمَتَ «حكِيم» بعد أن سَمع حكايةَ «شمنجو» العجِيبةَ، وتأكّد من صِحَّة الحكمَةِ الَّتِي تقُولُ: «من رأَى مصَائِب الآخرِين، هانَت علَيْه مُصِيبتُه»، ثم أخَذَ يفكّر فيمَا سيكلِّفه الرجل، وبعدَ بُرهةٍ قَالَ في تخوّف:

– لكن.. هلْ أستَطِيع أنَا بمفْردِي أن أواجِهَ الأسَدَ الأعظم، والأفعَى الكُبرى، والدبَّ الأكبر؟

ونظَر «شمنجو» إلى الفتَى الصغِير وقالَ له في إشفَاقٍ وتأثُّر:

– ولدِي العزِيز «حكيم» أنا أعرفُ أنّ الأمرَ خطِيرٌ وعسِيرٌ، وأن المواجهةَ في غاية الصعُوبة، ولكن ليس لنَا مفرٌّ من هذِهِ المواجَهَة، فهي مسْأَلةُ حيَاة أو موْت، لأنَّنَا إذا لَم نُجازِفْ؛ هلكْتُ أنَا أولا، ثم ستَهلَكُ أنْت مِن بعدِي، لأنَّ الحياةَ على هذِهِ الجزيرةِ بمفرَدِك شَيءٌ شبهُ مستَحيل، ولكنَّني أُعَاهدُك على أنك إذا استَطعْتَ مساعَدتي في العثُورِ على تِلك الكرَاتِ الثَّلاث لأستَعِيد قوَّتي وصحَّتي، فإنني سأساعِدُك علَى مغادَرَة هذِهِ الجزِيرة بسفِينتي الصغِيرة، وأتيحُ لكَ الفرصَةَ للعودَة إلى بلَدِك وأهلِك.

رَدَّ «حكيم» وهو مُشفِق على نفْسه من هذِهِ المواجَهةِ الرهِيبة:

– ما دَام الأمرُ كذَلك، وأنَّها مسألة حيَاةٍ أو موْتٍ لكَ وَلِي؛ فلا مفرَّ من المجازَفَة، وهيا بِنَا نتدَارسُ الموقِفَ في كيفيةِ الوصُولِ للكرَات الثَّلاث.

وابتَسَم «شمنجو» ابتسَامة شاحِبةً، وقالَ في ضَعْف:

– هذا ما توسَّمتُه فيك يا صديقي الشُّجَاع، تَوسَّمت فِيك الشَّهَامَةَ ومسَاعدةَ الآخرين.

وتمتَم «حكيم» بينَه وبَيْنَ نفْسِه:

– لقد مَات أبي شهيدًا وهو ينقِذُ الثَّري «سندس» من الموْتِ غَرَقًا، فلا بَأس أن أسيرَ على درْبه لأنقِذَ «شمنجو» من الموْتِ، حتَّى لو أدَّى الأمرُ إلى أن أموتَ في سبيل هذِه الغَاية النَّبيلة.

ونظَر «حكيم» إلى «شمنجو» وقالَ فِي حَماس:

– توكَّلنا على اللَّه، قُل لِي خُطَّتَك في الحصُولِ على أوَّلِ جوْهَرة وهِي كُرة اليَاقُوت الأحْمر من وَادِي الأسَد الأعظم.

وبَدأ «شمنجو» في شرْح الخُطَّةِ فِي نَبَرَات لا تخْلُو أيضًا من الحمَاس:

– لقد اصطَدتُ أولَ أمْس غزالةً للحصُولِ علَى غِذاء من لَحْمِها الشهيّ، سَوفَ نأخُذ جُزءًا من لَحْمها، ونضَع بداخِله أعشَابًا مُخدِّرةً مَوجودةً بالفعْل في هذِه الجزِيرة، وسَأدلُّك على وَادِي الأسدِ الأعْظَم. ومِنْ علَى مكان مرتَفع خلْفَ المغارَة التي يتَّخذُها الأسَدُ الأعظَم عَرينًا له ستَصِلُ إلَى أعْلَى تلك المغَارَة، وبدُون أن يَشْعُرَ الأسَد بوجودِك تُلقِي بقطْعة لَحم الغزَالِ المخدَّرَة أمامَ بَاب المغَارة، فإذَا أكَلها الأسَدُ تخدّر ونَام، فتهبطُ بخفَّة وسُرعة وتدخُلُ المغَارةَ وتبحثُ عن الجوْهرةِ الحمْراء وتَأتِي بها.

واستفْسَر «حكيم»:

– وإذَا لم يأكلْ الأسَدُ الأعظَم لحمَ الغزَالةِ المخدَّر، ماذَا افْعَل؟

- ستَعُود لنفكِّر مَعًا في طَريقة أُخرى تَدخُل بهَا المغَارة.

- وهو كَذلك، لنَبدأ في الصَّبَاح الباكرِ في تنفيذِ الخُطَّة.

وفي هذهِ اللحظَةِ حدثَتْ هزَّة أرضيَّةٌ خفيفَة، قامَ على إثرهَا كلٌّ من «شمنجو» و«حكيم» بالذَّهاب إلى دَاخِل الكُوخ لينَامَا ويستعِدّا في الصَّباح لتنفيذ الخُطَّة الأُولى.

وفي صَبَاح اليومِ التَّالِي بدَأ «حكيم» في تنفيذ الخُطَّة الأُولى للحصُولِ على جَوهَرة اليَاقوت الحمرَاء من وَادِي الأسَدِ الأعْظَم، فأحضَر «شمنجو» لحمَ الغزَالة، وتمّ حَشوُه بالأعشَاب المخدِّرةِ، وحملَه «حكيم» وسارَ مع «شمنجو» في اتِّجاهِ وادِي الأسَدِ الأعْظَم.

وعندمَا وصَلا بالقُربِ من الوَادِي أشَار «شمنجو» إلى موْقع مغَارةِ الأَسَد الأعْظَم، وأوضَح لـ «حكيم» أن عَلَيه أن يسِيرَ في خَط دَائِريّ حوْل الوادِي حتَّى يصِل إلى تِلال تقَعُ خلْفَ المغَارَةِ وملتصِقَة بها، فيصعَدُ على التلال ومنها ينتَقِلُ إلى سَطْحِ المغَارة.

وودَّع «حكيم» «شمنجو» الذي تَمنَّى له التوْفِيق في مُهمَّته الأولى. وأسْرَعَ الفتَى الصغِيرُ الخُطَى وهو يَدُورُ بحَذَر حولَ الوادِي حتَّى وصَل إلى التِّلال الصخْرية، فأخذ يتسلَّقها وهو يحمِلُ لحمَ الغزَالةِ المخدَّر، حتَّى وَصَلَ بمشقَّة إلى سطْح المغَارة، وسَار عدةَ خُطُواتٍ حتَّى أطلَّ من أعلَى على فتْحتِها، ونَظَر في حَذَر وهو يكْتُم أنفاسَه فشَاهد الأسدَ الأعظمَ وهو يجْلِسُ أمامَ فتحة مغَارته، وأصَابَت الفتَى رَعشَةٌ هزَّت كُلَّ جسْمِه من هَوْل حجْم هذَا الأَسَد الأعْظم، وحَسِبَ أنه أضخمُ أسَدٍ في هذَا العالم، ولكنه تمالَكَ نفْسَه وتشجَّع وألقَى بلحْم الغزَالة المحشُوّ بالمخدِّر أمامَ الأسَدِ، وانتظر رَدَّ فِعْل الأسَدِ لهذا العَمَل، لكنّ الأسَدَ الأعظَم لم يُحركْ سَاكِنًا، ولم يلتفِت ناحيةَ قطعَةِ اللحم، أو ناحِيةَ من ألقَاها.

واحتَار «حكيم» ماذا يَفْعَل؟ وبعْد فترةِ تفكيرٍ في هذَا الموقف، قَرَّرَ العودَةَ إلى «شَمنجُو» ويخبرُه بما حدَث. ولكنَّه قبلَ أن يغادرَ مكانَه في أعلى المغَارة، دقَّقَ النظرَ إلى جسْم الأسَدِ الضخم فلاحظَ أمرًا لم يلتفِت إليه في بادئِ الأمْر، لاحظَ أن هناك دمًا ينزفُ منْ قَدم الأسدِ اليُمنَى. فدقَّق النظَرَ أكثرَ نَاحيةَ القَدم التي تنزفُ فشَاهد شَوْكَةً كَبيرةً قد نفَذَت في هذهِ القدَم وسبَّبت هذَا النَّزيف. واعتقَدَ «حكيم» أن الأسَدَ يتألَّم بشدَّة بسبَبِ هذهِ الشوكَةِ الكبيرة مما جعَله لا يُحركُ سَاكنًا عندَما ألقَى أمامَه بلَحمِ الغزَالة.

وفجأَةً قَرَّرَ «حكيم» إلغَاء فكرةِ عَوْدتِه إلَى «شمنجو»، كما قَرَّر أن يُجَازف بعُمره، فأخَذَ يهبط منْ أعلَى المغَارَةِ وهو يدْعُو اللهَ - سبحانَه وتعالَى - أن يحفَظَه من هذَا الأسَدِ الأعْظَم.

وما هِي سِوَى لَحَظَاتٍ حتى أصبَحَ أمامَ هذَا الأسَدِ الضَّخم وجْهًا لوَجه لا يفصلُهما إلا بضْعَةُ أقدام. ولم يحرِّكْ وجودُ «حكيم» المفاجئُ أيَّ سَاكن للأسدِ. ونظَرَ الفتَى الشُّجَاعُ في عيْنَي الأسد، الذي نظَرَ هو أيضًا في وجْه «حكيم». فخافَ الفتَى أولاً، وكادَ أن يتراجَع ويفرَّ هَاربًا من أمامِ الأسَدِ. ولكنه ثَبَت مكانَه وتغلَّب على مخَاوفِه، فقد لاحظ أن هناكَ دموعًا في عيني الأسَد. فشجَّعه هذا على أن يتقدَّم نَحو الأسَدِ خُطوةً خطوةً حتى أصبَحَ على مسافَةِ خُطوةٍ وَاحدة منه، وزادَ هدوءُ الأسدِ وسكينتُه من شجَاعةِ «حكيم» الذي لم يصدِّقْ ما يَحدُث، فتشجَّع أكثرَ وأكثرَ ومدَّ يَدَه ليمسَح بيَدِه الصغيرةِ علَى رأسِ الأسَدِ الضَّخم، وأغمضَ الأسَدُ عينيْه في مبَادَرة واضحَة على قَبُول صَدَاقة «حكيم» الذي ازدَادَتْ شَجَاعتُه أكْثَرَ وأكثرَ واحتَضَن رأسَ الأَسَدِ بكلْتَا ذِرَاعيه، وإذَا بالأسَدِ يلْعَقُ وجْهَ الفتَى الجسُور وكأنما يقبِّله. وهنا زَال خَوْفُ «حكيم» تمامًا، وأخذَ يفكِّرُ فِي كيْفية إسْعَاف هذَا الأسَد الصَّديق من نَزيف قدَمه اليُمنى الذي سبَّبته هذهِ الشوكةُ اللعينة.

وبسُرعَةٍ خَلَع «حكيم» قميصَه ونزَعَ منْهُ الكُمَّين، ثم وضَعَ فِي كُلِّ كُمٍّ بعضَ الأعْشَابِ المخدِّرة التي كانتْ بداخِل لحم الغزَالة، وربَط قدمَ الأسَد المُصَابَة بكمِّي قميصه، فأدَّت الأعشَابُ المخدِّرةُ إلى تخدير قَدَم الأسَد، وبعدَ قليل نَزَعَ «حكيم» الشوْكَةَ الكبيرَةَ من القَدَم المصَابَةِ دُون أن يشعُرَ الأسَدُ بألم، ثم ربَطَ القدَمَ المصابة بالكُمَّين لإيقَافِ النزيف الدمَوي.

وشَعَر الأسدُ الأعظمُ أن آلامَه قد زَالت إلى حدٍّ كَبير، فمسَحَ بلسَانه علَى رأْس «حكيم» شُكْرًا وامتِنَانًا، وتَرحيبًا بهذه الصَّداقَة. وقدَّمَ الفتَى لحَم الغزَالَة - الذي أصبحَ غَيرَ مُخدَّر - للأسَد الضخم، فقبلَ هذه الهدية من صَديقه الجديد والتهمَهَا بالكَامل.

ونظَرَ «حكيم» إلى دَاخِل المغَارَة «عَرين الأسَد»، ثم تقدَّم بخطُوَات حذرَةٍ بَاحثًا عن الياقوتة الحمرَاء، ولم يتحرَّكْ الأسَدُ الأعظم نتيجةً لدخُول الصَّديق إلى عَرينه، بَل نظرَ إليه في سُكون ورِضًا دليلاً منه علَى قَبوله لضيَافة صديقه دَاخِل عَرينه.

وعلَى إحدَى صخور المغَارَة شاهَد «حكيم» كُرةً حمرَاءَ من الياقُوت رائع اللَّون، فأمسَك بها فَرِحًا مسرورًا بهذَا النجاح لأوَّل محاولاته في إنقَاذ حَياة «شمنجو».

وخرَجَ الفتَى من المغَارَة، وتقدَّم بلا خَوْف ليمْسَح بيدِهِ على رأس الأسَد الأعْظم الذي هزَّ رأسَه وكأنه يُعلنُ موافَقَتَه على أخذِهِ لهذِهِ الجوهَرة الثمينَة كعربُون لصدَاقتِه. فاحتَضَن الفتَى رأسَ الأسَدِ وقبَّله، ثُمَّ اطمَأنَّ على أنَّ نَزيف الدَّم قد توقَّف من قدَم الأسد. واحتَضن الأسدَ مرةً أُخرى لودَاعِه، ثم سَار في طريق عودَتِه إلى «شمنجو» وهوَ يَحمِل بفرح وسُرور كُرةَ الياقُوت الأحْمر. وقَبْل أن يُغَادِر الوَادِي التفَت «حكيم» ناحيةَ الأسَدِ الأعظَم ولوَّحَ لهُ بيَده مُودِّعًا، فإذَا بالأسَد يزأَرُ بصوْتٍ عالٍ ليردَّ التحيَّة لصديقِه.

وانطَلَقَ «حكيم» في اتِّجاه مكان «شمنجو» الذي كَان يُراقب الموقفَ عن بُعد، وعنْد وصُولِ الفتى احتَضنَه الرجلُ في فَرح وسُرور وامتِنَان، وأخذَ منه كرةَ اليَاقُوتِ الحمرَاء وأخَذَ يتحسَّسها بيَدِهِ وهو لا يكَادُ يصدِّق عَينيه.

وحكَى «حكيم» كل ما حدَث مع الأسَدِ الأعظَم لصديقه «شمنجو»، وحَمِدا الاثْنَيْن معًا اللَّه - عزَّ وجل - عَلَى نَجاحِ خُطَّتِهما الأولَى، ورجَعَا إلى الكُوخِ باليَاقُوتَةِ الحمْرَاء.

وفي اليوم التَّالي تَمَّ وضْعُ الخُطَّة الثَّانية للحصُول علَى كُرة الكَهرمَان الصفْراء منْ وَادِي الأفْعَى الكبرى. وبَدَا تنْفيذَ الخُطَّة فَورًا بأن سَاعد «شمنجو» الفَتَى «حكيم» على ارتِدَاء جِلْدِ نَمِر، وأعْطَاه سكينًا كَبيرًا حَادًا، وأرشَده إلى اتِّجَاه السَّير للوصُول إلى وَادِي الأفْعَى الكُبرى، ولكنَّه لم يستَطِع الذَّهَاب معَه لشعُورِه بضَعْف شَديدٍ وهُزَال كبير، وبصَوت خَافِض وَاهِن تمنَّى لَه النَّجاحَ فِي محاوَلَته الثَّانية.

وأسرَع «حكيم» الخُطَى في طَريقه إلَى وَادِي الأفْعَى الكُبرى، وزَادَهُ نجاحُه في خُطته الأولى حَماسًا وتَفاؤُلا وأمَلا في نَجاح خُطَّته الثَّانية.

ووصَل إلى مشَارف وادِي الأفْعَى الكُبرى. فاقتَرَب في حَذَر من هذَا الوَادِي المخِيفِ وهو يَرقُب وينظُر إلى جَميع الاتجَاهَات، وتقدَّم أكثرَ حتى صَار

في وسْطَ الوادي، وهنَا ظهرتْ الأفعَى الكُبرى من جُحرِها الكبير فارتعدَت فَرَائصُ «حكيم» من بَشَاعَةِ مظهَرِها وضَخَامةِ بدَنِها، وهيَ تسْعَى إليْه في سُرعة مُذْهلَة زاحفَةً على الأرْضِ وكأنَّها تطيرُ في الهوَاءِ. وبسُرعة - وبحسَب الخُطّة التِي وضَعَها «شمنجو» - وضَع حكيم رأسَهُ داخِل جلْد النَّمِر.

ومَا إن وصلَت الأفْعَى الكُبرَى إلَى «حكيم» وهو بدَاخل جلْدِ النَّمِر حتى فَتحَت فَاها الهائِلَ الاتساعُ، وابتلَعَت الفتَى الصغيرَ الذِى شَعَر بضيق في التنفُّس وبالظلْمَة التي أحَاطَتْ بِهِ تمامًا، وشعَر بحركَة جسْمِه داخِل جسْمِ الأفْعَى الكُبرى، فبدَأ علَى الفَور في العَمَل، وأخْرَج السِّكينَ الكَبيرَ الحادَّ، وأخَذَ يقَطِّع في جسْم الأفْعَى من الدّاخل وأخذَت الأفْعَى الكُبرى تتلَوَّى منْ شدّة الألَم وهي تُذبَح من الداخِل، وبدأت تنْزفُ دَمًا غزيرًا من جسمِها. ولم يتوقَّف حكِيم عن عَمَله بل استمرّ في عملية ذَبح الأفْعَى من الدَّاخِل حتى فَصَل رأسَها تمامًا عن بدَنِها الضخْم وتَم القضَاءُ على الأفْعَى الكُبْرى تمامًا، وخرجَ الفتَى الشُّجاع من داخِلها وهُو لا يصدِّقُ عينَيْه، وتساءَلَ بينَه وبينَ نفْسِه، هل استَطَاع فعلاً القَضَاء على هذِه الأفعَى الرهيبَة وذبْحَها؟

وخلَع عن نفْسه جلْدَ النَّمِر، وأسْرَع بخفَّة وحذَر إلى جُحرِ الأفْعَى ودَخَله، وأخَذَ يبحثُ عن كُرة الكهرَمَان الصفْراء، فلم يجدْها في بادِئ الأمر، فأخَذَ يُزيحُ بعض الأحْجَار حتى وجَدَها خلْف أحَد هذه الأحجار.. كم هِي رائِعةُ المنظَر، فأمسَك بهَا وهُو لا يُصَدقُ عينَيه، وتمتمَ قَائِلاً في نفْسه:

- الحمدُ للّه .. الحمدُ للّه .. اللهم أسألُكَ أن تُكلِّل عَمَلِي بالنجَاحِ في الخُطَّة الثَّالثة.

وانطلَقَ الفَتَى المؤمِنُ فَرحًا مَسرُورًا ليعودَ بالجوهَرة الصفْراء إلى «شمنجو»، وقَبْل أن ينتَهي من عُبور الوادِي ظَهرتْ أفْعَى صَغيرةٌ - ربما تكُون ابنةَ الأفْعَى الكُبرى - وأخذَت تسْعَى إليه في سُرعة وخِفَّة. فصرَخ «حكِيم»

صرْخَة عَالِية، وأطلَق لسَاقَيْه العَنَان، وأخذَ يَجْرِي بكلِّ قُوَّته مُبتعدًا عن هذَا الوادِي المخِيف، وعن تِلْك الأفعَى الصغِيرة المرعِبة.

ولم يَقِفْ الفتى الذِي يحمِلُ الكرةَ الصفْراء الرائعةَ عن الجرْي حتَّى وصَل إلى كُوخ «شمنجو» ودخَل ليبشِّره بنجَاح خُطته ويُعْطيَه كُرة الكهرمان الصفراء. فوجَد «شمنجو» رَاقِدًا وقَدْ وصَلَ إلى حَالة من الضَّعْف والهُزَال لم يستَطِع مَعَها الكَلام إلا هَمْسًا، وعندَما أخذَ الجوهرة الصفراء ابتَسم ابتسَامةً شَاحِبةً، ورَبَّتَ على كَتِف «حكيم» شاكرًا له شجَاعَتَه مُقدّمًا له خالِصَ امتنَانه وتقدِيره على هذَا العملِ العظِيم.

وعلى قَدرِ فَرحة «حكيم» بما أنْجَزَه، وإنه لم يبْقَ إلا كرة المرجَان الأبْيض، كانَ قَلَقُه على حَياة «شمنجو» الذِي أصبَح أقرَب إلى المَوْتِ منه إلى الحيَاة.

وفي ضَعف هَامِس أرشَد «شمنجو» الفتى إلى مَكَان وادِي الدُّب الأكْبَر، وأَعْطَى له «حرْبة» رأسُها المعدَنية حادٌّ للغَاية، وذلك للدِّفَاع بها عن نفْسه إذا هَاجَمه الدبُّ الأكبر، وأفهَمه أن الساعَات القليلةَ القادمةَ هي الحاسِمة بالنِّسبة لحيَاته، فإذَا استطاعَ أن يعثُر على الكرَة المرجَانية البيضَاء ستُكتَبُ له حيَاةٌ جديدةٌ، وإلا فسوفَ يلفِظُ أنفاسَه الأخيرة، ويودِّعُ هذِه الدنيا.

ولم ينتظرْ «حكيم» لليوم التَّالي خوْفًا على حَياة «شمنجو»، فانطلَقَ مَاسِكًا - بالحربةِ ذاتِ الرأسِ المعدنية الحادة - ناحيَة وَادِي الدّب الأكبر دَاعيًا اللَّه - عزَّ وجلّ - أن يوفِّقهُ وينصُرَه في مهمَّتِه الأخيرة.

واقترَبَ الفتَى الشُّجَاعُ من وادِي الدبّ الأكبر، فأَخَذ يخطُو خطُواته في حَذَر وينظُر يَمِينًا وَيَسارًا مترقِّبًا ظهورَ هذَا الدبّ الأكبر في أية لحظَةٍ من اللحظَات، وبينمَا هو في حَركته الحذِرَة ظهرَ الدبُّ الكبير بضخَامةٍ غيرِ عَادية، وفروَتِه السَّوداء والذي ما إن رأَى «حكيم» حتى أطلَق صوتًا عاليًا مُفزِعًا، وكأنه قد أعلَنَ الحربَ علَى هذَا الفتَى الصغير، وأخذَ يَجْري ناحيته، وصَرَخ «حكيم» من الخوْف، وأطلَق لسَاقَيه العَنَان، والدبُّ يعتقُبه وهو يُطلق أصوَاتًا عنيفةً وكأنّه يصرُخ في الفتَى الصغير المسكين متوَعِّدًا: سأنَالُ منكَ لا مَحَالَة.

وعندمَا التفَتَ إلى الدبِّ الكبير وجَدَ أنه على وشَك أن يصِلَ إليه فَرَمَاه بالحَربَة ذاتِ الرأس المعدنيّة الحادة، ولكنَّها لم تصبْه، فأدرَك «حكيم» أنه في مَوْقِفٍ في غَايةِ الحَرَج، وأنَّ حيَاتَه في خَطَرٍ حقِيقي، فأخذَ يدعُو اللَّهَ عز وجل أن ينقِذه من هذَا الدبِّ الرهِيب.

وفي أثْناء فِرارِ الفتى من الدُّبِ تعثَّرت قدمُه في حجَرٍ فسقَطَ على الأَرْض وأدرَكه الدبُّ الكبيرُ، فصرخَ حكِيم طالبًا النجدةَ من ربِّه قَائِلاً:

- واغوْثَاه يا رَبي .. واغَوْثاه ..

وفي تلك اللحْظَة تمامًا، وقَبل أن يَفْتك الدبُّ بالفتَى المستغيث بربِّه بثَانية واحدَة، سمع حكيم، وسمعَ الدبّ صوْتَ زئير مدوٍّ من الأسَد الأعظم الذي جَاء في الوقتِ المنَاسب ليُنقذ صديقَه من مخَالب وأنيَاب الدبِّ الكبير.

وتركَ الدبُّ فريستَه السهلَةَ وتحوَّل ناحيَة الأسَد، وبدَا علَيهما أنَّهما سيدخُلان في مَعْركة حاسمة معًا، فانقضَّ الأسَدُ على الدُّب الذي حَاوَل أن يُدَافعَ عن نفسه، وأخذَ المفترسَان الضخمَان يتصَارَعان في معْركة وقتَال لا هَوَادَةَ فيه، وتعَالَت صَيْحاتُ الأسَدِ وصيْحَات الدبّ في هذه المعْركة حَامية الوَطيس، وأصَاب كلٌّ منهما الآخَر بإصَابَات قاتلة. وسقَط الوحْشَان مَعًا والدمَاء تنزفُ من جسدَيهما بغزَارَة من أماكنَ عدَّة، وانخفَضَ صوتُهما شَيئًا فشيئًا حتى صمَتَا نهائيًا وفارَقَا الحيَاة.

وبَكَى «حكيم» صديقَه الأسدَ الأعظَم الذي ضَحَّى بنفْسه من أجْل أن ينقذَه واقترَبَ الفتَى من الأسدِ الوفيّ وضَمَّ رأسَه بذراعَيْه وقبَّله في امتنَان وحُبّ وتقدير، وتَمتمَ في نفسه: شُكْرًا يا صديقي الوفيّ. وأنا في غَاية الأسَف لموتك بسببي، وانهمَرَتْ دمُوعُه بغزَارَة عند وداعه لأوْفَى صديق.

وتحرَّك «حكيم» ناحية بيْت الدبّ الكبير الذي قَضَى نحبه، فأسْرَع إلَيه وَدَخَلَه في حَذَر وبدَأَ في البحْث عن كُرة المرجَان البيضَاء، فعَثُر عليها وأمسكَها وهُو غَير مصدِّق.

وانطلَقَ «حكيم» بكُلِّ قُوَّته يسَابقُ الريح ناحية كُوخ «شمنجو» وهُو مُمسكٌ بكرة المرجان البيضاء، وهو يتمتم بينَه وبينَ نَفْسه:

- انتهَت آلامُك يا عَم «شمنجو»، وانتهَى مَرضُك. لقد حَقَّقنا المعجزَة بفضْل اللَّه تعالى، وحصلْنا على الكُرات الثلاث.. حمدًا للَّه.. حمدًا للَّه..

ووصَل الفتَى الشجَاعُ المؤمنُ إلى الكُوخ وهوَ يصيحُ فَرَحًا:

- عَم شَمنجو .. عَم شَمنجو .. ها هيَ الكرة البيضَاءُ الثَّالثة والأَخيرة.. لقد نَجَحْنا .. لقد نَجَحنا..

ودخَل «حكيم» الكوخ ولم يسْمعْ أيَّ ردٍّ من «شمنجو»، حيثُ وجدَه مُمدَّدًا علَى الأرضِ لا يتحرَّكُ، ولا يتكلَّم. فأخَذَ الفتى يَهزُّه ليوقظَه إن كَانَ نائمًا، أو ينبِّهُه إن كان مغْشيًا عليه وهُو يصيح:

- عَم شَمنجو .. عَم شَمنجو .. قُم هَا هي الكُرةُ الثَّالثة ..

ولم يتلَقَّ «حكيم» أية إشَارة أو حركة من شَمنجو، فانزَعَج بشِدَّة، وأمْسَك بيدِهِ، فوجَدَها باردَةً لا حَرارَة فيها، وعندمَا وضَعَ أُذنَه على صَدره لكي يستَمع إلَى ضربَات قلبه، لم يسمَعْ شيئًا.. إذنْ لقَد مَات «شمنجو».

وصرَخَ «حكيم» وهو يَهُزّ الجسَدَ الممدَّد أمَامَه قَائلاً:

- لا .. لا تَمُتْ يا شَمنجو .. لا تَمُتْ .. لقد أَتيتُ لَكَ بالكرات الثَّلاث هيا قُم .. لا تَمُتْ أرجُوك .. لا تمُتْ.

وأخذَ الفتى يبكِي بشِدَّة، وهو يناجِي جَسَد «شمنجو» ويردِّد: لا تَمُتْ أرجُوك.. ولكنْ لا حَيَاة لمنْ تُنادي.. وهُنَا طرأَ على ذِهن «حكيم» فكْرةٌ قد تكُون الأخِيرَةَ، فقَامَ وأحضَرَ كُرات الجواهِر الثلاث: كرة اليَاقُوت الأحمر، وكُرة الكهرمان الأصْفر، وكُرة المرجان الأبيض، وتلامَست الكرات معًا فصدَرَت منها طاقةٌ عجيبة، وضوءٌ بنفسجِي باهر فوضَعها على جَسَد «شمنجو»، وأمسَك كفَّيه وألصَقَهُمَا بالكُرَات الثلاث، وانتظَر أن تفعَلَ هذِهِ الطاقةُ مفعولَها ويتحركَ «شمنجو»، لكن لَمْ يحدُث جَديد.

وهُنَا حدَثَت هزَّةٌ أرضيةٌ شَديدة، خَرَجَ على إثرها «حكيم» من الكُوخ وهوَ يَبْكِي رفيقَه في هذِهِ الجزيرَة الموحِشَة، فشَهَد أشجارًا تتسَاقط وصُخُورًا تتهاوَى كما يحدُث عقِب كلّ زِلزَال.

وبعد انتهاء الزلزالِ جلَسَ الفتَى الوحِيدُ على بَابِ الكُوخ يفكِّر في مصيره، ومَاذَا سَيَفْعَل بمفرَدِهِ وهُو في جزِيرة الموتِ هَذِه، وكيف سيغَادِرُها، لقد

حَدَّثه «شمنجو» بأن لَدَيه سفينةً صغيرة، ولكن أينَ هي؟ وحتى إذَا عثُر عليها فهلْ يستَطيعُ بمفْرَده قيادتَها وسْطَ هذه البحارِ التي لا يُعرفُ شَمالُها من جَنُوبها، وشرقُها من غَربها.

وبينَما هو يفكِّر في مَصيره، سمعَ صوتًا خافتًا، ولم يصدِّق في أولِ الأمْرِ، استرَقَ السمع، فإذا بهِ يسمعُ الصوتَ الخافتِ نفسَه، إنّ أحدًا ينادِي علَيه.. ويقولُ بصوتٍ وَاهن: حكيم .. صديقي حكيم ..

وقفَزَ الفتَى من مكَانهِ وصَاح: هذَا صَوْت «شمنجو». ودخَلَ مُسْرعًا إلى الكُوخ فوجَدَ «شمنجو» قد فتَحَ عيْنَيه، وهو مُمسكٌ بالكراتِ الثلاث ذاتِ الطَّاقة العجيبة والضوءِ البنفسجِي الباهِر، وألقَى بنفْسِه علَيه صارخًا وهو يبْكِي من الفَرَح.

- عمّ «شمنجو» أنت ما زِلْت على قيدِ الحيَاة.. الحمد للّه.. الحمد للّه..

وقبّل الرجُلُ هذَا الفتى الشجاعَ والدمُوعُ تنسَابُ من عَينيه، تقديرًا منه وعِرْفَانًا له بالجميلِ حيثُ أنقَذَ حياتَه في الثَّوانِي الأخيرة، وتعانَقَ الاثنَان عِناقًا طويلاً.

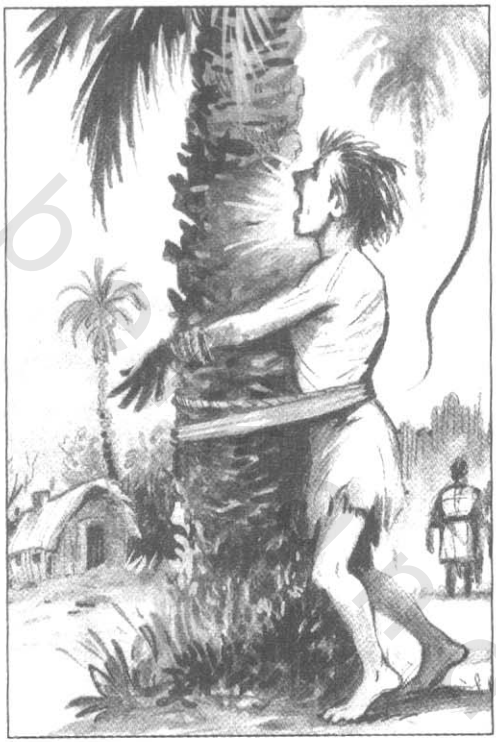

المقاطعة

عندمَا غادَرتْ سَفِينةُ القَرَاصِنَةِ الجَزِيرةَ المتحركةَ حاملةً معَها الفتَى الصغيرَ البائسَ «دهب» تاركةً وَرَاءَها «حكيمَا» الذِي اختَفَى في ظُروفٍ غامِضَة، بكَى «دهب» صاحِبَه كثِيرًا الذِي لم يكُن يدْرِي أهُو على قيْدِ الحيَاة، أم أنه مَاتَ وانْتهَى. ولم يكنْ يتَصَوَّرُ «دهب» أنه يُمكِنُ أن يَعيشَ وَسْطَ هؤُلاء القَرَاصِنَة المتوحِّشِين بدُونِ رُفْقَة «حكيم».

وصرخَ كَبيرُ القراصِنةِ بصوْتِه الغلِيظ الأجَشّ في «دهب» صَرخَةً انتفَضَ علَى إثرهَا المسْكِينُ وقَال له:

- كُفَّ عنِ البكَاء أيها الوَلَدُ التعِسُ، وهيَّا إلَى عَمَلِك.

وردّ «دهب» مرعُوبًا وصوتُه مخنوقٌ من البُكاء:

- أمرَكَ يا سَيدي النّسر.

- اذهبْ فَورًا لتنظيف أماكِن النَّوم وسَطْح السفِينَة، ثم توجَّه إلى الطاهِي لمسَاعَدته.. هل تفْهَمُ ما أقُول؟

- نَعم يَا سيدي ..

- إذَا لَم تقُمْ بواجبَاتِك على هذِه السفِينَة، فلن تكُون لكَ أيةُ فائدةٍ بيننَا، وسَأُلقِي بك في البحْر لتكُون وجْبَةً شهيةً لأصدِقَائِنا الأسماكِ المتوحِّشة.

وارتجَفَ المسْكِينُ رُعبًا من هَذِه الصُورة المخِيفَة وصَاح:

- سأَقُوم بكلِّ واجبَاتِي يا سيِّدي على نَحو يُرضِيك عني ..

- سوفَ نرَى .. هَيّا اذْهَب ..

وأَسْرَع «دهب» جَرْيًا إلى بَاطِن السفِينَة لتنظِيف أماكِن نَوم القَرَاصِنَة والدمُوعُ تَتَساقط من عَينَيه وهو يترحَّمُ علَى الأيَّام التي كانَ فِيها «حكيم» معَه، يسَاعِدُه ويُواسِيه علَى مَا هُو فيه .. والآن من أين يأْتِي بـ «حكيم»؟ وهلْ هُو حيٌّ أم مَيت؟ وهل إذا كَان حيًّا سيرَاهُ مرةً أخرى أم لا؟ ولم يجدْ المسكينُ جوابًا على كلِّ هذِه التساؤُلات سوَى الدمُوعِ المنهمِرَة من عَينيه بلا توقُّف.

ومضَت الأيَّام وسفِينَةُ القَراصِنة تمخَر عبَابَ البحَار، والمسكِينُ «دهب» علَيها يبْذُل قُصَارى جَهْدِه في العملِ المكلَّف به حتى يَرضَى عنه «النّسر» كبيرُ القراصِنَة.

وفي صَباح أحدِ الأيّام صَاحَ القرصَان الذي يعلُو سارِية السفِينة وهُو ينظُر بمنظَارِه المقرّب:

- جَزِيرة حيجَا .. جَزِيرة حيجَا .. هَا هِي الجزِيرَة التِّجارية..

وخَرج «النّسر» كَبيرُ القَرَاصنَة إلى سَطْح السَّفينة، وهوَ يحْمِل منظَاره المقرّب، فنَظَر بواسطَته ناحيةَ الجزيرة، وتمتَم بيْنَه وبيْن نفسه:

- إذنْ وصلْنَا إلَى الجزيرة التجَارية «حيجَا»، وسنَبيع ما استَولَينا علَيه من بضَائع، ونكسب أمْوالاً كثيرة.

وضحك «النِّسر» ضحِكَة عالية، ثم صَرَخ في أعوَانه أن يتَجمَّعوا فَورًا على سَطح السَّفينة وما هِي سوَى لحظَاتٍ حتَّى تَجمَّع القراصنةُ ليستَمِعوا إلى توجيهَاتِ قَائدِهم، الذي صَاحَ قائلا:

- هَا هِي جَزيرة «حيجَا» التِّجَارية، بعْد قليل سنرسُو بالقُرب منها، أُريدُكم أن تَحملوا كلّ البضَائع التي استولَيْنَا عليها وتُنزِلُوهَا إلى القَوَارب لكي نَعْرِضَها في سُوق الجزيرة.

وتسَاءَلَ أحدُ القَرَاصنة:

- وكَم يومًا سنقضيها في هَذه الجزيرة؟

ردّ النّسر:

- يَوْمين فقَط، اليومُ وغدًا، وبعدَ باكرٍ سنُغَادرها بعْد أن نكُون قد حقَّقنا أهدَافَنا.

وسَمع «دهب» من بَعيد هذَا الحديثَ بين النّسر وأَتبَاعه القراصنة، وتمنى أن يتخلَّص - بصوُرة أو بأخْرَى - من هؤُلاء القراصنة في جَزيرة «حيجَا» التِّجارية.

ورسَت السَّفِينةُ بالقُرب من الجزيرة. وأنزَلَ القَرَاصِنَةُ كلّ البضَائع - التي استولُوا عليها من السفِينَة التجارية بعد قَتْل كلّ من كَانَ فِيها وتدمِيرِها حَرقًا - في القوَارِب واتجهُوا إلى شَاطِئ الجزِيرَة ومعهُم «دهب».

وفي سَاحةٍ واسِعَة تقَعُ في وَسطَ سُوق الجزِيرة تمَّ عَرضُ البضَائع للبيْع.

وجَلَس على منِصَّة عَالية رجُلُ أعمال يدعى «حسوم» قَويّ البنيَان طويلٌ وعريضُ المنكَبَيْن، له شَوَارِبُ طويلَةٌ، وشعْرُ رأْسِه غَزِيرٌ يميلُ لونُه إلَى الاصْفِرَار. ويجلِسُ تحتَ قدمَيْه اثنَان من أقرب أتْبَاعِه (شلالة) و(فرقَاص). وهُما اللذَان يتفَاوَضان في عمليَّات الشِّراء والبيْع، ويأخذَان الموَافَقَةَ أو الرَّفْضَ من إشَارات يُشِير بها سَيدُهما «حسوم» وهو جَالِسٌ علَى المنَصَّة العالية.

وتفَاوضَ «شلالة» مع القَراصِنة في شِرَاء كُلّ بَضَائِعهم، وعرضَ عَلَيهم ثَمنًا لم يقبلْه «النّسرُ» كبيرُ القَراصِنة، الذي عَرضَ ثَمنًا أعلَى.

وبعدَ مفَاوضَات، وأخْذٍ وَرَدٌ في السِّعر؛ اتَّفق الطرفان على ثَمن للبضَاعة يُرضي الجميع. ولكنّ «شلالة» وضعَ شرطًا لإتمام هذِه الصفْقَة فقال للنّسر:

- لقد اتفقْنا معكم على هذَا الثَّمن بشَرط.

فقطّب النّسر جبينَه وصَاح بصوْته الغلِيظ الأجشّ:

- شَرط، أيُّ شرْط يا هَذَا؟

ردّ «شلالة» بلُغَةِ التَّاجِر الخبير المحبِّ لانتهاز الفُرَص:

- بشَرط أن تعطُونَا فوقَ هذِه البضَاعةِ .. هذَا الوَلَدَ.

قالَها «شلالة» وأشَار بإصْبَعه ناحيَة «دهب».

وبعْد بُرهة من الوقْتِ صَاحَ «النّسر» معْلِنًا موافَقَتَه:

- وهُو كذلك قَبِلْنا شَرْطكُم، فخذُوا فوقَ البضَاعة هذَا الولَدَ التعِسَ.

وتَمَّت الصفْقةُ، وأخذَ العبيدُ من أتباعِ رجلِ الأعْمَالِ «حسوم» في حَمْلِ البَضَائِعِ على أكتَافِهم والذَّهاب إلى «المقَاطَعة» وهي أرضٌ مساحتُها شَاسِعة تحيطُ بها الأشْجَار العالية، التي يعيشُ فيها «حسوم» ويعملُ عندَه كَثير منَ العَبيد في مجالات الزِّراعة، وتربية الماعِز والأبقَار والخيُول.

وعَاد «حسوم» إلى المقَاطَعة في عَربةٍ فَاخرةٍ تَجرُّها الخيُول، وهُو سعيدٌ بهذهِ الصفْقَة التي دَفَع فيها ثمنًا مناسبًا للغايَة. وتبعَاه في عربة أخرى تجرُّها الخيُول كلٌّ من «شلالة» و«فرقاص». أمّا «دهب» فقَدْ سَار مع جماعة العبيد وهو يحملُ صندوقًا صغيرًا وهو سَعيدٌ بحيَاته الجديدة بعيدًا عن القراصنة وحياتِهم البحَرية الخطِرة.

وعندمَا وصَل ركْبُ العبيد بالبضَائع التي يحملُونها إلى المقَاطعة؛ تَمَّ تَخزينُ هذهِ البضَائع في مخازنَ كبيرةٍ عليها من يحرسُونَها، ثم اتَّجه العبيدُ - ومعَهم دهب - ناحيَة العنْبَر الكبيرِ الذي يعدُّ مكان استراحَتِهم، وهو أيضًا مكانَ نوْمِهم.

ولاحَظَ «دهب» قبل دخُوله لعنبرِ إيوَاء العبيدِ أن هناكَ اثنَيْن من العبيد تمَّ ربطُهما بحبَالٍ غليظةٍ على جُذُوع من النَّخل وهُما عَرَايا الصُّدور والظُّهور تحتَ أشعّة الشَّمس المحرقَة وقَد بَدَتْ على جسَدَيهما آثارُ التعذيب. فأصيب «دهب» بالهمّ والغَم، فقد كَان يظنُّ أنه قد تخلّص من ذُلّ القرَاصنة، فإذا بهِ يقَع في ذُلّ «حسوم» وأتباعِه.

وجلَسَ الفتَى المسكينُ على الأرضِ داخلَ عنبرِ العبيدِ حزينًا يفكِّر في مصيرِه، وفي كُلّ ما حدَثَ له، ولم يشعرْ إلا بالدمُوعِ تنهَمِر من عَيْنَيه.

وبينمَا هُو كذلك اقترَبَ منه عبدٌ من العَبيد يقترب عمرُه من الأربَعين سنة، ولَونُ بشرةِ جلدِه يميلُ إلى السُّمرة، وجلَسَ بجوَارِه وسأله:

- ما اسمُك يا ولدي؟

- أسمِي «دهب».

- اسمٌ جميلٌ وغَال .. أنا اسمِي «شِفْتِين».

واستأنَسَ «دهب» لمظهَر «شِفْتين» الطيّب، فتشجَّع وسأله:

- هل أنتَ يا عمِّي شِفْتين هنَا في المقَاطَعة منذُ زمَن بَعيد؟

وتنهَّد «شِفْتين» ومرَّت على مُخيَّلته السنَوَاتُ التي قَضَاها في هذِه المقَاطَعة وقَال:

- أنَا هُنا منذ أكْثَر من عَشْر سنَوَات، أعيشُ حَياةَ العُبُودِية عندَ السَّيد «حسوم» بعدمَا كُنتُ حرًا لا يمتلكُنِي أحد إلا اللَّه.

- هل العملُ هُنا في المقاطَعة عملٌ مُضْنٍ؟

- نعم يا ولَدِي.. نعم مُضنٍ للغَاية.

- لقد رأيتُ خَارِجَ هذَا العنبَرِ حالةَ تعذِيب اثنَين من العَبِيد، فما سَبَبُ هذَا التعذِيب؟

- لقد أخَلا بالتعليماتِ الصارِمَة التي وَضَعها السيد «حسوم» حَيثُ تناوَلا طعامًا في غيرِ الأوْقَات الرَّسمِية.

وانزَعَجَ «دهب» انزِعَاجًا شَدِيدًا، لأنه سَببٌ وَاهٍ، لا يستَوْجِب التعْذِيب فقالَ له «شِفْتين» لِيُبَيِّن له الواقعَ الذي يَعيشُونه:

- هنَا يا ولَدي «دهب» قَوانين صَارِمَةٌ وضَعها السيد «حسوم» لنا نَحنُ العبيد.. ومنْ يتجَرَّأ على خَرْق أحدِ هذِه القوانين ينالُه من العِقَاب مَا لا يقْدِرُ على تَحمُّله، وقد يصِل الأمْرُ إلى حدِّ المَوْت.

فارتَعدتْ فَرائِصُ الولدِ المسْكين من الخوفِ عندَمَا سمعَ هذَا الكَلامَ من العبْد «شِفْتين» الذي حَاوَل أن يُسَرِّي عنه:

- هوّن عليك الأمرَ يا ولدي، فطالما ستسيرُ وفقَ القوانين واللوائح المطبَّقة على العبيد؛ فأنتَ في أمْن وأمان.. ولكن .. احكِ لي ما سَببُ وجُودِك هنا في حين يبدُو عليكَ أنك لستَ منَ العَبيد؟

وحَكَى «دهب» للرَّجُل كلَّ حكايته منذُ كَان في قصْرِ أبيه في بلَده «ضَيّ الفَنَار» وحتى باعَه القراصِنَة كعبْدٍ إلى «حسوم».

وتأثَّر «شفتين» كَثيرًا من سماعِ حكَاية الصبيّ المسكين «دهب»، وكيف تَحوّل ابن الثريّ المدلَّل إلى عبْدٍ منْ عبيد «حسوم». وطَمأنَه إلى حدٍّ ما على حيَاته في «المقاطَعَة»، وأوضَح له أنه سيُحاول دائمًا أن يقفَ بجَانبه، وأن يسَاعِدَه في العملِ وأن يجنِّبه الأخطَاء التي يمكِن أن تُؤدي إلى العِقَاب والتعذيب.

واستبشَر «دهب» كثيرًا بوجُود هذا الرجُل الطيّب بجوَاره، وحمِد الله علَى أنه يجدُ معَ عُسرِ الحياة وآلامَها؛ يسرًا ورحمةً يساعِدانه في تحمُّل هذهِ الآلامَ والمشقّة.

ومرَّت الأيامُ في المقَاطَعَة على وتيرَة واحِدة، فمنذُ الصَّباح الباكر يقُومُ العبيدُ تحت إشرَاف «شلالة» و«فرقاص» بالعمل في المقَاطَعة من بين أعْمالٍ زرَاعية مثل: حرثِ الأرْض، وبذْرِ البذُور، وريّ الأرض بالماء، والعنَاية بالنَّباتات الصغيرة، وجمْع الحشائِش الضَّارة من حوْلها، والاهتمام بالنباتَات عندَ نُضجها، والاهتِمَام بالأشْجَار وجَمع الثِّمار منها وحفْظها في صَنَاديق، إلى غَير ذلك.

وهنَاكَ أعمالُ العناية وَرعَاية حيوانَات الحقْل مثْلَ الماعِز والبقَر، والإشرَافِ علَى رعْيها وحمَايتها من أية أخْطَار. عَلاوة على الاهتِمَام بخيُول المقَاطَعة والإشْرَاف عليها وتدريبها.

وهنَاك كَذلك الذَّهاب إلى سُوق الجزيرة لعمليات البيْع والشرَاء للبضَائع المختلِفة، والمحاصيل الزرَاعية، وبعض حَيوانَات الحقْل.

وكانَ مِن نصيب «دهب» أن يعْمَل مع «شِفتين» في رعَاية حيوَانَات الحقْل من مَاعِز وبقَر والإشرافُ على رَعْيها وسلامَتها. ولم يتَوَانَ الرجُل في مسَاعَدة الفَتَى الصغير، فأوكل إلَيه الأعمالَ البسيطة الهيِّنة التي لا مشقَّة فيها ولا نَصَب، وأخذَ هُو على عاتِقِه الأعمالَ الشَّاقَة المجهدَة، وهو مَسرُور بذَلك، وكأنما وجد في «دهب» ابنًا طالما تمنَّاه في حَيَاته.

وبعدَ مرور الشُّهور على وُجود «دهب» في مقَاطَعة السَّيد «حسوم» تحتَ رعَاية وعِنَاية الرجُل الطيّب «شِفتين» حَدَث ما لم يكُنْ في الحُسْبان.

ففي يَوم من أيَّام الصيْف الحارَّة استُدعِي «شِفتين» لمهمَّة إلى سُوق الجزيرة، وقام «دهب» بالعمَل بمفْرَده في رعَاية قُطْعان الماعِز والبقَر، وشَعَر الفتَى بعدَ سَاعات من العَمَل الشَّاقّ تحتَ أشعّة الشمْس الحارقة أنه قَد أُصيبَ بدوار وآلام في رأسِه، فذَهَب وجلسَ في ظلّ شجَرة وَارِفة، مستنِدًا بظهْره على جذْعِها وهو يتصبَّبُ عَرَقًا، وقد نَال منه التعَبُ وقَسْوةُ حرارة الجوّ كثيرًا.

ولم يشْعُرْ بنفسه فإذا به يغُطّ في نوْم عميق لَم يُفِقْ منه إلا والمدْعُو «شلالة» وهو ينْغُزه بعصًا على أجزَاء من جَسَده. وانتفَضَ «دهب» مذعُورًا يتأسَّف على فَعْلَته، ويحاولُ أن يُوضِّح لـ «شلالة» أنه بعْد عَمل عدَّة ساعَات تَحت أشعّة الشمْس أصابتْه ضَربَةُ شَمْس سبَّبَت نومَه تحت الشجَرة دونَ إرادَتِه.

ولكن «شلالة» لم يأخذْ بهذَا العذْر، ورفَع أمرَ العبد «دهب» ضمن تقريرِه اليوميّ إلى السيد «حسوم»، الذي غضِبَ غضبًا شديدًا على هذَا التهاوُن في العمَل، وأصدَرَ حكمَه بجلْد «دهب» عشرين جلدة، وأن يُحرَم من الطعَام والشراب ليوم كَامل.

وفي صَباح اليوم التَّالي تَمَّ تنْفيذُ الحكْم الذي شَاهدَهُ كُل العبيد بما فيهم «شِفتين» الذي تألَّم كثيرًا لما حدَث، وكانَ يتمتِمُ والدمْعُ في عَينَيه: لو كنتُ مَوجُودًا ما كانَ قد حدَث ما حدَث.

وتم جلْدُ المسكينِ الصغيرِ عشْرينَ جلدةً على ظَهرِهِ العَارِي، وهو مربُوطٌ بحبْلٍ غَليظ إلى جذْعِ نخلة، ومع كل جَلْدةٍ كانَ الفتَى يصرُخ صُراخًا عَاليًا من الألم. والدمُوعُ الغزِيرةُ تتسَاقَطُ من عينَيْه.

ومع انتهَاء العِقَاب أُغشيَ علَيه، ولم يدْرِ بمن حوْلَه، ولم يستَطعْ «شِفتين» تقدِيمَ أية مُسَاعدة له، لأنَّه ممنُوع من الاقترَاب من «عبد» أذْنَب وتمّت معاقبتُه.

ومَرَّ اليومُ طويلاً مؤلمًا على المسْكين «دهب» فهوَ يَكَاد يمُوت من الألَم، ومن العطَش ومنْ ضربةِ الشَّمس التي كَانت سببَ كلِّ ذَلك.

وعندمَا انتهَى يومُ التعْذيب الرهيب، حملَه «شِفتين» إلى العنْبَر، وقدّم له شيئًا من المَاءِ والطَّعَام، وقَامَ بتدليك ظهْره بنَوعٍ من الزَّيت لتخفيف آلام الجلد، كلُّ ذلك و«دهب» شبه مغشيٍّ عليه، وارتفعَت دَرَجةُ حرارة جسمِه، وأخذَ يهذِي بكلام غَيرِ مفهوم، ويردّد أسمَاء منها اسمُ أبيه وأمه وأخته وحكيم والنّسر...

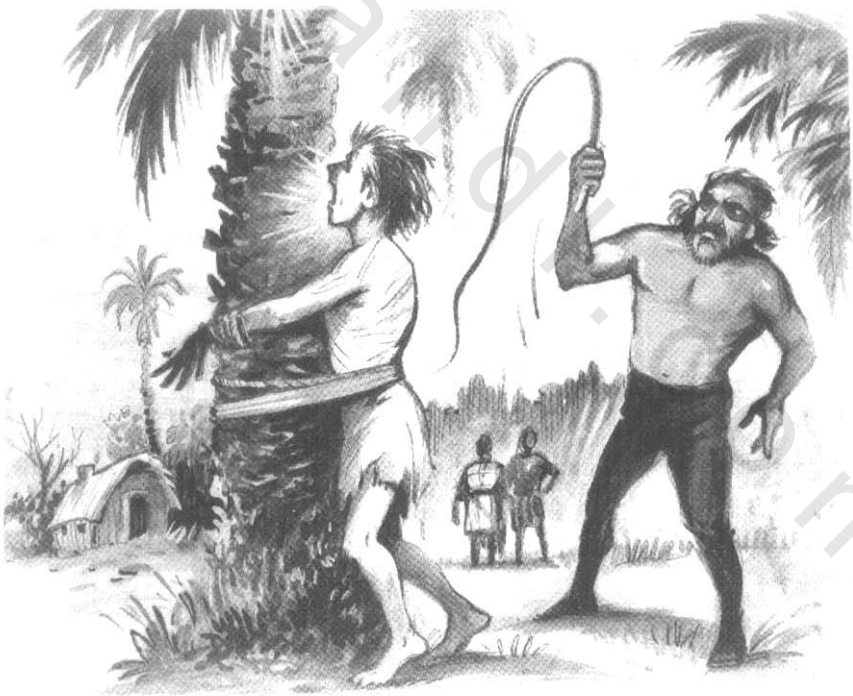

وحَزِن «شِفتين» حُزنًا شَديدًا على ما حَدَثَ لـ «دهب» الذي يُعدُّه مثلَ ولدِه، وتَذَمَّر من وحشيّة «حسوم» وأتبَاعِه، وقلُوبهم القَاسية التي لا تَحملُ أيةَ رحْمة، وتلكَ المعامَلَةِ للعبيدِ التي لا تَرْقَى لمعاملَتهم لحيَوَانَات المقاطَعة.

وفِي هذِه اللَّحظة الحزينة؛ خطَرَت على ذِهن «شِفتين» خاطِرَةً أخَذَ يفكِّر فيها بجدِّية وتركيز، فقدْ صَمَّم على وضْع خُطةٍ محكَمة لتنْفيذ هذِه الخَاطِرة وتلكَ الفِكْرة، ألا وَهِي تَهريب «دهب» من المقَاطَعة، بل تهريبُه من جزِيرة «حِيجَا» نفسِها بِصَرْفِ النظر عن نتَائِج هذَا العَمَل.

ومَرَّت الأيامُ، وشُفِي «دهب» من آثَار الجَلْد والتَّعذِيب، وبدَأَ يذْهَب مع «شفتين» إلى العمَل كلَّ صباح إلى أمَاكِن رعَاية قُطعانِ الماعِز والبقَر.

وفَاتَح الرجلُ الفتَى بخُطّته في تهريبه من ذُلِّ العمَل في «المقَاطَعَة» وصَاحِبها «حسوم» وسَعِد «دهب» بهذِه الخُطة، ولكن علَى تخوُّف من فَشَل المحاوَلَة وعَوَاقب هذَا الفَشَل الوخِيمة. ولكنّ «شفتين» أكّد لَه أن نجَاحَ خُطّته شبهُ مضمُون، فَرَضِي «دهب» بخُطّة الهَرَب، وتكتَّم الخبرَ حتَّى لا يشعُرَ به أحَدٌ. وظلَّت تراودُ الفتَى أحلامُ التخلُّص من هَذِه العبُودية.

●●●

هـروب

اعـتـمـدتْ خُطَّةُ الهُـرُوب التي وضَـعَـهـا «شـفـتين» على مُـسَـاعـدة أَحـدِ أصدِقَائه الذِي يعمَلُ في سُوقِ الجزيرة ويُدعى «كَامو»، والذِي يثِقُ فيه ثِقَةً كبيرة لصدَاقَـتِهمـا لسنواتٍ طَويلة، حَيثُ يقُوم «كامـو» بتسّهـيل تهريب «دهب» عـبْـرَ سَفِينَةٍ تِجارِيّة تسمَّى «سفِينة طُومان» نِسبة إلى اسم قُبْطانها. وهذِه السفِينةُ تأتِي إلى جزِيرة «حِيجَا» كلَّ بِضْعةِ أشْهر، حيثُ تبْقَى عدّة أيَّامٍ على الشَّاطئ، ثم تغَادِرها بعْد إتمام عمليَّات البيعِ والشِّرَاء.

وسبَبُ اختِيارِ سفِينَة طُومان لتهـريب «دهب»، أن هنَاك، بحـارًا عليهـا يُدعى «تُوري» على عَلاقَةٍ وطيدةٍ بـ «كامو» وبينَهما أيضًا صَداقةٌ لسنَوَاتٍ طويلَة، ويثِقُ فِيه، وفي قُدرَته على المسَاعَدة في هذَا الموضُوع الخطِير.

وفَاتح «شفتين» صديقَه «كامو» في أَمْر تهريب الصَّبي «دهب» على سَفينة طُومان التجارية من خِلال مسَاعدة صديقه «توري»، وأوضَحَ له العذَابَ الذي يُعانيه هذَا الصبيُّ في ظلِّ صَرامة «حسوم» وأتْبَاعه في معَامَلة العبيد، حيثُ لا يَرحَمُ كبيرًا أو صغيرًا، وكيفَ تَمَّ جلْدُ «دهب» عشرين جلْدةً لأنه نامَ في ظلِّ شجَرة بعْدَ أن أُصيب بضَربَةِ شَمْس. وهُو الذي لم يتعوَّدْ على شقَاء العبيد وذُلِّهم.

وبعدَ تفكير وتدبُّر للموقف وافَقَ «كَامو» على الإقدام علَى هذَا الأمْر رغم خُطُورَته، لأنه يعرفُ جزَاء منْ يُسَاعدُ عبدًا على الهرَب، وأخذ يتَدَارَسُ الخُطَّة مع صديقه «شفتين»، حَيثُ من المنتَظَر قدُومُ سفينة طُومان إلى الجزيرة بعدَ عدةِ أسَابيع، ومَا الذي سيتّبع كي يختبئ «دهب» فيها ليلَةَ مغادَرَتها الجزيرة، بمُسَاعَدة البحَّار «توري».

ومرَّت الأيَّامُ والأسَابيعُ علَى هذَا اللِّقاء الذي تَمَّ فيه وضْعُ الخُطَّة، وفي أَحَد الأيَّام حَضَر «كامو» لزيَارَة صديقه «شفتين» في المقَاطَعة، وعندَمَا اختَلَى به أفهمَه أن سفينةَ طومَان قد رَسَت على شَاطئ الجزيرة بالأمْس، وأنها ستمكُثُ ثلاثَةَ أيام تُغادرُ بعدَها الجزيرة، وأنه قد فَاتَحَ صديقَه البحّار «تُوري» بالخُطّة، فقَبل أن يُسَاعدَ في عمليةِ التهْريب هذه رغْم خُطُورتِها، وأن على «شفتين» و«دهب» الاستعدَادَ لإتمام العملية بعدَ يَومَين اثنَين.

وفي جَوْفِ اللَّيل في اللَّيلة الموعُودَة، تسلَّل «شفتين» و«دهب» من المقَاطَعة دونَ أن يشعُرَ بهما أحدٌ، وتوجَّها ناحيةَ الشَّاطئ.

وبإشَارة متفَق علَيها بواسطَة مصْباح زَيْتي علَى الشَّاطئ التَقَى الأربَعةُ «شفتين» و«دهب» و«كامو» و«توري»، وأوضَحَ البحَّار «توري» أنه سيصحَبُ «دهب» بواسطَة قاربٍ صغير دونَ أن يشعُرَ بهما أحدٌ حتى السَّفينة.

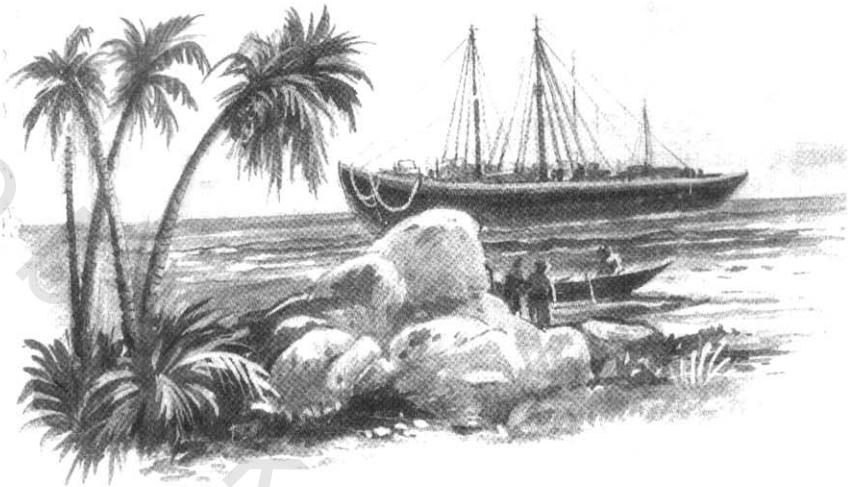

وجـاءَت لحظةُ الفـرَاق، وتعـانَق «شـفـتين» مع «دهب» عِناقًـا طويلا وتسَاقَطَتْ الدمُوعُ من عيُونهما، فهذا «شفتين» يودّع من عَدَّه ولدَه منذ أن رَآه، وهو يعلَمُ أنه لن يَرَاه مـرَّةً أخـرى. وبكى «دهب» لوداعِـه الـرجُلَ الذي كـان في مَكَانَة أبيه، بكاهُ عِرفانًا بجميلِه وتقْديرًا لصنيعه على إقدامِه على هذِه التضْحية الكبيرَة التي لا يعرفُ نتائجها سوَى اللَّه تعالى.

وأشَار «توري» بأنه يَجبُ الإسرَاعُ بركُوبِ القَارب والذَّهاب إلى السَّفينة قَبل أن يكتشِفَ أحدٌ خطَّتَهم. وبالفِعل ركبَ «دهب» معَه قاربًا صغيرًا وودَّعا «شفتين» و«كامو» واتَّجها بالقَارب ناحيةَ السَّفينةِ حتَّى وَصَلا إليها، فصعَدا في هُدوء وصَمْت إلى سَطْحِها، وفي أَحدِ قَوارب النَّجاة التي تُوجَد عادةً على السُّفُن اختَبأَ «دهب» فيه، وغطَّاه «توري» ببعْضِ الأقْمشة القديمة.

ورجَعَ «شفتين» باكِيًا إلى المقَاطَعة مُتخفِّيًا في جُنْح الظَّلام بعْد أن شكَر لصدِيقه «كامو» صنيعَه ومساعَدَته في تهريب «دهب» من عُبُودية «حسوم».

في صبَاح اليوم التالي أبحَرَت سَفينةُ «طومان» من شَاطئ جزيرة «حيجَا» التِّجارية وعلَيها الفتَى الصغِير «دهب» مختَبئًا في قَاربِ النجاة ومن آن لآخرَ

يُساعدُه «توري» في قضاءِ بعضِ حاجَاتِه دونَ أن يشعُر بذَلك أحدٌ من بحَّارة السَّفينة.

أما في المقاطعة: فلم يكْتشِف أحدٌ غِيابَ «دهب» في السَّاعات الأُولَى من النَّهار، حَيثُ راحَ العبيدُ يؤدّون أعمالَهم اليوميةِ المعتَادة. واستمرّ الأمرُ كَذلك حتى عصْرِ اليومِ حين تنبّه «شلالة» - الذراع الأيْمن لِرجلِ الأعْمالِ «حسوم» - إلى عَدَم تواجُدِ «دهب» في مكانِ عمله.

فسَأَلَ «شفتين» عنه، فأنكَر معرفةَ مكانِه، وأوضَح أنه طَوالَ النَّهار يعْمَل في المقاطَعة ولم يلمحْ الفتى في مَكَان عَملِه.

وتجول «شلالة» على حِصَانِه في أرجَاء المقاطَعة يبحثُ عن «دهب» ويسأَلُ عنه العبيدَ وحرَّاسَ المقاطعة في كلّ مكان. وضاعتْ كلّ محاولاته سدًى، فتأكّد هُروب هذَا العبدِ الصغير.

وذهبَ «شلالة» مسْرعًا إلى سَيده «حسوم» ليبْلِغه بهذَا الأمرِ نَادرِ الحدُوث، وغضِبَ صاحبُ المقاطَعة ومالكُ عبيدها غضَبًا شديدًا، فلم يحدثْ أن هَرَب من عندِه عبدٌ من العبيد.

وأمر «حسوم» بأنْ يجمَع كلَّ عبيد المقاطعة في السَّاحة، وأمرَهم أن يقِفُوا في عدَّةِ صفُوف أمامَه، وسأَلَهم: أينَ العبدُ الصغيرُ «دهب»؟

ولم يجدْ إجَابَةً لسؤَالِه سوَى الصمتِ من الجميع، فصَرَخَ «حسوم» فِيهم بصوت عَالٍ ملأ قلوبَ العبيدِ بالخوفِ والرعْب وقَال:

- إذَا لَم أعرفْ أينَ ذهَب ذلك العبدُ الصغيرُ؛ فسيتمّ عقَابُكم جميعًا بلا استِثْنَاء، حيثُ يجلَد كلّ واحدٍ منكم خمسِين جلْدةً، ويُحرم من الطَّعامِ والشَّراب يَومًا كاملا.

وسرت همهمة جزَعٍ ورهبةٍ بين هؤلاء العبيد المساكِين، فهم سيعَاقَبُون هذا العِقَاب الشَديد دون أن يكُونَ لهم أدنَى ذنْبٍ لما حَدَث.

وبدأ أتباع «حسوم»: «شلالة» و«فرقاص» ومعهم بعضُ الحرَّاس في إعْدَاد العبيدِ للجلْد، فتمَّ ربْطُ بعضِهم بجذوعِ النَّخل، وكشْف ظهُورهم، وبَدأ الجلادون يستعدُّون بالسِّياط لتنفيذ الحكم الذي أصدرَه سيِّدهم «حسوم»، والعبيدُ فَزِعُون كلَّ الفَزَع من هذَا العِقَاب الذي لم يكنْ يخطُر لَهم علَى بَال.

ولما رأى «شِفتين» أن تعذِيبَ زُملائه بالجلد على وشكِ الحدُوث، صَاح وهو يعلمُ ما سيحدُث له وقال:

- انتظِرُوا جميعًا ..

وهنَا اتَّجهتِ الأنظَارُ نَحو العبدِ «شِفتين»، وقالَ «حسوم» في حَزْم:

- ماذا ورَاءَك أيُّها العبْدُ «شِفتين»؟

ردَّ الرجلُ وهو يُدلي باعترَافٍ خَطِير:

- أنَا أعرِف أين ذهَب الفتَى الصغِير «دهب».

قالَ «حسوم» بنفسِ الحزْمِ بعدمَا جَاء تهدِيدُه بنتيجة:

- أينَ ذهب؟

واستمرّ «شفتين» في اعترَافِه:

- لقد هَرَب الفتَى الصغِيرُ من الجزِيرة هذَا الصَّباح مختبِئًا في السَّفِينة التجارِية «طومان».

وجُنَّ جُنون «حسوم» وصَاحَ:

- ومن سَاعَدَه على هذَا الهرب؟

فَرَدّ شِفتين في هَلَع:

- أنَا ..

- ومنْ سَاعَدك أيضًا أيها العبْدُ المتمرِّد على هَذَا العملِ الإجرامي؟

- لا أَحَدَ يا سيدي .. أُقسِم لك لا أَحَد من هَؤُلاء العبيد.

- ولم فعلْتَ ذلك وأنتَ تعلمُ جزَاء من يفْعَل فَعلَتَك؟

- في الحقِيقَة يا سيدي إنني كُنت أشعُر بأن الفتَى «دهب» في مَكَانَة ابني، فأحبَبْته، ولقد تألّمت كثيرًا عندما تم عِقَابُه وجُلِد عشرين جلدة وحُرِم من الطَّعَام والشَّراب يَوْمًا كامِلا، ولم يكنْ ذنْبه سِوَى أنه قد أُغشِيَ علَيه نتِيجَةَ ضَرْبة شمسٍ أصَابته.

- إذنْ لم ترضَ بحكمِي علَيه؟

- نعمْ يا سيِّدي لم أرضَ بهذَا الحكمِ، خاصَّةً وهو فَتًى صغِيرُ السِّن.

وزادَ غضبُ «حسوم» من هذَا الحوارِ وصَاح:

- أتفعَلُ فَعلَتَك الشَّنْعَاء، وتعترِضُ على أحكَامِي.. هذِه هِي نهَايتُك ياشِفتين اللَّعين ..

وَصَرَخ «حسوم»:

- شلالة ..

وردَّ تَابِعُه في الحال:

- أمرَك سيدي ..

- رفَعنَا العِقَاب الذِي أصدرْنَاه على كلِّ العبيد.

- هذَا كرمٌ منكُم يا سيِّدي لا يستحقُّه هؤلاء الحثَالَةُ.

- أما هَذَا اللعينُ العاصي «شفتين» فيجلَدُ مائَةَ جَلْدة، ويُمنَع عَنه الطعَامُ والشَّراب يومَين كَامِلَين.

- أمرُك نَافِذٌ يا سيّدي ..

ونَزَل الحكْمُ على «شِفتين» كالصَّاعقة، فهذَا يعْنِي الموْتَ البَطِيء.

وتمتمَ المسْكِين بينَه وبينَ نفْسه:

- فليكنْ موتًا بطيئًا ما دَامَ فِي سَبِيل حُرِّية ابنِي «دهب»، وفي سَبِيل إنقَاذِ إخواني من ظُلْمِ التعْذِيب.

وتَمَّ شَدُّ وثَاقِ «شِفتين» بالحبَالِ الغَلِيظَة على جذع نَخْلة، وتَمَّ تَعرية ظَهْرِه، وأَخَذَ الجلادُ فِي تنفِيذ الحكم القَاسِي بضرْبِه بالسَّوطِ مِائةَ جَلْدةٍ، تقبَّلها المسكينُ بصبْرٍ وصَمْتٍ رغْمَ الآلامِ المبْرِحة التي سبَّبها هذَا الجلدُ الظَّالمُ.

وما إن انتهَى العقَابُ حتى أصِيب «شفتين» بإغمَائَةٍ جعلَته يغيبُ عن الوعْي، وبَاتَ لا يشعُر بما حوْله. فحملُوه إلى حجرةِ العزل، وهي أشبَهُ بالسّجن وعلَيها حَارِس لينفِّذ العقوبَةَ الثانِية وهي الحرمَانُ من الطَّعام والشَّراب يومَين كامِلين.

وبعدَ انقِضَاء اليومَين دخَل «شلالة» ومعَه ثَلاثة من أتبَاعِه حجرةَ العزْل، فوجَدُوا «شِفْتين» قد فَارقَ الحياة، والشَّيء الذي استرْعَي انتباهَ كلٍّ من شَاهَدَ جُثَّتَه تلكَ الابتسَامَةُ الجميلَةُ المرسُومةُ على شفَتَيه، وقد أشرقَ وجْهُه إشرَاقًا وضاءً لا يخْفَى على كلٍّ من شَاهَده.

●●●

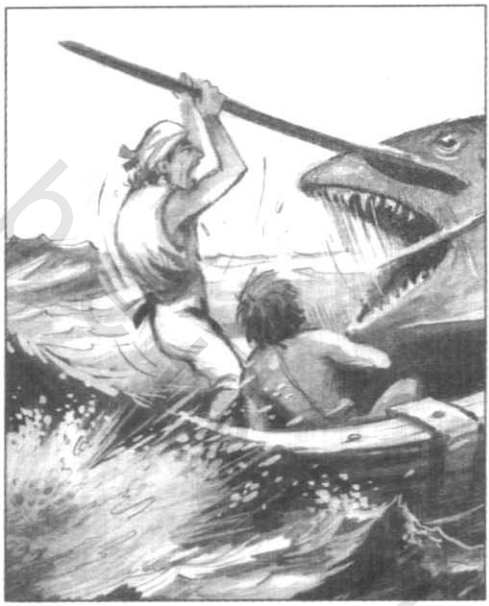

القارب

في اللَّيلةِ نفْسِها التي فَارق فِيها «شِفتين» الحيَاةَ، شاهَد «دهب» وهو لا زَال فِي مخبئه حلمًا في منامِه، فقدْ رأى وكأنَّه يسِيرُ فِي حدِيقة قصْر أبيه «سُندس»، وكانت الحديقةُ في أبهى صُورة لَهَا من أشجَار وأزْهَار وطيُور تشدُو بأصوَاتِها الجمِيلة، وإذَا به يلمَحُ البستَانِي «سالم» يقومُ بواجباته في العنَاية بأشْجَار وأزهارِ الحديقة. وعندمَا اقتربَ «دهب» من البستَاني لم يجدْه «سالم» بل وجَده «شفتين» مبتسِمًا له، ففرِح «دهب» لرؤيتهِ وأخذَ يحضُنه ويقبِّله وقَال له:

- عَمِّي شِفتين، هل تعملُ عندنَا هُنا في حدِيقة القَصر؟

- لا يَا ولدِي، وإنما جِئْتُ لأرَاكَ وأودِّعَك.

- تُودِّعُني إلى أَين؟ ابقَ معَنَا.

- لا يَا ولَدِي، أنا سأَرْحل، وأردتُ أن أَراكَ وأودِّعَك قبلَ الرَّحيل.

ونظَرَ إلى الفتَى بابتسامةٍ جميلةٍ، وأطلَّ من وجْهه نورٌ جميلٌ غيرُ عاديّ. ثم ذهَب واختفَى، وظلَّ دهب ينَادِي عليه:

- عَمي شِفتين .. عَمي شِفتين ..

واستيقَظَ «دهب» من نَوْمِه فوجَد نفسَه لا زَال يُنادي على العَمِّ شِفتين.

وعلَى قدْر سعَادته برُؤية منقِذه شِفتين في المنَام، على قَدر ما أصَابه من القَلَق علَيه، وخَاصةً عندمَا أعلَن أنّه سيرْحلُ. وأخذَ الفتَى يفكّر فيما قدْ حَدَثَ له بعد اكتِشَافِهم هروبَه.

وقَطَع تفكيرُه صوت «توري» وهو ينَادِي علَيه بصوتٍ هَامِس كي يُقدِّمَ له شيئًا من الطعَام والشرابِ في الخفَاء، وهنا قَال له «دهب»:

- عَمي «توري» لقد مَلَلْت من وجُودي في هذَا القَارِب، ولا أدْرِي إلى متَى سأظلّ هكَذَا؟

- إذَا أردْتَ يا ولدي أن تخرُجَ من مخبئِك هذَا فتحمَّل مسئوليَّة ذلك.

وفي تخوّف تساءَل دهب:

- وماذَا يمكنُ أن يحدُث لِي إذا ما اكتُشِف أمري؟

- أنا لا أدْري يا ولَدي، فَرغم أن القُبطان «طومان» رجلٌ طيبُ القلْب، وقرارَاتِه حكِيمة، إلا أنني لا أستَطِيع التنبؤ بما سيفْعلُه معكَ ومعِي، إذا عرفَ الحقيقة.

- أنَا لا أُريد أن تتورَّط معِي في أَية مشكِلة بسبَبِ مساعَدَتِك لي.

- وكيفَ ستبرّر وجودَك على السَّفِينة دون مُسَاعَدَتي؟

وبعد فَترة من التفكير هَمَسَ في نفْسه: وجَدْتُها، فقَال لـ «توري»:

- سـأعلِنُ يا عـمي «توري» عن وجُـودِي على السَّفـينة بعـد أن أَخـرجَ من مخبئي هذا وعندما يسْألُني القبطان «طومان» سأقُصّ علَيه حكايتي، ثم أوضّحُ له أنني تسلَّلتُ إلى السفينةِ بمساعدةِ عم «شفتين» في جَوْف الليل، واختبأتُ في القاربِ، حتى تأكدْتُ من تركِنا للجزيرَة بمسافَةٍ شَاسِعة، ولن أذكرَ اسمَك من قَريبٍ أو بعيد.

- فِكرةٌ ممتازَةٌ يا ولدي، هيا نفِّذها علَى بركةِ اللَّه.

وبالفـعل نَفَّـذ «دهب» الفكرَة في الحـالِ. وظهَـرَ على سَطْح السَّـفِـينة التجـارية، ودُهِش بعضُ البحـارة من رؤْيتِه. ولم يصـدِّقْ البعضُ الآخـر عـيونَهم، فماذَا أتَى بهذَا الفتَى الصغير على سطحِ سفينتهم، وأين كان مختَبِئًا طَوالَ هذهِ الأيام؟

واقتَادَ بعضُ البحارة «دهب» إلى قبطَانِهم «طومان» الذي لم تَقِلّ دهشَتُه عن دهشَةِ بحّارته من وجُودِ هذا الصبي على سَفِينتهم وبَينَهم.

واستفْسر «طومان» في تعجُّب قائلاً:

- مَنْ أنت أيها الفَتَى الصغير؟ ومن أَين أتَيْتَ؟ وكيف تجرّأت علَى ركُوبِ السفِينة دونَ استئْذَان؟ وإلى أيْنَ أنتَ ذاهِبٌ؟

وحكَى «دهب» للقـبطَان كلَّ حكَايتـه كـاملةً منذُ أيامِـه في قـصْـر أبيـه، وعَـلاقته بـ «حكيم» وكيفَ تم اختطَافُهما بواسِطَة القراصِنة، وكيفَ افترقَ عن «حكيم»، وكيفَ باعَه القَرَاصِنة للسيد «حسوم»، والمعاملةَ الظالِمَةَ التي تعرَّضَ لها، وتعاطُفَ «شفتين» معَه، وكيفَ ساعدَه للصعُود إلى السَّفينة ليلاً، ولكنه لم يذكُرْ «توري» ومسَاعدته له في الهرُوب من الجزيرة.

وتعَاطَفَ القبطان «طومان» مع هذَ الفتَى الصغير الذي شَاهَد الأهْوَال، وتعـرَّض للموْت أكثرَ من مرّة، وهو ابنُ الثري المدلل الذِي لم يتعـوّدْ على ذلك.

وأعلَن «طومان» لجميع البحّارة منذُ هذه اللحظةِ اعتبَارَ «دهب» أحدَ بحّارة السفينة، علَيه واجبَاتُ البحارة، وله حقُوقهم.

وسَعد «دهب» بهذَا القَرار، وشكَر للقبطان «طومان» عطْفَه وكَرَمَه، ونظَر بابتسامَة لها مغْزًى إلى البحّار «توري» والتي لم يلْحظْها أو يفهمْها سوَاه، وكأنَّه يقُول له نجَحَتْ فكرتُنا والحمدُ للّه.

وبكلّ همةٍ وحماسٍ بذَل «دهب» جُهودَه في العمَل على السَّفينة، سواءً في مجَال نظافَةِ أماكِن نوْمِ البحّارة، أو مُساعدة الطَّاهِي، أو أيّ عَمل يُكلَّف به، وذَلِك ليؤكِّدَ للقبطَانِ «طومان» أنه عنْد حُسن ظَنِّه، وليردّ شيئًا من جَميل صَنيعه معَه. وأحبّه القبطَان، وأحبَّه البحَّارةُ، وأحبَّهم «دهب» وسعِدَ بالحياة بينَهم.

واستمرَّت الحيَاةُ على السفينة التِّجارية «طومان» شُهُورًا طَويلَةً، تنتَقِل من بلْدَة إلَى جَزيرة، ومن جَزيرة إلى أُخرَى، لشِرَاء بِضَاعة، أو بَيع بِضَاعة وما بيْن الشِّراء والبيْع يأتي المكْسَب الوَفير.

وتعوَّد «دهب» على هَذِه الحياة البحرية، وتعوَّد على طَعَام البحَّارة، ولم يأنَفْ منه قَط، وأصبَح لا يصَابُ بدَوَّار البحر مع ارتفَاع الأمْوَاج وهبُوطِها، وتغيّرت سلُوكياتُه تمامًا، فها هُو قد أَصبحَ الآن عاملاً نشطًا لا يعرِفُ الكسَلَ أو الراحَة، يؤَدِّي ما علَيه بجدٍّ واجتِهَاد، يسْعَد عندمَا يُساعدُ الآخَرين، وامتَلأت نفسُه بالقنَاعة والرِّضَا ولَو بأقَلّ القَليل، وتعلَّم معنَى التعاوُن والنظَام والإيثَار والتضْحِية من أجْل الآخَرين. وأحيَانًا عندمَا كانَ يخلُو إلى نفْسِه كانَ يتمتِم وابتسامةٌ صافيةٌ علَى وجْهه: آه لو رآني «حكيم» الآن بعدَ أن تغيرّتُ كلَّ هذَا التغيير فلَقد تغيَّرت في سلوكَيَّاتِي، وعَلاقَاتِي بالآخرين، وتغيَّرتْ أفكَاري ونظْرتي للحياة، التي أساسُها العملُ الجادّ، والتعاوُن، والعَلاقات الطيِّبة، والتوكُّل على اللّه عز وجل.

وصَدَقَ اللَّهُ العظيم إذ قال: ﴿وعَسَىٰ أن تكرَهُوا شيئًا وهُو خيرٌ لَكُم ... (٢١٦)﴾ (البقرة)، فإنه لو بقي في معيشته المرفَّهة في قصْرِ أبيه: كان لا يُمكنُ أن يشعُر بقيمة العَمَل، وقيمةِ السَّعْي في سَبيل كسْبِ الرزق، وقيمة الرضا والقَنَاعة، وقيمةِ الحيَاة نفْسِها.

ولأنَّ من المحال دوَامُ الأحْوال، وأن الحيَاة في تَغيُّر مستَمِر، ولا تستقرّ علَى حَالها فقد صَادَفتْ السفينَة التجارية «طومان» في إحدَى رحْلاتها إعصَارًا شديدًا للغَاية وارتفعَت الأمْوَاج بشدّة وبشكْل مُذهِل، وحاوَلَ البحّارةُ السيطَرَةَ على السَّفينة ولكنّ الإعْصَار كانَ غيرَ مسبُوقٍ فِي قوته، وارتفعت أمْوَاجُ البحْرِ لتصبحَ كالجبال، وتعاونَتْ قوةُ الريح معَ الأمواجِ الهائلة ضِدَّ السفينة فأضْحَت وكأنها ريشَةٌ في مَهبِّ الريح.

وبدأَت أجْزَاءٌ من السَّفينة تتحطَّم، وكُسِر سَاريها، وأصبحَ نَجاتُها من هَذَا الإعصَار أمرًا مشكوكًا فيه جدًا. ووجَد القُبطان «طومان» أنه فَقَد تمامًا السيْطَرة على السفينة وخاصَّةً أنها امتَلأتْ بمَاء البحْر بشكْل خَطير ثقُلَت معها السفينَة وبدأتْ في الغَرَق شَيئًا فشَيئًا، ولم تُفلحْ محاولاتُ البحَّارة في نَزح المياهِ من بَاطنِ السفينة. فأمَر القبطَانُ بحَّارته بإنزَال قوَارب النَّجاة ومغَادرةِ السَّفينة التي بدأتْ تغُوص في البحْر.

وبالفعل أخذَ البحارَةُ معَهُم ما خفّ حمْلُه وغَلا ثَمنُه من ممتلَكَاتهم واستقَلُّوا قَوارب النَجَاة، وابتعَدُوا عن السفينة التي غَرقتْ بالفعْل بعدَ فترةٍ وجيزةٍ من مغادَرَتها وعلَيها بعضُ البحارَة الذينَ لم يجدُوا وقتًا كافيًا لركُوبِ قوَارب النجاة، ففَرقُوا مع سفينَتهم، وكأنهم أبَوا أن يعيشُوا بدُونها.

وتقاذَفتِ الأمْواجُ القواربُ الخمسَةَ. ولم يكتَفِ الإعصَارُ بما فعَلَه بهؤلاء المسَاكين ففرَّقت الأمواجُ الهائلةُ بينها، وأطاحَتْ ببعْضِها فقلبتها وأغْرَقَت كلَّ من كَان فيها فَغَرِق من غَرِق، وصَارعَ من بَقِيَ علَى سَطْحِ الأمواجِ متعلّقًا بأمَلِ الحياة.

وأيقَنَ «دهب» أنَّها النهاية، فَإذَا كَان قَد نَجَا قبلَ ذلك من مَوْتٍ مُحقَّق، إلا أن هذِه المرةَ هي الأشدُّ على الإطلاق.

وتمسَّكَ الفتَى الصغيرُ بحبْل مثَبَّت في القَارب الذِي استقلّه مع بعْض البحَّارة قَبلَ غَرقِ السفينَة بقليل، وكان تمسُّكُه بهذا الحبْل يعنِي تمسُّكَه بالحياةِ، حيث يمكنُ أن تُلقِي به الأمواجُ من القَارِب إلى البحْر الذِي سوفَ يبتلِعه كما ابتلَع كثيرًا من البحّارة.

ومن كثْرة ضَربِ الأمْواج للقَارب، وفَزَع «دهب» من هَوْلها أُغشِيَ عَلَيه، ورَاحَ في إغماءةٍ طويلةٍ، ولكنّ يديْهِ استمَاتَت على الحبْلِ رغم فقْدِه للوَعي.

ولم يَدْرِ الفتَى الفَاقِدُ للوعي كمْ من الوقْتِ مَرَّ عليه في هَذِهِ الإغمَاءة، ولكنَّه عندما فَتَح عينَيه، كان الإعصَارُ قد ولَّى وانتهَى بعدمَا دمَّر ما دمَّر، وبعد أن ابتَلَعَ البحر ما ابتَلَع وصارَت مِياهُ البحرِ هادِئةً وصَافِيةً وكأنّه في وَدَاعةِ طفْلٍ صغِير، بعد أن كان وحْشًا ماردًا يدمِّر كلَّ شيء أمامَه ولا يُبَالِي.

وتلَفَّت «دهب» وهو غَيرُ مُصدِّق أنه قد نَجَا من هَذِهِ الكارثة المروِّعة، فوجَد في القَارِب ثلاثةً فقط من البحَّارة في حالَة إعياء كَامل، وظهَرت المأسَاة على وجُوهِهم البَائِسة مما جعَلَهم لا ينطِقُون بشيء.

ودُهش «دهب» عندَما لم يجدْ أيَّ قارب سِوَى قَارِبِهم، أينَ ذهَبَت القَوارِبُ؟ وأين راحَ البحارةُ الذين كانُوا يستقلُّونها؟ هل غَرَقُوا جميعًا؟ هل نَجَوا ولكنّهم ابتعدُوا عنهم؟ لا إجَابة. أين القبطان «طومان»، أين البحّار «توري»، أين.. وأينَ.. وأينَ؟ وعندما لم يجدْ الفتَى إجابات عن تساؤلاتِهِ انفجَر باكيًا إما على فقدِهِم، وإما على فراقهم.

ولم يكُنْ حالُ البحارة الثلاثة بأفضَل من حَال «دهب»، فالكلُّ حزين لهذَا الفِراق الدامِي، وحزِينٌ لهذا المصِير المخِيف الذِي سيؤُولون إليه، فهم في هذَا

القَارب بلا طَعَام وبلا شراب، وليسَ أمامَهم سوَى الدعاءِ للّه سبحانه وتعالى كي يُنقذَهم مما هُم فيه.

وبعد صَمتٍ حَزِين طالتْ مدتُه تحدَّث أكبرُ البحارة سِنًا ويدعى «بركة» قَائِلاً:

- اسمعُونِي جيدًا.. اسمعْني يا «سلومه» أنت و«عنّون» وأنت يا ولدي «دهب» نحنُ الآن لا نعرفُ مصيرَ الآخرين، فإذا كُتبت لهُم السلامةُ فحَمدًا لِلَّه.. وأما إن كانُوا الآن غَرْقَى في بطن البحْرِ فنسألُ لهم الرحْمة من اللّه تعالى.

وتساءَل «دهب»:

- ولكن يا عَمّي «بركة» نحن الآن بلا طَعَام ولا شراب، ولا حتَّى نعرِفُ أينَ نحن الآن، وهل هنَاك أرضٌ قَريبة منّا أم لا؟

وردّ البحَّار «بركة» يُحاول أن يَبثّ الأملَ في نفُوس منْ مَعَه:

- نحنُ الآن في وقْتِ العصْر، وبعد سَاعَات قَلِيلة سيأتِي الليلُ، وسنعرِفُ من النجُوم أين نحن، وإلى أيّ اتجَاه سنتَحَرّك بهذَا القَارب، أما مسألَةُ الطعام والشّراب فليسَ أمامَنا سوَى البحر نشرَبُ ماءَه ونتغذَّى على أسمَاكه وحيوانَاتِه ونباتَاته.

قالَ دهب في تعجُّب:

- ولكنَّ ماءَ البحر مالحٌ يصعُب أن يروِينا ويبدِّدَ عطشَنَا.

وتدخَّل البحار «سلومة» في الحوَار قائلاً:

- ما دَامت أجسامُنا محتفِظَةً بمائها بعد ولم تَفقِدْه، فيمكِنُ أن نشْرَب ماءَ البحر لأكثرَ من ثلاثة أسابيع.

وقال «عنّون»:

– ويمكن أن نَعيش على أكْل أسماكِ البحر وحيواناتِه وطحَالبِه لأكْثرَ من ثلاثَةِ أسابيع أيضًا.

وأكمَل «بركة»:

– لقد مَرَّت بنَا خبراتٌ سابقَة مثل ما نَحْن فيه الآن، وكَتَبَ اللَّهُ لَنَا السلامة، المهمّ ألا نيأَس، بل يَجبُ أن نَثِقَ في أنفُسنا ونَدعُو اللهَ – عز وجل – أن يبلِّغَنَا النجاة، والبقَاء علَى قَيْد الحياة.

وبعدَ قَليل نَزَل كلٌّ من «سلّومة» و«عَنّون» البحْرَ يبحَثَان عَن أسماكٍ وحيواناتٍ بحريةٍ وطحَالبَ عالقَة، وبعدَ عدّة محاوَلات استطَاعَا أن يحصُلا على بعضِ الأسْماك ومعَها سلحفَاةٌ بحريّة متوسّطةُ الحجم، وبعضُ الأعشَابِ البحرية.

وبدَ الجميعُ في تنَاوُل أوَّل وجْبة بحريَّة نَيّئة، وكانَ الأَمْرُ صَعْبًا فِي أوَّلِ الأمْر علَى «دهب»، ولكنّه فعَلَ مثْلَ البحّارة، وأكلَ السّمكَ ولحمَ السلحفَاة النَّيئ وذاقَ طعمَ الطحَالب البحرية، ثم شَرب من مَاءِ البحرِ المَالِح، فليسَ الأمرُ متعلّقًا بأنه غَيرُ مستَسَاغٍ، ولكنَّ الأمرَ متعلقٌ بأن يكونَ هُو على قيدِ الحيَاة أم لا.

وما إن جَنَّ الليلُ حتى كانت السَّماء صَافيةً والنجومُ تتلألأ بشكْل وَاضح. وبعْد فحْص لهذه النجوم من قِبَل البحّار الخبير «بركة» بيّن لَهم أن وِجهَتَهم ستكونُ نَاحيَة الشّمال الغَربي، حيثُ توجَد أقربُ جزيرة منهم وهِي جزيرة «المورين» التي تبعُد حَوَالي مائةَ ميلٍ عنهم، ويمكنُ قطعُها فيما يقرُبُ من عَشْرة أيّام إذا سَاروا في الاتجاه الصحيح.

وتَجَدَّدَ الأمَلُ في البقَاء على قَيْدِ الحيَاة، وتَمَّ تَقسيمُ العَمَل علَى الأربَعَة من حَيثُ التجديف، والحصُول على الغِذَاء البَحْري، وفتَراتِ النَّوم والراحة.

ومرَّت الأيامُ ثَقيلةً ولكنّ الأملَ في النجاة كانَ دَافعًا قويًا للجميع، فَبذلُوا مَزيدًا من الجَهْد ليصلُوا إلى جَزيرة «المورين» في أقلّ زمَنٍ ممكن.

وفي أَحَد الأيّام، وبَينَمَا كانَ «سلومة» يبحَثُ عن الغِذَاء البَحْري؛ فإذَا بإحدَى أسمَاكِ القِرش المتوحِّشة تُهاجمُه، ودَافع البحَّارُ عن نفْسه بالسِّكين التي يحملُها، ورغم أنّه أصَاب سمَكَةَ القرْشِ في عيْنِها، إلا أنها استطَاعَت بأسنَانِها الحادَّة قطْعَ ذرَاعِه اليسرى.

وفرّت سمكَةُ القرْشِ المصَابة، ونَزَلَ كُلٌّ من «بركة» و«عنّون» ليُنْقِذَا صاحِبَهما من الغَرَق، وصعَدَا به إلى القَارب، وصرَخ «دهب» من فَظَاعَةِ مَا شَاهَدَه، فهذا «سلومة» بلا ذراع يُسرَى والدماءُ الغزيرَةُ تتدفَّق من كتفِه الأيْسَر علَى باقي جسْمِه، وهو يصرُخ من شِدَّة الألم.

وحاوَلَ «بركة» بمسَاعدة «عنّون» أن يُوقِفَ نزيفَ الدم المنهَمِر فلم يفْلِحَا، وفقَد «سلومة» كثيرًا من الدَّم، وبدأ يروُح في حالَة إغْماءَة، وبدأت صرخاتُه تقلّ شيئًا فشَيئًا حتى صَمت، وأصبحَ في حالَة احتِضَار، وتمتَم ببضْعِ كلمات ثم فَاضَتْ روحُه إلى بَارئها.

ولم يصدِّق «دهب» ما حَدَثَ لعم «سلّومة» الذي مات في لَحَظات، فهو كَانَ مَعَهُم منْذُ دقَائق يتحدَّث ويضْحَك ولم يكنْ يعلَمُ أن أجلَه سينتَهي بعدَ دقَائق، وبكَى «دهب» كثيرًا، وبكى أيضًا «بركة» و«عنّون» بكاءً حارًا، وبعدَ قليل هدَأ الجميع لِعلْمهم أن هذَا هو القضَاءُ والقَدَر، وهذِه هي مشيئَةُ الله تعالى.

وأفهمَ البحَارُ «بركة» الفَتَى «دهب» أنه يجبُ عليه التحلِّي بالصبْر والاحتِمَال في مِثْلِ هذِه المَوَاقِف الرهيبَة، لأنَّه قَدرُ اللّه الذي ينْبغي الامتِثَالُ له بالصَّبر والرِّضَا.

واقتَنَعَ «دهب» بكلماتِ العَزَاء هذِه، وامتثَل لقَضَاءِ اللّه عزَّ وجل.

وبدأ العملُ مرةً أخرى بالتجديف بكلّ همة في اتجاهِ جَزيرة «المورين»، والتي لم يبقَ للوصُولِ إليها سوَى يومَين أو ثلاثَةِ أيّام.

وبينَما هُم يبذلُون قُصارَى جَهدهم في التجديف في قُوة وإصرَار، ظَهرتْ على سَطْح البحْر سمكةُ قرشٍ شَرِسة فجأة، وأخذَت تهاجِمُ قَارِبَهم بعُنف.

وصَاحَ البحّار «بركة»:

- سَمكةُ القرشِ هذِه لهَا عَلاقةٌ بسمكةِ القِرش التِي أصَابها «سلّومة» في عَيْنِها، وجاءَت للانتقَام منّا.

وصَرخَ «دهب»:

- وكيفَ لنَا أن نُدافِع عن أنفسِنا ضِدّها؟

وردّ «بركة»:

- سندَافِعُ عن أنفُسِنا بواسِطَة المجاديف.

وخلَع «بركة» أحدَ المِجْدَافَين، وخلع «عنّون» المجدَاف الآخرَ، وبدأَت المعرَكَةُ بينهُمَا وبينَ سمكةِ القِرش المتوحّشة. فكلَّما اقتربت من أحدِ جانبي القَارب تلقَّت ضربةً قويةً بمجدَافٍ إمّا من «بركة» أو من «عنّون». فتبتَعِد عن القَارب، ويظنُّ الجميع أنها ستتركُهم وتنسَحِب من المعركة، وما هِي إلا لحظات حتّى تهاجِمَ القاربَ مرَّةً أُخرَى.

كلُّ هذَا و«دهب» في حَالة رعْبٍ وفزَع خوْفًا من أنْ يَلْقَى هُو، أو أَحَدُ البحارين مَصيرَ «سلومة».

وطالَت المعركةُ دونَ حَسْم، وأُنهكَت قُوَى كلٍّ من «بركة» و«عنّون»، ولَم تعُدْ هناك قدرةٌ على استمرَارِ موَاجَهة هذِهِ السمَكة المتوحِّشة التي تهاجِمُهم في عِناد وإصْرار وكأن بينَهما ثأرًا كبيرًا تريد أن تخلّصَه منهم.

وتضَرَّعَ «دهب» إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - ورفَع يدَيه إلى السماء وأخذَ يَدعُو:

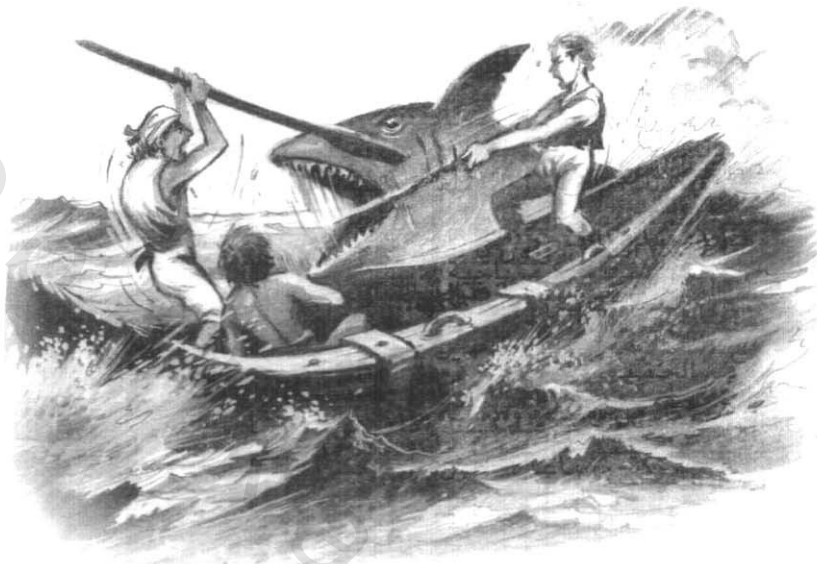

- اللهمّ يا ربَّنا .. يا سَامعَ الدُّعَاء.. نجّنا مما نحنُ فيه، فأنتَ وحدَك القَادرُ على هذا .. اللهمَّ أبْعِد عنا هذا الخطَر، فأنت على كلِّ شيءٍ قدير.

وكَرَّر «دهب» هذَا الدعَاء، وَالمعركةُ على أشدِّها، وهو علَى يقِين من أن الله - تعالى - سيستَجيبُ له، ويخلّصُهم من هذَا الكرْب، فهذَا ما كَان يشعُر به وهُو يدعُوه مخلصًا.

وفي لحَظة لمحَ «دهب» عن بُعد سفِينةً، فصَرخ:

- عمي «بركة» عمي «عنْبَر» سَفِينة في هذَا الاتّجاه.

ونَظَر الرجلان ناحِية مَا أشارَ إليه دَهب، فوجَدا بالفعْل سفِينَة، فصَاحَا:

- الحمد للّه .. الحمد للّه ..

وأخَذَ «دهب» يلوّح بيديْه ويصيحُ ناحِية السَّفينة:

- أنقِذُونا .. أنقِذُونا .. نحن هنا .. أنقِذُونا ..

مع هذا الصياح استمرّت المعركةُ بين سمكةِ القرش العنيدَة وكلّ من «بركة» و«عنّون» وكانَت المفاجأةُ المذهلة، عندما بدأتْ السفينة تقتَربُ منهم، وصاح «دهب» في فرح:

- لقد شاهَدُونا .. وسينقذُوننا..

ومع وصُول السفينة إليهم وقد تَبيَّن بحارتُها الموقفَ مع سَمكة القرش المتوحِّشة انطلَقت رمَاحُهم ناحيتها فأُجبرَت على الفرار. وتم انتشَال الثلاثةِ من القَارب ولم يصدّق «دهب» عينَيه وهو على سَطح السَّفينة أنهم قد نجوا من موتٍ محقق وأخذ يتمتِمُ في نفسِه وقبل أن يَرُوح في إغماءة مِن شدّة التعَب والإعياء:

- الحمد للّه .. الحمد للّه ..

وعَرَفَ أصحابُ السفينة ما حَدَث لهؤلاءِ الثلاثَة، فأنعَمُوا علَيهم بالمأكَل والملْبَس وأفهمُوهم أنهم علَى مسيرةِ يومٍ واحد من جَزيرة «المورين».

وعندمَا رَسَتْ السفينةُ على شَاطئ الجزيرة، دلَّ بعضُ البحارة الثلاثة على مكان التاجر «مانسو» واسع الثراء، والمشهُود له بطِيب خلُقه ومحبّتِه للخير لكي يعمَلوا عنده لكسْب قُوت عيشهم.

وبالفعل ذهَب الثلاثةُ إلى التَّاجر «مانسو» وحَكُوا له حكَايَتهم، وطلَبُوا منه إيجادَ عمل لَهم عنده. فقَبلَهم التاجرُ على الرحْب والسّعة، وأوجَد لَهُم عملا يتقَاضَوْنَ علَيه أجرًا مناسِبًا يُعيِّشُهم عيشةً طيّبة.

وهكَذَا استقرَّ المُقَام بالفَتى «دهب» فى جَزيرة «المورين»، واستقرّت مَعِيشَتُه مع كلٍّ من «بركة» و«عنّون»، بعد أن أمْضَى زمنًا طويلاً في مُعَاناة ومشقّة وعبودية وتعرُّض للموْت والهَلاك.

صافية

في «الجزيرَة المتحرّكة» استمَرّ «شمنجو» عدّةَ أيام يكتسِبُ في كلِّ يوم لبعْضِ الوقْتِ الطاقَةَ الإشعَاعِية ذاتَ اللوْن البنفسجي الباهرِ المنطَلِق من تَلامُس الكُرات الثلاث: كرة الياقُوت الأحْمر، وكرة الكهرمَان الأصْفر، وكرة المرجَان الأبْيض.

وبعْدَ انقِضَاء هذه الأيّام عَادَ «شمنجو» إلى كَامل قُوّته وصحَّته وشَبَابه، وزَالت كافَّة تجاعيد وجْهه ويديه، ورَأى «حكيم» فيه شخْصًا مخْتَلِفًا تمامًا عَمّا رَآه سَابقًا. فها هُو رجلٌ كامِلُ القوّة والصحّة والشبَاب بعد أن تَمَاثَلَ تَمامًا للشِّفَاء، وذَهَب مرضُه وولَّى بلا رجْعَة.

وقَرَّر «شمنجو» مُغادَرَةَ الجزيرة المتحرّكَة معَ «حكيم»، وبينَمَا هُما يستعدَّان لهذِهِ المغَادَرَةِ فإذَا بهزَّة أرضية شَديدة نتَجَتْ من زلزَال قويٍّ تعرضَت

لهُ الجزيرة، وكالعَادَة تساقَطَت صُخُور، وهوَتْ أشْجَار، وتشقَّقَت الأرْض، فأخَذَ «شمنجو» و«حكيم» يسرِعَان الخُطَى نَاحيَةَ السفينةِ الصَّغيرة المخبَّأة، وبعْدَ مشقَّة وتعثُّر وقَلَق وصَلا الاثنَان إلى مكَان السَّفينة وهي رَاسِية على أحَدِ شُطْآن الجزيرة، فركبَاهَا وبَدأ «شمنجو» في رفْع أشْرعة السَّفينة ليدْفَعها الهواءُ بعيدًا عن جَزيرة الموتِ هذه، وهما لا يصدِّقَان نجاتَهما منها.

وما هِي سِوَى ساعَات قليلة حتى اختفَت معَالِمُ الجزيرة تمامًا، وشَقَّت السفينَةُ ميَاه البحر في طريقها إلى بلْدة «بارتولي» ناحِية الشَّمال حَيْثُ تَعيشُ أسْرةُ «شمنجو» وأهلُه وعشيرتُه.

وتحدَّث «شمنجو» إلى الفتَى «حكيم» بأنه ذَاهب إلى بلْدته وأهْله في الشَّمال بعد أن حقَّق هدفَه واستردَّ قوتَه وصِحَّته، فهلْ يصْحبُه في هذهِ الرحْلة؟.

وأوضَح «حكيم» له أنه سيذْهَب جنُوبًا ليبحَثَ عن سَيِّده «دهب»، وأنه مَع أولِ سفينة يشاهِدَانها متجهةً نحوَ الجنُوب سيستَقلّها.

وبالفِعل بعدَ عِدة ساعاتٍ قلِيلة ظهرتْ سفِينة تِجارية كَبيرةٌ متجهةً من الشّمال إلى الجنُوب، فاتجه «شمنجو» بسفِينَته ناحيَتها. واستعدّ «حكيم» لِفراق «شمنجو» الذي عَانَقه طَويلا شاكِرًا ومقَدِّرًا له صَنيع عَملِه في إنقَاذ حَيَاته، وتعرُّضه للموْتِ أكثرَ من مَرة في سبيل ذَلك. وأعطَى «شمنجو» الكراتِ الثلاثَ لـ «حكيم» جزَاءً علَى شَهَامَته، وأوصَاه بأن يُخفِي سرَّها، فلا يَبُوحُ لأحَدٍ عنها، كما أوصَاه أن يجعلَها متفرِّقة طالمَا أنها لا تُسْتَخْدَمَ في إنتَاج الطاقة البنفسجية العجِيبَة.

وعندمَا اقتربَا من السَّفِينة التجارية، نادَى «شمنجو» على بحَّارتها وأفْهَمَهُم بأنّ هناك فَتَى صغيرًا يودّ أن يرحَل معهُم ناحيةَ الجنوب، فوافَقُوا علَى ذلك، وما هِي سوى لحظَاتٍ حتى حانَتْ ساعَةُ الفِرَاق، وتساقَطَتْ الدمُوع من

عَيني «شمنجو» و«حكيم»، وفي وداعٍ مؤثِّر تمنَّى كلٌّ منهما للآخَر التوفيقَ والسَّداد في حيَاته.

وصعَد «حكيم» إلى السفينَة التجارية، وسلَّم على قبطَانها وبحَّارتها، ثم أخَذَ يلوّح بيدِهِ لـ «شمنجو» مودعًا الوداع الأخير، وذلك فى أثنَاء ابتِعاد سفينَته الصغيرة شَيئًا فشيئًا حتى اختَفَتْ عن الأنْظَار.

وأكرمَ البحارةُ ضَيفَهم الصغِير، ذلكَ الصبيَّ الشُّجاعَ الذي يَجُوب البحَار بحثًا عن صَاحبِه «دهب» الذي صَار بواسِطَة القَرَاصنة عَبْدًا من العَبيد.

وبعْد عدّة أيَّام وصلَت السفينَة التجارية إلى بلْدة «المرْسى»، فودَّع «حكيم» القبطَان والبحّارة وشكرَهم على حُسن ضيَافتهم له، ونَزَل إلى هَذِهِ البلْدة لعلّه يعرِف شيئًا عنْ «دهب».

وفِي سُوق البلْدة، حاوَلَ «حكيم» الاستفْسَار عن سفِينة القَرَاصنة، ولكن أخبره كلّ من سَأله، أن هذِهِ السفِينَةَ لم تأتِ إلَى بلدتهم.

وتعرّف «حكيم» في سُوق البلدة على تَاجر يُدعَى «شَامِس» فحكَى له حكَايَتَه وسبَبَ وجُوده بمفرده في هَذِهِ البلدة، وسَأَلَ التَّاجِر أن يعاونَه في إيجَاد عَملٍ مناسِبٍ له، فسألَهُ التاجِر «شامس»:

- هل تجيدُ يا ولَدِي عملاً مفيدًا؟

فأجابَ «حكيم»:

- نَعَم أُجيدُ عملا مفيدًا.

- وما هُو؟

- أُجيد صُنعَ السِّلالَ من فُروع الأشْجَار.

فسأله «شامس» أن يصْنَع له سَلّة واحدة كنموذج ليتعرَّف علَيها وعلَى استخدَامَاتها.

وبالفعْل قَام «حكيم» وجَمَعَ بَعْضًا من فُروع الأشْجَارِ وقَام بصنَاعة سَلّة كما علّمته أمُّه «سارة» في بلدَتهم «ضَيّ الفنَار».

وأُعجبَ التَّاجرُ «شَامِس» بفكرةِ السَّلَّة ودِقَّة صُنعها، حيثُ لم تكُنْ مَعروفةً في بلدَتهم قبلَ ذلك. واتَّفَقَ مع «حكيم» على توفير فُروع الأشْجَارِ اللازمَة لعمل السِّلال التِي يقُوم «حكيم» بصُنعها، ويقُوم هو بتسويقها وبَيْعها، ويقتسِمَان مَعًا ثمن البيع.

وبالفعْل بَدَأ «حكيم» والتَّاجر «شَامِس» في تنْفيذ مشرُوعهما الجديدَ، ومع مُرور الأيام أقبلَ الناسُ على شِرَاء السِّلال، وأصبحَ الربحُ وفيرًا، مما حفَّزَهُما على توسيع هذا المشرُوع، فقَام «حكيم» بتعليم بعْض العُمَّال التَّابعين للتاجر «شامس» على صنَاعة السِّلال، فزادَت كميات السِّلال المعرُوضة للبيْع، وراجَتْ هذه السِّلعةُ وسَعِدَ كلٌّ من «حكيم» و«شامس» بهذه النتَائج الباهرة. ومرَّت الشهُورُ علَى هذَا الحال، والأُمورُ تسير من أفضَل إلى أفضَل، ومعَ هذَا لم ينْسَ «حكيم» صاحبَه «دهب»، فكَان دَائمَ السؤَال عنه لبحَّارَة السُّفن التِي تأتي إلَى بلدَة «المرْسى»، وهلْ عنْدَ أحدِهم أخبارٌ عن «سفِينَةُ القراصنة»، ولكن لَم يُجبْ أحدٌ عن هذهِ التساؤُلات.

وفي أحَدِ الأيام عندمَا كَان «حكيم» يسِير في الطَّريق مع التَّاجر «شامس»، إذا بموْكب حاكِم البلْدة يمرُّ علَيهما، حيثُ يَستقلّ الحاكمُ عَربةً فاخرة تجرُّها الجيَاد، وتصحَبُها بعضُ العرَبَات الفاخِرة الأخرى، والتِي تُشكِّل في مجمُوعها هذَا الموكبَ المهيبَ.

وفي أقلّ من لَحْظَة لمح «حكيم» وجْهَ الحاكِم وقد بَدَتْ عليْه مظاهِر الجديّة التي يشُوبها بعضُ الحزنُ، وكأن شيئًا ينغِّصُ عليه حياته.

وعندمَا مَضَى الموكبُ لحالِ سبيله قالَ «حكيم» للتَّاجر «شامس»:

- ما أعرفُه عن حكّام البلاد أن يكونُوا سُعَدَاء، فرحِين بما آتَاهم اللَّهُ من فضْلِه من جَاهٍ وسُلطانٍ وأموالٍ، ولكن يبدو على هذَا الحاكِم الحزنُ والألمُ.

- نَعَم يا وَلَدِي، فإن هذَا الحاكمَ يعيشُ في مآساة.

- مأسَاة !! وما هذه المأسَاة ؟

- لقد كانَت له زَوجةٌ في غايَةِ الحسْنِ والجَمَال والخُلق القَويم، عَاشَ مَعَها في سعَادةٍ ونَعيم، وممَّا زادَ من هذهِ السَّعادَةَ وذَاكَ النعيمَ أن رزَقَهما اللَّهُ ببنتٍ لهَا جمالُ أمِّها وحسْنِها. ولكن أصيبَت الزوجَةُ بمرضِ الهزَال، ولم يُفلِحْ الأطبَّاءُ في عِلاجها، وصارَت في حَالَة ضعْفٍ يزدَاد يَومًا على يَوْم حتى تُوفِّيت، وكانَ ذلكَ من عدَّة سنوات مَضَت.

- وهلْ هوَ حزينٌ عليها طَوالَ هذهِ السَّنوات؟

- بل هوَ حَزِينٌ على ابنَتِهِ الوحيدَة «صَافية».

- صَافية !!

- نَعَم هذَا هو اسْمُ ابنة الحاكِم وهيَ تبلُغ من العُمْر الآن حَوَالِي عشْرَ سَنَوات وقد أُصيبَت بنفْسِ مَرض أمِّها «الهزال» منذُ عدّة شُهُور، وأحضَرَ لها أبُوها أطباءَ مِن بلادٍ بعيدة، ولم يفْلِحْ أحدٌ منهم في عِلاج هذَا المرض اللَّعين.

وتأثَّر «حكيم» كَثيرًا لمَرَض بنْتِ الحاكِم «صَافية»، وكيفَ أن أحْزَانَ وَالِدها ستتَضَاعَفُ إذا رَحَلَت كما رحَلَت أمُّها. وأخَذَ بين الحين والآخَر يقَارِنُ بينَ أعْرَاض مَرَض الهُزال الذي أُصيب به «شمنجو»، ومَا وصَفَه التَّاجر «شامس» من أعْرَاض مَرض الفتَاةِ الصَّغيرة «صَافية».

وهنَا لَمَعَتْ في ذهنِ الفتَى فكرةٌ راقَتْ لَه، وهيَ أن يستَخدِم الكُراتِ الثلاثِ في عِلاج «صَافية» بنت حَاكِم البلْدة. فإذا نَجَحَ في عِلاجها، يكُون قد أسْهَمَ في عِلاج مَريضةٍ من مَرَضِها، ويُعيد الفرحَةَ والابتسَامَةَ إلى أبيها. وإذا لم ينجحْ في العلاج فيكفيه أنه حَاول مثلَ الآخرين وفشَل.

وبعْدَ أن اتَّخذ قرارَ المحاولَةِ، وعَزَم الأمْرَ وتوكَّل على الله كَاشَفَ التَّاجر «شامس» برَغْبته في القيَام بهذهِ المحاوَلة قائلا:

- عم «شامس» أودّ أن أذْهَب إلى قَصْر حاكم البلْدة.

وتعجّب «شامس» فهذَا الطَّلب وقَال:

- قصْرُ حاكم البلْدة !! لمَ يا ولَدِي حكيم؟ وما لَنَا نَحنُ وحَاكِم البلْدة!!

- سأحَاول أن أعْرِضَ علَيه محاولةَ عِلاجِ ابنَتِه «صافية».

- وهل أنتَ على علْم بالأمْرَاض وطُرقِ عِلاجِها؟

- لا .. ولكن بالنِّسبة إلى مَرضِ الهزَالِ هذَا، فقد تعلَّمت شيئًا عن عِلاجه.

- وأين تعلَّمت هذا؟ وكيف يمكنُك علاجُه؟

- أرجوكَ يا عم «شامس»، هذا سِرٌّ قد أقسَمتُ ألا أبُوحَ به.

- وهو كَذلك.. لكن هلْ أنت متأكدٌ من طريقَة العِلاج؟

- لا .. لا أستطيع أن أدّعِي بأني متأكِّد، ولكنَّها محاوَلةٌ وقد تَنْجح.

وبعْدَ مناقَشة وحِوَار اقتَنَع «شَامس» بإجْرَاء المحاوَلَة، وبالفِعْل صَحِبَ الفتى الجرِيء «حكيم» - وهوَ يحْمِل في الخَفَاء الكرَاتِ الثلاثَ - وذهَبَا إلى قصْرِ حَاكِم البلْدة، وطلَب من المسئُولِين مُقابَلَةَ الحاكِم لأمْرٍ في غَاية الأهَميَّة.

وبعدَ قَليل أقبلَ الحاكمُ علَيهما ليعرِفَ سببَ هذِهِ المقَابلة، وما هُو هذَا الأمْرُ البَالغُ في الأهميّة، وقالَ لهما:

- ماذَا تريدَان؟

قالَ «شامس»:

- سيدي الحَاكِمُ، هذا الفَتَى الصغير يُدعَى «حكيم» وهوَ في مَثَابة ابْني، وقَد أتى مِنْ بلادٍ بعيدة، وهوَ يدّعي قُدرتَه على عِلاجِ ابنتِكم الغَالِية الأميرة «صَافية» شفَاها اللَّهُ وعافَاها.

ولم يصدقْ الحاكمُ كلامَ التَّاجر «شامس»، فنظَرَ في رِيبة إلى «حكيم» وقالَ لَه:

- كيفَ تعرفُ علاج حَالة ابنَتِي المريضة بمرضٍ مستعْصٍ حَارَ فيه الكثير من الأطبَّاء، وأنْت في هذهِ السنّ الصغيرة؟

وفي أَدَبٍ جَمٍّ وثِقَةٍ في اللّه تعالَى وفِي النَّفس أجَابَ الفتَى:

- سَيِّدي الحاكمُ، لقد مَرَّ بعزيز لَدَيّ مِثلُ هذَا المرض، وعرفْتُ سِرَّ علاجه، ولكن أخذْتُ على نفْسِي عَهْدًا بألا أُفشِي هذَا السِّرَّ لأحد كمَا أوصَانِي به من علّمني هَذَا العلاجَ، فأرجُوك، أودّ المسَاعدةَ فِي عِلاج هذهِ الحالَة دون أن أُفشِي هذَا السِّر.

وتعجَّبَ الحاكمُ لكَلام هذَا الفتَى الصَّغير، ولكن وجَدَ فِي رنّةِ صوْتِه الصِّدقَ والثِّقَة والأمَانة، وارتاحَت نفسُه له، وفكَّرَ بُرهة من الوقتِ وتسَاءَلَ بينه وبينَ نفْسِه: هل يمكنُ أن يقُومَ هذَا الفتَى الصغيرُ بما لم يستَطعْه نخبَةٌ من الأطبَّاء الحاذقِين في مِهنَتِهم؟ وأجَابَ فِي نفسِه: جَائِزا! فلَعَلَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى استجَابَ لدعائِه الطويل فأرسلَ هذَا الفتَى الصغيرَ لينقِذَ ابنتِي الوحِيدَةَ من هذَا المرضِ القَاتِل.

وهنَا أعطَى الحاكِمُ أمْرًا لمن حولَه:

- أحضِرُوا «مَريُوم» مربِّية ابنتِي الأميرة «صافية».

وجاءَت المربِّية، وهيَ سيِّدةٌ في الأربَعين من عُمْرِها، طيِّبةُ القلب، وتعتَبِرُهَا «صَافية» في مكَانَةِ أمِّها. فقَالَ لهَا الحاكِمُ:

- خُذِي هذَا الفَتَى إلى حُجرة ابنَتِي «صَافِية» فإنّه يدّعي قدرَتَه على عِلاجِها.

ودُهِشَت المربيةُ لقَولِ الحاكِم، وظهرتْ علامَات الدَّهشَةِ على وجْهِها ولكنَّها لم تعلِّق علَى أمرِ الحاكم وقالتْ:

- سمْعًا وطاعةً يا سَيِّدي الحاكِم.

وتحركَت المربيةُ «مريوم» ومعَها الفتَى الصغيرُ «حكيم» - وهو يحْمل في الخَفَاء الكُرَاتِ الثَّلاث - وسَارَا في دهَالِيز القَصْرِ وطرقَاتِه حتى وصَلا إلى جَنَاح خَاص يتضمَّن حُجرة نوم الأميرة «صافية»، فدخَلا الجنَاح ومنْه توجَّها إلى حُجْرة الأميرة، وتحركَا في بُطءٍ حتى وصَلا إلى سريرٍ كبيرٍ فاخرٍ تَرقُد علَيه الفتَاةُ الصغيرةُ المريضَة «صافية»، وبالرَّغْم من ضَعْفِها وهُزَالها إلا أنها احتفَظَت بجمَالِها البَاهِر، وكأنَّها القمرُ ليلةَ التمام، وكانت مغمضة العينين.

فقالَت لها المربية «مريوم»:

- سيِّدتي الأميرَة.. هذَا الفَتَى الصَّغِير جَاءَ ليرَاكِ.

وفَتحتْ «صافية» عينَيْها، ونظرتْ إلى «حكيم» فارتَاحتْ نَفْسها إلى وجْهه الأسْمَرِ الجَمِيل وتوسَّمت فِيه الخيرَ، فابتسَمَت ابتسَامَةً شَاحِبةً، وأومأَت بتعبيرَات وجْهِها مُرحِّبة به.

وأشفَقَ «حكيم» علَيْها غَايةَ الإشْفَاق من هَذَا المرض اللَّعِين الذي جَعَلَ هذِهِ الزَّهْرَةَ اليانِعَةَ في طريقِها إلَى الذبُول، وتشجَّع قائلا:

- السلامُ عليكُم ورحْمَةُ اللهِ سَيِّدتي الأميرة.

وفي صوْتٍ خَافِتٍ ضَعِيف قالَت «صافية»:

- وعليكَ السَّلام يا أخي .. ما اسْمُك؟

- اسمِي .. حكيم ..

- وماذَا تريدُ منِّي يا حكيم؟

- سَيّدتي، سأحَاول علاجَ مَرضَكِ هذَا، وبإذْن اللَّه تعالى، سَيتمُّ شفَاؤُك.

- ولكنّك يا حكيمُ صَغيرُ السن، فكَيْفَ اكتسَبْتَ علْمَ الأطبَّاءِ هَذَا؟

- لا يا سَيدتي أنا لم أكتسِبْ علْمَ الأطبَّاء، ولكنني أعْرِفُ فقَط عِلاج حالَتِك.

ورغْم عدمِ اقتِنَاع الأميرةِ المريضةِ بكَلام «حكيم» إلا أنَّها وجدَت في هذَا الكَلامِ الصدقَ والثقةَ، فقالتْ بصوتٍ ضعيفٍ وَاهن:

- وهو كَذلك يا «حكيم»، هاتِ مَا عندَك من عِلاج.

- ولكن يا سَيدتي إن طَرِيقَة علاجي سرٌّ من الأسْرار لا أُريدُ أن يطّلع عليه أحَد.

وفهِمتْ الفتَاةُ المريضَة ما يقْصِده فأشَارَت إلَى مُربِّيتها «مريوم» أن تتركَهُما بمفرَدِهما، فتحرَّكَت المربِّية ولكنها وقَفَت عنْدَ بَابِ الحجْرة تُراقِب الموقِفَ في حَذَر.

واقترَبَ حكِيم في رِفق من «صَافية» وقَال:

- سَيدتي .. قَبْل أن أبْدَأ العلاج أريدُك أن تُقسِمِي لِي بأنْ يظَلَّ سرُّ هذا العلاج بيننَا فقط، وألا تَبُوحي به لأيِّ أحدٍ مهما كَانَ، وإن لم تُقسِمِي على ذَلك، فلنْ أفْعل شَيئًا، وسأذْهَب في التوّ إلى حَال سبِيلي.

فقَالَت الفتاةُ بنبرَةِ صِدْق:

- أقسِمُ لكَ يا «حكيم» إنني لنْ أُفشِيَ سرَّ هذَا العِلاج لأحدٍ مهما كَان.

وهنَا أخْرَجَ «حكيم» من جُيوبه الكُراتَ الثلاث: كُرَةَ اليـاقُوت الحـمراء، وكُرة الكهرمَان الصفْراء، وكرةَ المرجَان البيضَاء، فانبهَرَت «صَافِية» بهذِهِ الكُرات العجيبَة. ووضَعها «حكيم» علَى جَسَدِ «صـافيـة» وجعَلَها تتلامَس مَعَ بَعْضِها البـعْض، وسطعَتْ منهـا هذِهِ الأشـعّة البنفسجـيـةُ الغـريبـةُ، وانْطَلَقَت منهـا تلكَ الطاقَـةُ العـجـيـبـةُ، وشـعَـر «حكيم» أن الفـتَـاة قـد أصَـابَهـا شَيءٌ مِن الخـوْفِ والاضطِراب، فحَاوَلَ أن يشجِّعَها قائلاً:

- لا تَخَافِي سيدتي.. والآنَ ضَعِي كِلتَا يَدَيْكِ على هَذِهِ الكُرات الثلاث.

وفي تَعجُّب ورهْبَة ممَّا يحدثُ أمسكَت الفتَاةُ الكراتِ الثلاث بكلتَا يديْها فشعَرَتْ وكأنّ أشعةَ الحياةِ تسْرِي في جسَدِها تحاول أن تقْضِي على بَرَاثِنِ هذا المرضِ اللعِين الذِي أصَابَ جسدَها النَّحِيل.

ومَرَّت حَوالِي الساعة على هَذِهِ الحالة، والأميرَة «صَافِية» تشعُر معَ مُرورِ الوقْتِ أنها تستَعِيد قوتَها وصحّتها، وتملّكتها سعَادة لا تُوصَف من هَذِهِ النتِيجة الرَّائِعة وهذَا العِلاجِ النَّاجع.

وقَـامَ «حكِيم» برفْعِ الكرَاتِ الثـلاث من بيْن يَدَي «صَـافِيـة» ووضَـعَـهـا منفَصِلَةً في جُيوبِهِ وقَالَ:

- يَكْفِي هَذَا اليومَ يا أَميرتي العزيزة.

- الا تستَمرَّ فِي هـذَا العـلاجِ وقْتًا أطولَ من هذَا؟ لقد شَـعُرتُ بتحسُّن سَرِيع.

- سيدتي.. التعرّض للطاقَة العجيبَة المنطلقة من هذِهِ الكراتِ الثلاث لهُ حُدود، فـلا يَجبُ أن نتجاوَزَ هذِهِ الحدُود، وستكونُ هنَاك إن شَاء اللَّه جلَسَاتٌ يوميّة لاستكمَالِ العِلاج حتَّى يَمُنّ اللهُ علَيكِ بالشِّفَاء الكَامِل.

فشَعَرت وكأنّ أشعِّة الحيَاة تسْرِى فى جَسَدها

- شُكْرًا .. شُكْرًا لكَ يا حكِيم، إنني لا أستَطِيع أن أعبّر عَن امتِنَانِي وتقدِيري لك.

- لا شكْرَ على وَاجب.. والآن هلْ تـأذنين لِي بالانصِـرَاف؟ على أنْ أعُـودَ غدًا بمشيئة اللّه في الميعَادِ نفْسِه.

- تفضّل يا حكيم.

- ولكنْ أرجُو أن تتذكّري ما أقْسَمْتِي عَلَيـ.

- لن أنْسَى ذَلك أبدًا..

ونَادت «صَافِيـة» علَى المربِّيـة «مـريوم» أن تصْطَحِب «حكيمًـا» ليعُودَ إلى المَكَانِ الذِي أتَى منه. ودُهِشَت «مـريوم» من تحسُّن حالةِ «صـافية» الصحِّية، فقد دَبَّت الحياة في جَسَدِها النَّحيل، وظَهَر هَذَا وَاضِحًا على وجْهِهَا الذِي بدأَ يعُودُ إليه إشرَاقَهُ، فقالت:

- لقد أَصبحْتِ في حَالةٍ صحيَّة أفضَل يا أميرتي.

فابتسَمَتْ الفتَاةُ فزَادَتْ البسْمةُ وجهها جمَالاً وإشراقًا، وقالَتْ:

- هذَا بفضْلِ اللّه تعالى ثم بفَضْلِ علاج «حكيم» الباهر.

وذَهَبت «مـريوم» مـع «حكِيم» إلى مكَان الحـاكمِ والتَّـاجـر «شـامس، ونظَر إليْـهَـا الحـاكمُ نظرةً يحـاولُ بهَـا أن يسـتطْلِعَ الأمـرَ من خِـلالِ نظَرَاتِ عـينيْـهَـا، فوجَدَها تبتَسِم وينطلِقُ البِشْر وَالسُّرور من وَجهها، فاستبشَر الحاكم خيْرًا وقالَ للمربِّية:

- ماذَا ورَاءَك يا مَريوم؟

- في الحقِيقـة يا سَيِّدي الحاكم، رغم قِصَـر وقْتِ العِلاج؛ إلا أن نتَائِجه مُبهِرة.

فَصَاح كلٌّ من الحاكِم و«شَامس» في سُرور:

- الحمدُ للّه .. الحمدُ للّه ..

وقالَ الحاكمُ في امتنَان وسُرور:

- أحسنْتَ يا ولَدي، لك عنْدي مكَافَأةٌ كَبيرةٌ.

فردَّ «حكيم» في تواضُع:

- مكافأتِي يا سَيِّدي الحاكِم أن يَمُنَّ الله تعالى بالشفَاء الكامِل على الأميرة «صافية».

- باركَ اللَّهُ فيكَ يا ولَدي.

- اليومُ كانَ بدايةَ العلاج، وسوفَ أحضُر غدًا بإذن اللَّه في الميعَاد نفْسه لنكمِّل جَلَسَات العِلاج.

وعادَ «حكيم» مع التَّاجر «شامس» فَرِحًا مسْرورًا بهذهِ النتيجة، وأوضَح للتَّاجِر أن العِلاج بدأ يأتِي بنتَائجه الإيجَابية سَريعًا. وسُرَّ «شامس» بهذَا كثيرًا ولم يحاولْ أن يسألَ «حكيم» عمَّا فعَلَه.

وأسرَعَ «الحاكم» إلى ابنَتِه فوجَدَها قد تحسَّنت للغَاية، وقد غادَرَت سريرَها وَهي التي لم تغَادرْه منذُ شهُور طويلة، فسَعِد بذلك غايَةَ السَّعادة، وحَاول أن يعرِف من ابنَتِه أو المربِّيَة سِرَّ هَذا العِلاج، ولكنّه لم يجدْ إجابةً لسؤَاله.

ومعَ تكْرار جلَسَات العِلاج السِّرية، استردَّت الأميرةُ «صَافية» كاملَ صحَّتها وقُوتها وابتعَدَ عنها شَبَحُ المرض تَمامًا. ولم يصدِّقْ الحاكمُ عينَيه وهو يَرَاها سَليمة مُعافاة تمامًا.. فأمَرَ أن يُقيمَ «حكيمًا» في أحَد أبنيةِ القصْر الفرعية، وقدَّمَ له مكافَأةً ماليَّة ضخمةً، وأعلَن عن إقَامة احتفَالات كبيرةً بالقصْر يحضُرها أهلُ البلدة بمنَاسَبة شفَاء الأميرة «صَافية».

وعُلِّقت الزينات في كلِّ مكان، وأُقيمت الاحتفَالات والوَلائمُ بهذهِ المناسَبَة السعيدة، وأصبحَ الفتَى الأسمر «حكيم» محطَّ أنظَار وإعجاب الجميع، وموضُوعَ حديثِ أهلِ البلْدة الذينَ يذكرونَه بكل خيْر إلا واحدًا فقط وهو الوزِير «نارود» وهو نَائب حاكِم البلْدة والذي وجَد في «حكيم» منَافِسًا خَطيرًا لابنه «سَاتو» الذي يَطمع في أن يكُونَ زوْج المستقبل للأميرة «صَافية». وأخذَ «نارود» يفكّر في طريقة يتخلّص بها منْ هَذَا الفتَى الغريب «حكيم».

روعة اللقاء

اجتَمَعَ الوزيرُ «نارُود» بمسَاعدِهِ وكَاتم أسرَاره «الفيرو» وصَرَّحَ له بكلّ ما يجيشُ به صدرُه، وخاصّةً مخاوفَه من أن يُصبحَ الفتى الغريبُ «حكيم» في المستقبَل زوجًا للأميرة «صَافية»، حيث استَطَاع أن يكتَسِب ثقَتَها واهتمَامَها، واكتَسَبَ أيضًا ثقةَ أبيها الحاكم ومَحبتَه. وقد أكرمَه الحاكم كثيرًا وجعَله يَسكنُ في أحدِ أبنية القصْر الفرعية، ووهَبَه مكَافأةً مالية كبيرة، كل ذلك سيدمِّر خُطته المستقبلِية فِي أن يتزوّج ابنُه «ساتو» من الأميرة «صَافية»، والذِي سيصبح هو أميرَ البلدة بعد رَحيل الحاكم الحالي.

وسأل الوزيرُ «نارود» مساعَدة «الفيرو»:

- مـا العـملُ الآن يا الفيـرو، نود التـخلُّص من الفـتَى الغـرِيب بصُورةٍ أو بأخرى؟

وردّ «الفيرو» بعد تفكِير:

- هذَا الأمـرُ يحتـَاجُ إلى خُطةٍ مـحكَمـةٍ يا سَيِّدي الوزير، خُطةٍ ذكـيـة للتخلُّص من هذَا الفتى، وفي الوقْتِ نفسه لا يشُكّ فينَا سيِّدي الحاكِمُ.

- أحسنتَ يا الفيرو، فأنا لا أريد أن تهتَزّ ثقةُ الحاكم فِينَا أبدًا.

وبعد بُرهة من التفكِير صَاحَ «الفيرو»:

- وجَدتُّها يا سَيدي الوزِيرُ.. وجدّتها.

- ماذَا وجدّت يا الفيرو؟

- الخطَّةَ يا سَيدي الوزير، الخطَّةَ التي تُرِيحُنا من الفَتَى الغَرِيب، وتَفْتَح الطريقَ فِيمَا بعد لكي ينالَ ابنكُم الغَالي «ساتو» ما تتمَنَّى.

وفي لَهفةٍ مشُوبة بقدْرٍ من السُّرور قَال «نارود»:

- إلَيَّ بها يا الفيرو .. أسرع ..

- عَلَيْنا بـ «شكتة».

- «شكتة» !!!

- نَعَم يا سَيدي الوزير تلكَ العرَّافة العجُوز الشمْطَاء التي بلَغَت من العمْرِ أرذَلَه.

وما دخْلُ «شكتة» هَذِه في الذِي نفكّر فيه؟

- «شكتـة» هَذه يا سَيـدي الوزيرَ هي التِي ستـخلّصُنا من هذَا الغـرِيب وذلِك بطريقةٍ يَدخل فيها أمورُ السحرِ والدجلِ والشعوذة.. ولكِن!

- ولكن ماذَا يا الفيرو .. تكلّمْ ..

- لكي تكُونَ معنا «شكته» في هذه الخُطّة يلزَمُ لها مبلغٌ كَبيرٌ من المالِ.

- موافِق .. موافِق يا «الفيرو» ما دَامتْ ستحقِّقُ لنَا ما نتمنّى.

- اتفقْنا يا سَيدي الوزِير، سأذهَبُ الآن إلى بَيتِها في الطرفِ الغربيّ من البلْدة وأفاتِحُها في الأمْر.

- ولكن احْذَرْ يا الفيرو من تسرُّب أي خَبر عَمّا نخطِّط له.

- اطمئِن يا سَيدي الوزيرُ، فلن يعرفَ عن خططِنا أحدٌ سوَى سيادتِكم وأنا والعرّافة «شكتة».

وذَهب «الفيرو» مسَاعِدُ الوزيرِ وكَاتمُ أسرَارِه إلى بيْتِ العرَّافة العجُوز الشمْطَاء «شكتة» - الذي يقَعُ في الطرفِ الغربيّ من البلْدة - فوجَدَها تجلسُ أمامَ مُوقِد من الفخَّار فيه بقَايا حطب شبه مُشْتَعل، وفورَ دخولِ «الفيرو» علَيها ألقَتْ قَدرًا من حبّات البخُور في الموقِد فانطلَقَت كميّةٌ كبيرةٌ من الدخّان وصَاحت:

- أووه .. لقد جِئت يا الفيرو في أمْرٍ خَطير.

وفوجِئ الرجلُ بما قالَته العجوزُ فردَّ بشيءٍ من الخوْفِ:

- وكيف عرفْتِي يا خَالة «شكتة» ذَلك؟

- عُيونك تقولُ.. ونظراتُك تُفصِح.. ووجهُكَ يتكلّم.

وبصوْت خَافت يلُفّه الخوفُ قال لها:

- نعَم، نعَم يا خَالة، لقد جِئتُ في أمرٍ خطير ..

وصَاحت العرافة:

- وهوَ متعلقٌ بالفتَى الأسمر الغريب الذِي عَالج الأميرة «صَافية».

(وكانتِ العرافةُ قد علِمت من مصَادِرها الخَاصّة بهذَا الأمْرِ).

- نَعَم، نعَم يا خالة، فالوزِير «نارود» قَلِقٌ من وُجودِه، ويجبُ التفكيرُ في التخلُّص منه.

وأكملَت «شكتة»:

- حتّى يُفسِحَ الطريقَ أمامَ ابنه «ساتو» ليكُون زَوج المستقبَل للأميرة وليكونَ حاكمَ البلدة من بَعْد أبيها.

- هو بالفِعل كما تَقُولين يا خَالة، وكأنّك تعرِفين كلَّ ما يدور ويَحدُث في القَصر.

وألقَت «شكتة» - ذات الوجه المليء بخطُوط متشَابكة وشَعْرٍ أبيض مبعْثَر - قدرًا من حبّات البُخُور وصَاحت:

- أووووه، هذا الأمْرُ يتطلَّب مبلَغًا كبيرًا من المالِ حتَّى يتم المرَاد.

- كل ما ستطلُبينه يا خَالة ستأخذينه، المهمّ هُو نَجاحُ الخُطَّة وسرِّيتها.

- إذن غدًا تأتي إليّ في مِثل هذَا الموعِد ومعَكَ صرّةٌ كبيرةٌ من المَال، ثم تصحبُنِي إلى القصْر لمقَابلة الوزِير «نارود» الذِي سيرتّب لِي لقَاءً معَ الحاكم.

- لكِ السمعُ والطاعةُ يا خَالة «شكتة»، إلى اللُّقَاء غدًا.

وألقَت العرَّافة بكمية ثَالثة من حبّات البخُور في نَار الموقِد الفخّاري وصَاحت:

- أُووووه.. الفتَى الأسْمَرُ الغريب، عنِ البلْدة سيرْحَل.

وخرَج «الفيرو» مُسرِعًا من عِندِ العرّافة «شكتة» يلفُّه الخوفُ والسُّرور وذهبَ إلى الوزير «نارود»، وحكَى لَه كل ما حَدَث، فسُرَّ الوزِيرُ بذلك أيَّما سُرُور، وتأكَّد له أن هَذِه العجُوزَ الشمطَاءَ ستحقِّق ما يصبُو إليه، وأعْطَى مساعِدَه «الفيرو» صرّةً كبِيرة من المالِ لإتْمَامِ الخُطَّة.

وفي اليوم التالي ذَهب «الفيرو» إلى العرّافة «شكتة» حسْبَ الميعَاد، وأعطَاهَا صرّةَ المالِ فقالَتْ ضاحكةً.وهي تأخذُها:

- ولِي مثلُها بعد التخلّص من الفَتَى الغَرِيب.

- وهو كَذلِك أيتُها الخالة.

- إذنْ هيّا بنَا إلى الوزير «نَارود».

واصطَحب «الفيرو» العرّافة العجُوز إلى قَصر الوزير «نارود» الذي قَابَلَها بترْحَاب ووعَدَها بصرّة مالٍ أخرى عند تحقيق المراد. وأفهمتْه «شكتة» أنها تُريد مقَابلةَ الحاكِم فقالَ لها الوزير:

- بعدَ قليل أيتُها العرّافة ستُقَابِلين الحاكِمَ، فلَقَدْ أخبرتُه أن هنَاكَ أمرًا مهمًا تريدُ عرّافة البلدة إطْلاعك علَيه.

- حسنًا .. أَحْضِروا لي عند المقَابلة إنَاءً فخاريًا به حَطَبٌ شبْه مشتَعِل.

- سنُحضِره.

وبالفِعْل قابلت «شكتة» الحاكمَ في وُجودِ الوزير «نارود»، وأفهمتْه أن الذي حدَثَ للأميرة «صافية» ما هُو إلا وسيلةٌ لتحقيق أهدافٍ مستقبليّة أكبرَ لهذا الفتَى الغَرِيب الذي يستخدِم أسَاليبَ السِّحر الأسْود.

وانزَعَجَ الحاكمُ كثيرًا من قوْل العرّافة فقَالَ لهَا:

- لا أفهَمُ ما تَقُولين أيتهَا العرّافة، فإن الفتَى «حكيم» قد استَخْدمَ أُسلُوبًا في عِلاج ابنتي لم يُردْ الإفصَاح عنه، ولكنه نَجَحَ فِي عِلاجِها وشُفِيت تَمامًا من مَرَضِها فما المشْكِلة في ذَلِك؟

- ومَا هو هذَا الأسلُوب، أيفْهمُ هذَا الصغيرُ في فُنون الطِّب؟

- بالطبع لا، ولقد حَاولْتُ أن أعْرف أسلُوبَ هذَا العِلاج منه، ولكنْ أوضَحَ لي أنَّه سرٌّ أقسَم ألا يبوحَ به لأحَد، فاحتَرَمْتُ قَسَمه.

- السرّ الذي أقْسَم ألا يبوحَ به لأحدٍ .. أنه يَستَخْدِم أسلُوبَ السِّحر الأسْوَد.

- وماذَا يقصدُ من ورَاء ذلك؟

وهنَا ألقت العرّافَة العجوزُ بكمية من حَبَّات البخُور في الإنَاء الفخَّاري المحتوي على حَطَب شبْه مُشتَعل، فانطلَقَ دُخَان البخُور يَملأُ المكَان ليزيدَه غُموضًا وغَرَابَةً، وقالَت:

- أووه .. احضَرُوا يا سُكَّان هذا المكَان ..

وأخذَت تتحدثُ مع شخْصيَّاتٍ وهميَّة غير مَرئية قَائلةً:

- يا سُكّان هذَا المكان، ماذَا يريد هذَا الفتَى الغريب من استِخدَامِ أسلُوبِ السحرِ الأسوَد، ماذَا ..؟ ومَاذَا ..؟ كفَى .. كفَى هذَا كثير، هَذَا فظِيع..

حدَث كلُّ هذَا أمامَ كلٍّ من الحاكمِ ووَزِيره وهمَا في حَالة تَعجّب مما يُشَاهِدَانه ويسمَعَانه. وهُنَا ألقَت «شكته» بمزيدٍ من البخُور فانطلَقَتْ منَ الإنَاءِ كميةُ دُخانٍ كثِيفة زادتْ منْ غُموضِ الموقِفِ ورهْبَتِه، وصَاحت:

- أووووه، أيها الحاكمُ علَيك أن تحمدَ اللَّه فلقد بيّنا المحظُورَ وكشفْنَا المستُور.

فقالَ الحاكمُ في تعجُّب وتساؤُل:

- أيُّ محظُور هذَا الذِي تَبَيّن؟ وأيُّ مستورٍ هذَا الذي تكشَّف؟

قالَت العرافة في صَوْتٍ واضِح وحَادّ متقِنةً دوْرَها:

- إن هذَا الفتَى الغريب قَد جَاء بسحْرٍ أسوَد، استَطَاع بِهِ أن يعالِجَ الأميرة، ولكنّ مِنْ وَرَاء ذلك خُطَّةٌ مستقبليةٌ على الأمدِ البعيدِ هدَفُها مَوتُك، والسيطرةُ على الأميرة، وليصبحَ هذَا الفتَى بعدَ ذلك حاكمَ البلدة.

وفي تشكُّك وعدَمِ اقتِنَاع بكلّ ما قَالَتْهُ العرَّافة من اتِّهامَات للفَتَى «حكيم» قال الحاكم:

- وما دَلِيلُكِ علَى كلِّ ما قُلْتِيه؟

- دَلِيلي أنه لم يُفصِح عن سرِّ عِلاجِ الأميرة، وقد احْتَار فِي عِلاجها كبارُ الأطباء.

وهنَا تدخَّل الوزِيرُ «نارود» في محاوَلة لتأكِيد اتهامَات العرّافَة فقَال:

- سَيدي الحاكم، إما أن يُفصِح هذا الفَتَى الغريبُ عن سرّ علاجِ الأميرة «صَافية»، وإما أن نتخلّص منه ومِنْ سحْرِه الأسْوَد.

وفكّر الحاكم جَليّا في الموقف، وقد تأثّر تفكيرُه بما قَالته العرّافة «شكتة»، وكذَلك كلام الوزير «نارود»، فأوضَح لهما أنه سَيتحقَّق ممَّا قالَتْه هذه العرّافة.

وفي الوقت نفسه استدْعَى الحاكمُ الفتَى «حكيم» الذي لم يكنْ يدْري بالمؤَامَرة التي تُحاكُ له، وفاتَحه الحاكم قائلا:

- اسمَع يا ولدي حكيم، أنا لا أُنكر أنك حقَّقت معجزةً بعلاجك لابنَتي «صافية»، ولكنَّ هناكَ شائعَات بأنك تسْعَى من ورَاء ذَلك إلى مَقَاصدَ شَخْصيّة باستخْدَام وسائلَ خَبيثة، فإما أن تُفصح عن سرِّ العلاج الذي استخدمْته مع ابنَتي، وإمّا أن يكونَ في هذه الشَّائعات شَيءٌ من الصِّحة.

- سَيدي الحاكم، أنا لم أَحضُر هُنَا لأيّ مقْصد شَخْصي، أو غرض خَبيث في نفسي، ولكنَّني عندما علِمْتُ أنَّ الأميرة «صَافية» تُعاني من مرض الهُزَال، وأنا على علم بعلاج هذا المرض بالذّات، جئْتُ لأعرضَ علاجَها. والحمد للّه بفضْلِه - سبحَانه وتعالَى - تم شفَاؤُها من هَذَا المرض اللَّعين. ولكنني أقسمْتُ ألا أبوحَ بسرِّه لأَحَد.

- بعنَادك هذَا يا حكيم فإنكَ تُؤكد الشكُوك والشَّائعات التي تَدُور حَولَك على أية حَال أنا سأعطيك فرصة ثلاثَة أيّام، فإمَّا أن تعلنَ سرَّ علاجك وإمّا سيكونُ لي معَكَ شأنٌ آخر.

والتَقَى الوزير «نارود» بمساعدِه وكَاتم أسراره «الفيرو» وأخبَرَه بأن الحاكمَ أمهَلَ «حكيم» ثلاثة أيام ليبُوحَ بسرِّ العلاج أو ليقررَ أمرًا بشأنه.

وبعد فَترة من التفكير قالَ «الفيرو»:

- سَيدي الوزير، أخشَى أن يُعلن الفتَى الغريبُ سرَّ علاجه، فَيرضَى عنه الحاكمُ ويبقَى مَعَنا.

- وجهة نَظرٍ محتمَلَةٌ يا الفيرو.. إذن ما العَمَل؟

- أرَى سَيدي أن نتخلّص منه بصُورَة نهائية.

- بصورَة نهائية، كيفَ يا الفيرو؟

- نقتُله.

- نقتُلُه .. كَيف ؟ إنه أمْرٌ خَطير.

- لا يَا سيدي لَيستْ فيه أيةُ خُطورة، فهنَاك مَثَلا سُمّ يوضَعُ لَه في الطعَام، أو ثعبانٌ خطِير يوضَع له لَيلاً في حجرتِه دونَ أن يشْعُر.

وفي تَخوّف مع تفكِير مُضطرب قالَ الوزير:

- ولكن قدْ يفتَضِحُ أمرُنا عندَ الحاكِم.

- من سيكتَشِف الطعَامَ المسمومَ، أو أمرَ الثعبَان؟! سيتمُّ الأمرُ وكأنه قَضَاءٌ وقَدَر.

وبطَريق الصُّدفة سمِعت المربِّية «مَريوم» حِوار الجريمة الذي دَارَ بين الوزير «نارود» ومسَاعِده «الفيرو»، ومنْ غَير أن يشعُرا بأنها سَمِعَت شيئًا فصُدِمت صدمةً شديدةً، فليسَ من العدْل أن يُقدِّم هذَا الفتَى النَبيلُ كُلَّ الخير للأميرة «صَافية» وينقِذُها من شَبَح الموْت الذي كَان يهدِّدُ حَيَاتها، ثُم يتآمَرون عليه ليقتلُوه.

وذَهَبت «مريُوم» مسْرعَة إلى الأميرَة «صَافية» التي فَزِعَت من هَوْل المفَاجَأة عندما أخبرتْها المربِّية بما يدورُ في الخفَاء، وأخذَا يفكرَان مَعًا في خُطَّةٍ لإنقَاذ «حكيم»، وبالفِعْل توصّلا إلى أنه يجبُ العملُ على تهريبه من البلْدة فَورًا.

وعملَت المربِّية «مريوم» من خِلال رَجُل تَثِقُ فيه تمامًا أن يُجهِّزَ مركبًا شِرَاعيًا ببحّارته ليكونَ مستعِدًا لمغادَرَة البلدة قبْل طلُوع الفَجْر.

في حين أسْرَعَت «صافية» إلى «حكيم» في مَسْكنه بالقَصْر وأخبَرَتْه أن هُنَاك مؤامرةً تُحاك لقتْله إما بطَعَام مسْمُوم، أو بعَضَّةِ ثُعبَان خَطِير يُوضَعُ في حُجرَتِه ليلاً، واتَّفَقَتْ معَه على تَهرِيبِه من البلْدَة قبلَ فجْرِ اليوم التالِي، وذلك بوَاسطةِ مركب شِرَاعِي سيُعدُّ لهذَا الغرض.

وما إن مَضَت عِدةُ ساعَات من اللَّيل، حتى تسلَّلت الأميرَةُ «صافية» إلى مَسْكَن «حكيم» والجميعُ يغطُّون في نَومهم العميق، فوجدَتْه قد استعدَّ للهرَب، فأعْطَته صُرّة من المالِ مكافأةً له علَى عِلاجها وقالت:

- أيُّهَا الفتَى النبِيلُ «حكيم» كم كُنتُ أتمنَّى أن تبْقَى مَعَنَا إلَى الأبد، ولكنِّي أرَى أن حيَاتَكَ هنا في خَطَر، فكمَا أنقذْتَ حيَاتِي من المرَض، هَا أنَا اليوْمَ أُنقِذُ حيَاتَك من عَبثِ المتَآمِرين، هيَّا أسْرِعْ بالهرَب خَارجَ القصْر ثم خُذْ طريقَك إلى شَاطِئ البلدة، وهُنَاكَ ستجِدُ مركبًا شراعيًا مستعِدًا للإبْحَار، وسيأخُذك حيثُ تشاء.

وشكَر «حكيم» الأميرة «صافية» على حُسْنِ صَنِيعها، وتساقَطَت دمُوعُهُمَا لحظَةَ الوداع.

وأسْرَعَ الفتَى بالفِرار من القَصْر، ولم ينْسَ أن يأخُذَ معه الكُراتِ الثلاث، وأخذ يُسرع فِي الجري في اتِّجَاه شَاطِئ البلْدَة، ودُون أن يشْعُر في أثنَاء هُرُوبه سقَطَت كُرة الكهرمان الصفْراء، وكُرة المرجَان البيْضَاء.

ووَصَل «حكيم» إلى شَاطِئ البلْدة وهو يلْهَثُ من المجهُودِ الذي بَذَلَه، فوجَد في انتظَارِه مَركبًا شراعيًا عليْه ثلاثَةٌ من البحَّارة، ومَا إن رَكِبَ الفَتَى المركبَ حتَّى انطَلَقَ في البحْر بعيدًا عن بلدة «المرْسَى».

ومَعَ بزُوغ نُورِ الفجْرِ مُعلنًا عن بدايةِ يَوم جَدِيد، كَانَ المركبُ الشِّراعي فِي عُرضِ البَحْر، واطمأنَّ «حكيم» أنه قَد نَجَا من الموْتِ المحقَّق، ولكنَّه اكتَشَف ضَيَاع الكرةِ الصفْراءِ والكرةِ البيضَاء فحزِنَ عليهما كَثِيرًا، ولكنّه تمتَم في نَفْسِه:

- الحمد للّه على هذهِ النتيجة، وليكُنْ ضَياع الكرتين الصفْراء والبيضَاء فَداء لحَيَاتِي ويكفِيني أن مَعِي مَالا وَفِيرًا، وأيضًا معِي هَذهِ الياقُوتة الحمراء التي لا تُقدَّر بثمن.

وبعدَ يومٍ وليلة من الإبْحار ظهرتْ جزيرةُ «المورين»، فقَال حكيم للبحَّارة الثلاثة:

- شُكْرًا جَزيلا لكم على مسَاعدتي، سأمكُثُ بعضَ الوقْت في هَذهِ الجزيرة فعودُوا إلى بلدتكم «المرسى» بارَكَ اللّه لكمْ وجزَاكم عنِّي كُلَّ خَير.

وودّع «حكيم» البحَّارَةَ الثلاثَةَ، وغادَرَ المركبَ الشِّراعي إلَى جَزيرة «المورين» وهُو لم يكنْ يعلَم أن «دهب» يَعملُ في الجزيرَةِ ذاتها.

وتَقَابَل الفَتَى مَع شَابّ من الجزيرَة يُدعى «جمّول» ارتَاحت نفْسُه إلَيه، واطمأنّ أنه طَيبُ القلْب وعلى خُلُق، وسأله عن سَفينة القَرَاصنَة، فنَفَى الشابُّ معرفَتَه بأيّ شيءٍ عنها.

وعَرف «حكيم» أن «جمّول» ينتَظِر سفينَةً تِجَاريةً ستَصِلُ في القَريب يستقلُّها في اتِّجاهِ الشَّمال، فقرّر «حكيم» أن يصْحَبَه ويُغادرَ الجزيرةَ مَعَه.

وبالفِعل أتَتْ السَّفينةُ التِّجارية، وركبَها كلٌّ من «جَمّول» و«حكيم»، ثُم أقْلَعَت السفينةُ تاركةً جزيرَةَ المورين ومتجهةً ناحيةَ الشَّمال.

وبعْدَ أنْ غَادَرت السَّفينةُ الجزيرةَ بعِدة ساعات؛ وكانَ الشَّابُّ «جمّول» يتَجاذَب أطرافَ الحديث مع حكيم فقالَ له:

- مِن أي بلدة أنتَ يا حكِيم؟

- أنَا من بلْدة صغيرة في الشّمال تُسمى «ضَيّ الفَنَار».

وفِي دهْشَة قالَ «جمّول»:

- ضَيّ الفَنَار !!

- نَعَم ضَيّ الفَنَار أتعْرِفها؟

- إن التَّاجِرَ الذي كُنت أعملُ عندَه في «جزيرة المورين» كان لَدَيه فتًى أشْقَرُ صغيرٌ عمرُه في مثل عُمرك وهوَ أيضًا من بلدة «ضي الفنار».

وصَرخ حكيم من هَوْل المفَاجأة:

- فتًى أشْقَر صَغِير من بلْدة «ضي الفنار»؟

- نَعَم .. نَعَم ..

- ويُدْعَى «دهب».

- نَعَم .. نَعَم ..

وصَاح «حكيم» من الفَرَح غير مُصدِّق ما سَمِعَه وقال:

- يا لَهـا من مُفَاجـأة، أكنتُ أنَا وصَاحِبي «دهب» في جَزِيرَة واحِدة ولَم نلْتَق؟!!

وحكَى «حكيم» للشَّاب «جمّول» حكَايته معَ دهب، فتعجَّب منها غَايَةَ العَجَب، ثم أسْرَع إلى قُبطان السَّفِينة التجَارية وقَالَ له:

- سَيِّدي القبطان .. لقد اكتشَفْتُ أمرًا في غَاية الأهميّة يستلْزِم عَودتي إلى جَزِيرَة المورين.

- ولكنَّ هَذِه العودةَ سَوف تُكلِّفُنا الكثيرَ من الوقْت والجَهْد والمَال.

- سَيدي القُبطان، أنَا على استعداد لدفع كل التكاليف المترتِّبة علَى ذلك وحسْبَ مَا تقدِّرها.

وبعدَ أن دفَعَ «حكيم» للقُبطان التكَاليفَ التي قَدَّرها، عادَت السَّفِينة التجارية إلى جَزِيرة «المورين».

ووَدَّع «حكِيم» الشَّابَّ «جمّـول» وشكَرَه على حُسْن صَنِيعه، كمَا شكَرَ القُبطان على استجَابَتِه للعوْدَة إلى الجزِيرة.

وأسْرَع الفتَى يسأَلُ بعضَ أهْلِ الجزيرة علَى التَّاجِر «مانسو» فَدلّوه على مَحلِّ تجارته. وعندمَا وصَل «حكيم» إلى التَّاجر في متْجره قالَ له:

- السَّلام عليكُم.

- وعليكم السلام ورحْمةُ اللَّه وبركَاتُه.

- سَيدي التَّاجر.. أيعمَلُ معَك هنَا فتًى في مِثْلِ عمرِي أشْقَر يُدعى «دهب».

- نَعَم يا وَلَدِي.

- وأينَ أجِدُه الآن؟

- هلْ ترى مخزَنَ البضَائعِ هذَا الذِي يبعُد عنَّا عدة يَارْدَات؟

- نَعَم أراه ..

- سَتَجِد الفتَى «دهب» في هَذَا المخْزَن.

وأسْرَعَ «حكيم» غَيْرَ مصدِّق ما يَحدُث ووصَلَ إلى بَابِ المخْزَن وقلْبه يَدُقّ بسُرعَة يكادُ يقفِزُ من صَدْره وصَاح:

- سَيّدي دهب .. سَيّدي دهب.

وتَنَبّه «دهب» إلى هذَا النِّداء وكَانَ مشغُولا بتَرتِيب بعضِ البضَائع في المخْزَن ولكنَّه لم يتَنَبَّه إلى صَاحِب الصَّوت فَقَالَ مِن دَاخِل المخْزَن:

- مَنْ ينَادِي عليّ ..

- سَيِّدي دهب .. أنَا «حكيم».

ولَم يصَدّق «دهب» سمْعَه، وصَرَخ من هوْلِ المفَاجأة:

- حكِيم .. حكِيم ..

وأسْرَعَ الفتَيان إلى بعْضِهما البعْض وكلاهما لا يُصدِّق أنَّه عَثَر على صَاحبه، وتعانَقَا عِنَاقًا حَارّا طويلا، و«دهب» يصْرُخ.

- حكيم .. كم اشتَقْتُ إلَيْكَ يا أخي.

- وأنَا أيضًا اشتقْتُ إليكَ كَثِيرًا .. كَثِيرًا ..

وتساقَطَت دمُوع الفَرَح بغزَارَةٍ مِنْهُمَا وَهُما مُتَعَانِقَيْن لا يَودُّ أحَدُهُما أن يَتْرُكَ الآخَرَ خَوفًا من أن يفْقِدَه مرةً أخرى. فيَالَه من لِقَاء وكانَا يَظُنَّان انه لَنْ يَحدُث أبدًا، ولكنّ اللهَ يُخلِفُ الظُّنون.

●●●

أفراح العودة

وبعْد أن حكَى كلٌّ منْ «حكيم» و«دهب» للآخَرِ ما حَدَثَ لَه منذُ يوم الفِرَاق في «الجزيرَة المتحرِّكة»، حَمَدا اللَّه كثيرًا على نجَاتِهما من كلِّ هذهِ المواقفِ الخطيرَة التي مَرَّا بها، وعَلَى التقائِهما في نِهايةِ المطَاف.

وبَدَأَ الفتيَان يفكرَان في كَيفيّة العوْدة إلى بلْدَتهما الصَّغيرة «ضَيّ الفَنَار»، وأشْركَا التَّاجِر طَيِّبَ القلْب «مانسو» في هذَا الأمْر. وأوضَح «حكيم» له أنَّه يمتلِكُ مَالا وَفِيرًا حَصَلَ عليْه من كُلٍّ من حاكم بلدة «المرسى» وابنَتِه الأميرة «صَافية» لأنّه استطَاع علاجَ هذهِ الأميرَة من مَرض مستعْص، كما أظْهَر «حكيم» للتَّاجر - بعْد أن اطمأن إليه - جوهَرة الياقُوت الحمراء، فبُهِر بهَا التَّاجر أيَّما

انبهار حَيث إنه لم يُشَاهدْ طَوالَ حيَاته لها مَثِيلا، ولما سَأل «مانسو» عن مَصْدَرِها؛ حكَى له «حكيم» كيفَ حصَلَ عليها، وأمسَكَ التَّاجر بالجوْهرة الحمراء متعجِّبًا من حجْمها وجمَالِها وقال:

- اسمَعْ يا وَلَدِي «حكيم»، إنّ هَذِه الجوهرةَ الفريدة ذاتُ قِيمة مرتَفِعَة جدًا، وإذَا أردْتَ أن تَبِيعَها لِي، فلن أبْخَسَك حقَّك في ثمنها، وبالتَّالِي يمكنُك بثَمَنِها معَ ما تملِكُ من مَالٍ وفِير أن تمتَلِكَ سَفِينَة كَبِيرة.

فَصَاح كلٌّ من «حكيم» و«دهب» معًا:

- سَفِينة كَبِيرة !!

- نَعَم سَفِينة كَبِيرة، فَفِي جَزِيرَتِنَا هذِه أَمهرُ عُمَّالٍ فِي بنَاء السُّفن، يعلَم ذَلك كلُّ من لَه علاقَةٌ بالسُّفُن وخاصَّةً التِّجارية مِنها، وأنَا علَى استعدَادٍ لأشْرِف لكَ علَى هذِه العمَلية.

- شُكْرًا لكَ يا سَيدي «مانسو»، وكَم من الوقْتِ يسْتَغْرِق بنَاء هَذِه السَّفِينة؟

- يَستغْرِق بناؤها من سِتَّة إلى ثَمَانِية أشْهر، ويمكنُك قبلَ مغَادَرَة الجزِيرة بهذه السَّفِينة، أن تملأَها بالبضَائع المختَلِفة، فتُدرّ علَيك أمْوالا كَثِيرة عندَ بيْعِها في البلادِ المخْتَلِفة.

- ومنْ سيتَولَّى قِيادة هَذِه السَّفِينة؟

فقالَ «دهب» علَى الفور:

- نُولِي هذِه المسئوليةَ للبحَّارين المتميّزين عَمي «بركَة»، وعَمي «عنّون» وأكمل «مَانسو»:

- ويمكِنُك أيضًا أن تستَعِين ببعضِ البحَّارة من ذَوِي الخبرة، ممّن يَسْكنون جزيرَتَنا هذه.

وتَمتم «حكيم» وفِي مخيَّلته بأنه سَيكُون من أصحَاب السُّفن التِّجارية.

- علَى بركةِ اللَّه ..

وبالفِعل اشتَرَى التَّاجر «مانسو» من «حكيم» جَوهَرَةَ الياقُوت الحمراء بمبْلَغ هائِلٍ من المال، فتوفَّرت لدى حكيم الأموَالُ اللازمة لتنْفيذ بنَاء السَّفينة التجارية تحتَ إشْراف «مانسو»، الذِي اتفَقَ مع مجموعَة كَبيرة من العُمّال المهَرَة علَى بناء سَفِينة تجارية كبيرة بمواصَفَات تم تحديدُها.

وتم تنْصِيبُ البحّار «بركة» رَاعيًا لمتابَعَةِ هذَا البناء - وقبطَانَها فيما بَعد -، وتنصيب البحارِ «عنّون» مسَاعدًا له.

ومضَت الأيامُ والأسَابيعُ والشُّهور، والسَّفِينة تعلُو في البنَاء شَيئًا فشَيئًا، وبعد ثمَانية أشهر تم بنَاءُ السفِينة تَمامًا، فكانَت في غَاية الإتقَان، ومُلئت بالبضَائع المختَلِفَة، وتم اختيارُ عشرين بحارًا للعمَل علَيها، تَحْتَ قيَادة القبطَان «بركة»، ومُسَاعده «عنّون».

وجَاء يومُ رَحيل السَّفِينة في أَوَّل رحلاتها، وودَّع كلٌّ من «حكيم» و«دهب» التَّاجر طَيب القلْب «مانسو» الذِي أحبَّهُما مثلَ أولاده، وهُما أيضًا بادلاه الحبَّ والتقديرَ كأبٍ لهما، وتسَاقط الدمْعُ في لحظَاتِ الوَدَاع المؤثّرة.

وما هِي سِوَى سَاعَات قَليلة حتى كانتْ السفِينة التجارية - التي يمتلكُها الفتَى الأسْمَر النبيلُ «حكيم» - تمخَرُ عَبَاب البحَار في طريقها شَمالا نحوَ بلْدة «ضي الفنار».

وفي أثْنَاء رحْلَة العوْدة هذِه، رَسَتْ السفِينَةُ على شوَاطئ بعْض البلاد وبعْض الجزُر، وتمّ إجراءُ عمليات تجارية تحتَ رعَايَةِ وخبْرَة القبْطانِ «بركة» أدّت إلى أرباحٍ مَاليةٍ عاليةٍ لم تكنْ في الحسْبَان.

واقترَبَتْ السَّفِينةُ من بلْدة «ضَيّ الفَنَار» بعدَ سَفَرٍ بَعيد، وعلَى سطْحِها وَقَفَ الفتيانَ في شَوْقٍ وتَلَهُّف لرؤية بلْدَتهما، وقالَ «دهب»:

- سَيدي حكيم .. لقد اقتربْنا من بلدتِنَا الحبيبة.

- سَيدي دهب .. لا تُلقّبني بكلِمة «سيدي».

- وأنتَ أيضًا، لا تلقّبني بها.

- وهو كذلك، فلنغيّرْها إلى كلِمة «صديقي»، فما أجمَلَها مِنْ لَقَب.

- نَعَمْ هذَا أفضَل، والآن يا صَديقي «حكيم» تُرى هَلْ تغيَّرت بلدتُنا أم ظَلَّت كما هِي عندمَا اضطُررنا إلَى تركِها؟

- فِي الحقِيقة يا صَديقي «دهب» إنَّنا بعُدنا عن بلْدتنا العزِيزة زَمنًا طَويلا.. وأظنُّ أن الجمِيع قد فَقَدَ الأملَ فِي عوْدتِنَا، وأصْبحْنا في عِدَادِ المفقُودين.

- نَعَم .. نَعَم في عِدَاد المفقودِين. وستكُون مفَاجأةً مذهِلةً لأهَالِي البلْدة جَمِيعًا.

- أنا لا أستطِيع أن أتخيَّل مدَى انفعالاتي ومشَاعِري عندمَا أرَى أمِّي الحبيبة، وإخوَتي الأعزّاء «سمَا» و«ندَى» و«بَاسِل»، إنَّني لا أدْرِي هلْ سأضحَكُ فَرَحًا أم سَأبْكِي شوْقًا عندَ هذَا اللقَاء الرائع.

- وأنَا مثلُك يا صديقي «حكيم» لا أدْرِي عنْ حقِيقة مشَاعِري عندَما أرَى أَبِي العزِيز، وأمِّي الحبيبة، وأختِي العزِيزة «زينة»، ولا أدْرِي كيفَ سأعبِّر عنْ مدَى اشتِيَاقِي لهم.

- نحمدُ اللَّه تعالَى على عوْدَتِنا سَالمِيْن غَانمَيْن إلى أهْلِينا، بعْد أن ذُقنا ويلاتِ الخطَر، ورأيْنَا شبَحَ الموتِ عدةَ مرّات.

- نَعَم .. الحمدُ للّه ..

وفي هذِهِ اللحظةِ أعلَنَ البحَّارُ الذي يعلُو سَارِيةَ السَّفينة وهو ينظُر بمنظَارِهِ المقرِّب عن ظهُورِ بلدة «ضَيّ الفنار» على مَدَى البَصَر.

وتعَانَقَ الصديقَان «حكيم» و«دهب» من شِدَّة الفرْحَة، فإذَا كَان قَد قُدِّر لَهُما أن يرْحلا عن بلدتهما مَقْهُورِيْن، مُختَطَفَيْن من قِبَل القَرَاصِنة، إلا أنهما قد قُدِّر لهما كَذَلك أن يعُودَا سَالِمَيْن غَانِمَيْن بإذْن اللَّه تعالى.

وعلَى الجانِب الآخَر كانَتْ الأُمُور تسيرُ بشكْل تقليدي وعاديّ على أَرض البلْدة، ففِي الحي الشَّرقي هَا هِي الأمُّ «سارة» تعمَلُ جَاهِدةً في صِنَاعة السِّلال لبيْعها في السُّوق ويسَاعِدُها في ذلك بنتَاها «سما» و«ندى»، ويُرَاقِبهما الصَّغِيرُ «باسل»، ويُقَدِّمُ أيةَ مسَاعَدة تُطلَب منه. والكَلب «دندو» يذْهبُ تارة، ويجِيءُ تَارةً أخرى، وينبحُ تارةً، ويهْدأ تارة أخرى.

وفي الحيّ الغربيّ، كانَ الثَّري «سندس» يقومُ بمراجَعة بعض معامَلاته التِّجارية فِي حِين زوْجَته «لؤلؤة» تديرُ شئُون القَصْر، والصَّغِيرة «زينة» مشغُولَة بأداءِ بعضِ الوَاجِبَات الدِّراسية.

وحدَثَ شَيءٌ عَجيبٌ للكلْب «دندو»، فقد أُصيبَ بحالَة غَير عادية، فهو يَنْبَحُ بشكْل متوَاصِل، ويَهزّ ذَيله هَزّا مُستمرّا، ويُسرع في الجَرْي نَاحيَة الشَّاطِئ ثم يُسرعُ في العَودة إلى كُوخ أسْرة الأرْمَلة «سَارة»، ثم يَرتدّ ثانيًا إلى الشَّاطئ ومنْه إلى الكُوخ، وذلِك في حَركةٍ هِستيرية غيرِ مسْبُوقة، فلَقَد شَمّ الصَّاحبُ ريَاحَ صَاحِبه.

وعلّقت «سَارة» على حَالَةِ «دندو» فَقَالَت:

- ماذَا حدَثَ لـ «دندو» يا أولادي، إنني لم أَرَه في هَذِهِ الحَالة من قبل.

فَقَالَت «سما»:

- نعم يا أُماه، لابد أن هُنَاك شيئًا غَرِيبًا قد لاحظه.

وقَالت «ندى»:

- ما يفعَلُه «دندو» دلِيل على أنه في حَالة سُرور وسَعَادة.

وتمتمت الأمّ في نفسِها حَزينة وقَالت:

- سُرور وسَعَادة.. بعد فقداننَا لـ «حكيم» لا شَيءَ يَسُرّ، ولا شَيءَ يُسْعِد..

وفرّت دمعَةٌ سَاخِنة سَرِيعة من عينها.

واقتـرَبَت السَّـفِينةُ من شَاطئ البلْدة، واستقَلَّ بعضُ البحَّـارة - ومعهم «حكيم» و«دهب» - القـوَارب، ووصَلُوا بهـا إلى الشَّط، ومـا إن لامَـسَت أقـدَامُ الفتَيين أرضَ بلْدتِهما الحبيبة حتى سَجَدَا لِلَّه حَمدًا وشُكْرًا لرجُوعِهما إلَيها بالسَّلامة.

ومَـا هي إلا لحظاتٌ حتَّى انطَلَقَ «دندو» يسَـابِقُ الرِّيح حتى اقـتَـرَبَ من صَاحِبِه الذِي صَاحَ معانِقًا لهذَا الصاحِبِ الوفِي:

- دندو .. دندو .. كَلْبِي العزِيز ..

وبعْد هَذَا العِنَاق انطلَقَ «دندو» يسابق الريحَ مرَّة أُخرى حتَّى وَصَلَ إلى كوخ عَائلة صاحبه يود أن يُخبرَها بوصُول الغَائب، وهو يُصدرُ أصْوَاتًا وينْبَح نباحًا ويَهزّ ذيْلَه ويلْوي جسْمَه فَرحًا بلقَاءِ الحبيب، ثم عَاد سَريعًا إلى صَاحبه.

ورأى بعضُ أَهالي البلْدة «حكيم» و«دهب» مع البحَّارة فعرَفُوهما وسَعِدُوا بذلكَ كَثيرًا وقد ظَنُّوا أنَّهما فُقِدَا إلى الأبَد، فانطلَقَ نفرٌ منهم في همّة وسُرعة ليبلّغ أسْرَةَ الفتَى «حكيم» بوصُوله، وانطلَقَ نَفَرٌ آخَر بالهمّة والسُّرعة نفسها إلى قصْر الثَّري «سندس» ليبْلِغَه بعوْدة ابْنه سَالمًا.

وصَرَخَت الأمُّ «سارة» عندمَا عَرَفَت الخَبَرَ، ولم تُصَدِّق أُذُنَيها، وانطلَقَت تَجري وأولادُها يتبَعَانها ومنْ خلفهم «دندو» ناحيَةَ الشَّاطئ، ورَأتْهُ عن بُعد فتسمَّرَت في مكَانها وكأن قَدَمَيْها قَد شُلَّت، ودمُوعُها تتهَمر من عَيْنَيْها.. أهذَا هُو «حكيم» ولَدُها، أم أنه شَخْصٌ يشبهُه، وقطَع «حكيم» الشَّكَّ باليقين عندما أقبلَ علَيها مُسْرعًا وهُو يُنَادي:

- أمّي .. أُمّي الحبيبة ..

إذنْ هَذَا هُو ولَدُها حكيم بشحْمه ولحْمه أمَامَها حقيقَةً لا خَيَالا، ويَالها من حقيقة، ويالَها من لحظَة لقَاء غابَتْ زَمَنًا طَويلاً حتى ظنّت أنها لن تأتي أبَدًا.

وكانَتْ العنَاقَات، والصِّياح، والدمُوعُ، والفَرْحَة، انفعَالات إنسانيةً تُشاهَد ومِن الصَّعب وصْفُها بدقّة، وانطلَقَت من حَنَاجر الجميع كلمَةٌ وَاحدةٌ هيَ: الحمدُ للّه .. الحمدُ للّه.

أمّا في قَصْر الثَّري «سندس»؛ فعندمَا علِمُوا بالخبَرَ أفقَدَت الصدْمَةُ وَعْيَ الأمّ «لؤلؤة» فأُغشِي علَيها وراحَت في غَيبُوبَة، وانطلَقَ الأبُ «سندس» يجْري غيرَ مُصدِّق ما سَمِعه من عَودة ابنه «دهب»، وهُو يبْكي ويتَمتم: أحمدُكَ يا رَب .. أحمدُكَ يا رَب.. حتَّى رأى ابنَه، إنه «دهب» ولَدُه وإن كَان قد تَغيَّر بعضَ الشَّيء ولكنه ولَدُه وكانَ لقاؤُهما ملفُوفًا باللهْفَة والشَّوْق والدمُوع والفَرَح.

وافاقت «لُؤلؤة» من غيبُوبَتِها فَوجَدَتْ ابنَها «دهب» يحتَضِنُها، فاخذَت تَصْرُخ فِي هستِيريا:

- دَهَب.. ولَدِي دهَب .. دَهَب..

وأخذَت تُحدِّثُ نفْسَها والدمُوعُ تتهَمِرُ من عَينَيها وهِي تحتَضِن ولدَها بقوّة وتخْشَى أن تفْقِدَه مرَّة أخرى:

- يا رَبِي .. هل أنَا في يَقَظَة، وان ما يحدُثُ الآن حقِيقَةٌ، أَمْ أنه حُلْمٌ من الأحْلام الكثِيرة التي رأَيتُها في منَامَات عديدة وكنتُ أرَى فِيها عودَة ابنِي دَهَب.

واحتَضنَت الأخْتُ «زينة» أخَاهَا الغَائِبَ والدمُوعُ في عَينَيها قائِلةً:

- نحمدُ اللَّهَ على سلامَتِك يا أَخِي العزيز.

ولم تَتم بلْدةُ «ضَيّ الفَنَار» هذِه اللَّيلة من الفرْحة بعوْدَة ابنَيها «حكيم» و«دهب».

وذهبَ الجميعُ لتهنئَة الأم «سَارة» بعوْدَة ابنها، وخَاصةً المعلّم «نور» الذي احتَضَنَ «حكيم» في شَوْقٍ ولهفَةٍ وكَان ولدَه قدْ عَاد إليه بعدَمَا ظَنّا الا تَلاقِيا.

وحتَّى التاجرَ «زوبعة» - الذي حَاوَلَ مِرارًا وتكرارًا أن يتزوَّج من «سارة» وهيَ ترفُض تمَامًا - جاءَ ليقدِّم التهنئةَ بسلامة عَوْدَة الابن.

كما ذَهَبَ الجميعُ إلى قَصْر الثَّري «سندس»، يقدِّمون لَه التهنئة بسلامة عودَة الابن «دهب».

وأعلَن الثَّري «سندس» إقامَةَ الأفْراح في بلْدة «ضَيّ الفنار» سبعَةَ أيَّام كاملة تُعلّق فيها الزِّينَات، وتقدَّمُ الولائِم والذُّ الأطْعِمة والشَّرابُ إلى جَمِيع أهْلِ البلْدة، وتقَامُ المهرجَانات الموسِيقية والغِنَائِية.

وبعدما هدَأت قليلا حرارَة الفرْحة وحَلاوة العوْدة، أَفْهم «حكيم» أمَّه وإخوتَه أن هذِه السفِينةَ التجَارِيةَ الكَبِيرة التي يروْنها عن بُعْد في البحْرِ هِي

ملكٌ له، وأن اللَّه قد عَوَّضهم خيرًا على كلِّ ما عَانُوه من أَسًى، وكل ما ذَاقُوه من لَوْعةٍ وحُزْن. وحكَى «حكيم» لأسْرته كُلّ ما حَدَثَ منذ أن ذَهَبَ يومَ الفِراق، وحتَّى يومِ اللِّقَاء. سواء بالنسْبة لَه، أم بالنسْبة إلى صديقه «دهب».

وكذلك حكى «دهب» لأسْرَته كل مَا مَرَّ بِهِ من أَحداث ومَواقف خطيرة، وأَيضًا ما مرّ بها «حكيم» وأوضَح لَهُم بأنه لولا الصديقُ النبيلُ «حكيم» لما أَصْبَحَ بينهُم الآن.

ووجَدَت الأسرَةُ بأن «دهب» قد تغيّر تَمامًا إلى الأفْضل، وأصبَحَ فِي غايَةِ الأَدَبِ والخُلُق الرفِيع مع الجميع، فلا مُضَايَقَاتٍ للخَادِم «مرجان»، أو للخَادمة «فَرحة»، بل كانَ يُساعِدُهما في بَعْضِ شئونِ المطْبخِ ممّا تعلَّمه في سَفِينةِ القرَاصِنة.

وكذلكَ أصبحَ يُساعدُ البستانِيّ «سالم» في عَمَلِه في الحديقة، وأبدَى لَه سعَادَتَه فِي ذَلِك.

وعندَما علِمَ الثَّري «سُندس» بما فَعَله «حكيم» مع وَلَده «دهب»، وعلِم كذلكَ أنه يَمتَلِكُ الآن سَفِينَةً تجاريّةً كَبيرة، أهْدى سفِينةً تِجارية مثلَها لولَده «دهب» وأعْلَن عن قِيَام شَركة تجارِية جديدَة تحتَ اسم «شركَة حكِيم ودَهَب للتِّجارة في أعَالِي البِحَار».

●●●

إنَّنا نُصَادِفُ فِي حيَاتِنَا كثيرًا من المَوَاقِفِ الصَّعْبة يَصِل بعْضُها إلى حَدِّ المآسي، ولكنَّنا لا نعلَم ولا نُدرك الحكمَة فيمَا ورَاء ذَلك، فقدْ تكْمُن في هَذِهِ المواقِفِ الصَّعبةِ وتِلك المآسِي سعادتُنا، وصَدَقَ اللَّهُ العظِيم إذ يقول:

﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... (٢١٦)﴾ [البقرة].

«تمت»